جان ايلينشتاين

د . مجيد الراضي

ظاهرة ستالين

منشورات

١٦





ظاهرة ستالين

منشورات

دراسات		١٦

اسم الكتاب : ظاهرة ستالين
المؤلف : جان ايليينشتاين
المترجم : د . مجيد الراضي
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة العربية الأولى ١٩٩٦

تصميم : محمد سعيد الصكار - باريس
اللوغو : صادق الصائغ

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ – ٧٧٧٦٨٦٤ – فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت – لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ – ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ – ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

مقدمة المترجم الى العربية

لماذا نترجم هذا الكتاب اليوم ؟ هل نريد بذلك أن ندخل ميدان شتم الاشتراكية والتسبيح بحمد الرأسمالية و « العالم الحر » « والديمقراطية » و « حقوق الانسان » متأخرين بعض الشيء ، بعد أن أنجز أبطال « البيروسترويكا » مهمتهم على الوجه الأكمل ، وتواروا عن المسرح لا خجلين من فعلتهم بل فرحين بما حققوا من انتصار مذهل في تفكيك السلطة والمجتمع في بلدان « المنظومة الاشتراكية! » . وبعد أن عجزت عقود من الحصار والتطويق الرأسمالي عن الوصول الى ما هو أقل من ذلك بكثير ؟ لقد عملوا ما في وسعهم بالتعاون والتنسيق المباشر مع الغرب الرأسمالي لا لازالة آخر مظاهر الدولة الاستبدادية في الاتحاد السوفييتي ، بل لكي تنحل أواصر الدولة الكبيرة وتعود أجزاء متفرقة ، ولتسود فيها على مستويات مختلفة من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية مافيات من القتلة والمجرمين العاديين . أهذه هي النتيجة لثورة عظيمة ، مثل ثورة اكتوبر ١٩١٧ ؟

اننا لسنا من الذين ينظرون بمنظار وردي الى الثورة الاشتراكية الروسية ولا الى المسار الذي اتخذته ، وكنا ولا نزال نرى فيها الكثير من الأخطاء

والنواقص ، والتي تحولت على يدي ستالين والرهط المحيط به من مقتنصي الفرص الى فجائع دموية ومأساة تأريخية مثلت باسم الاشتراكية والاشتراكية منها براء . ولكن ألم يكن ثمة طريق آخر للاصلاح . اذا كنا ننشد الاصلاح حقاً . وليس التدمير ؟ لقد أجابت الزمرة الغورباتشوفية ان الطريق الذي سلكته هو الطريق الوحيد المؤدي الى الاصلاح . فأين هو الاصلاح ؟ وما هو مآله ؟ هل هذه الفوضى القائمة في روسيا هي ما كان يبغيه غورباتشوف وأنصاره ؟ لقد قال لي أحد أنصار النظام الاقطاعي في العراق ، انه ينبغي ان يشاد نصب لغورباتشوف في كل مدينة وقرية في أرجاء العالم الكبير . أما بوريس يلتسن فهو رجل يفوق في عظمته غورباتشوف بمقاييس هائلة .

لقد وصف الغرب الرأسمالي الرسمي غورباتشوف بكونه رجله في الكرملين ، ونشأ تضارب في الآراء حول حركته بين مؤيد ومحجم . وفي حينه نشرت « نيوزويك » تعليقاً عبّر عن وجهة النظر الأميريكية الرسمية جاء فيه ما معناه ، اذا كان غورباتشوف يقصد بناء نظام اشتراكي اقتصادياً وديمقراطي سياسياً فينبغي أن لا نساعده في مسعاه ، أما اذا كان يقصد هدّ النظام بكامله فعلينا أن نرمي بثقلنا كله وراءه .

تجاهل هذه الحقيقة أنصار غورباتشوف في العالم (من المخلصين في مسعاهم للاصلاح طبعاً) . وعبّر أحد المناضلين العنيدين من أجل الاشتراكية في العراق بان البيروسترويكا كانت ضرورة ولكنها انتهت بكارثة . واذا كانت مثل هذه الضرورات ! « سوف تتكرر فالأولى بالانسان ان يبتعد بنفسه عن ميدان العمل السياسي والاجتماعي ويجلس صامتاً . فاذا كان لابد للكارثة ان تنزل بنا فلتنزل دون مساعدة منا . ألا ينطبق على أمثال هؤلاء المثل العربي القائل « سعى لحتفه بظلفه » ؟

إن السيد غورباتشوف أدان ظاهرياً الستالينية ، ولكنه استخدم الأساليب الستالينية في فرض وجهة نظره ، فشق الأحزاب الشيوعية بخاصة في البلدان « الاشتراكية » التابعة للاتحاد السوفييتي آنذاك » وهيأ المسرح

للأحداث باستغلال نفوذ شرطته (K.G.B) في الأجهزة الأمنية لهذه البلدان . وأخرج سيناريو معداً سلفاً لتطور الأحداث في هذه البلدان ، واستغل ثقة الشيوعيين وولاءهم «الأعمى» للاتحاد السوفييتي ، وايمانهم ، ايمان العجائز ، بصحة كل خطوة يقدم عليها القادة السوفييت . استغل كل ذلك لصالح نهجه وفعله التدميريين . وهكذا يبدو لنا جلياً ان السيد غورباتشوف أراد فرض «الديمقراطية!» بأساليب ستالينية . وهذا ما تجاهله أنصاره في العالم وقادة «العالم الحر» كذلك .

لقد قال غورباتشوف إنه حقق هدفه في الحياة ! ويمكن لنا أن نتساءل ـ بسذاجة ـ ما هو هذا الهدف ؟

هل هو اعادة بناء الرأسمالية في البلدان التي حاولت أن تقلعها من الجذور ، ولكن بطرق قسرية وارهابية ؟

اننا لسنا بحاجة الى جواب صريح من السيد غورباتشوف !

لقد دخل لينين التأريخ باعتباره قائد ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ومؤسس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ، ودخل التأريخ ستالين بوصفه القائد الذي سعى لبناء نظام بأساليب دموية فاجعة ، ويدخل السيد غورباتشوف التأريخ اليوم بكونه القائد المظفر لحملة تصفوية استهدفت تفكيك الاتحاد السوفييتي «والأنظمة الاشتراكية» التابعة له وسلب الحركة الجماهيرية في هذه البلدان مكتسباتها الاجتماعية التي حققتها عبر نضالها الشاق والطويل .

ولكن هل يعني هذا اننا نغلب الظروف الذاتية لتدمير الأنظمة التي كانت قائمة باسم الاشتراكية ، أم ماذا ؟

يبدو لنا أن الحركة الغورباتشوفية ذاتها كانت نتاجاً موضوعياً للمجتمع «الستاليني» ، أي المجتمع الاستبدادي . ولانها ـ كما نزعم ـ لم تكن تبغي الاصلاح أصلاً ، وان مهمتها انحصرت في هدم ما كان قائماً دون اقامة بناء بديل منه ، فقد استغلت كل الأدوات المتبقية من الفترة الستالينية سواء على

الصعيد الداخلي في الحزب والدولة ، حيث تصنع القادة بحصانة تبلغ حد التأليه ، أم على صعيد العلاقات ضمن « المنظومة الاشتراكية » ـ وهي علاقات تبعية الى حد كبير ـ والحركة الشيوعية العالمية . ولم تتعفف حتى عن استخدام التهديد والتشهير والخداع والكذب الاعلامي المفضوح والتنكيل بمعارضيها من قادة الأحزاب الشيوعية الذين خالفوها الرأي ، وتعاونت في تحقيق أهدافها مع ألد أعداء النظام الاجتماعي الاشتراكي في الغرب . وهكذا ، فان النظام الستاليني قد خلق حفار قبره بالمعنى السلبي وليس الايجابي .

لقد كانت ولا تزال الطريقة التي بنيت فيها الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي ، وكذلك ظاهرة ستالين التي كانت نتاجاً لها ورافقتها « من المهد الى اللحد » ، تحظى باهتمام كبير لدى الباحثين وجمهور المعنيين بالاشتراكية ، وهو أوسع بكثير من أوساط الشيوعيين . واذا كان ثمة اعتبارات معينة في دراسة هذه الطريقة وتلك الظاهرة في أثناء وجود « المنظومة الاشتراكية » ، فان هذه الاعتبارات قد سقطت بعد انهيار الأنظمة الاشتراكية ، ولم يعد قائماً منها سوى تراث السعي الى تحقيق حلم الانسان الأبدي بالمساواة والعدالة الاجتماعية ، أي بناء الاشتراكية . واليوم علينا أن نبدأ من جديد وأن نحرث الأرض جيداً لكي يزكو الزرع . وهذا الهدف ما حدا بنا الى ترجمة هذا الكتاب الذي هو ـ في رأينا من بين أكثر المساهمات جدية في بحث هاتين المسألتين .

ويتبادر الى الذهن سؤال مفاده لماذا نترجم كتاباً كان قد نشر عام ١٩٧٥ باللغة الفرنسية ومن ثم ترجم الى اللغة الانكليزية في عام ١٩٧٦ ؟ ألم تستجد أحداث تلغي أهميته ؟

نحن نقول إن هذه الأحداث قد استجدت ، وان موضوع البحث قد أزيل من الوجود أصلاً ونعني الاتحاد السوفييتي ، ولكن قضية الاشتراكية لاتزال قائمة وتبقى بحاجة الى التحقيق أكثر من السابق ، وعلى أسس سليمة ، ومنها دراسة التجارب القديمة بمعزل عن التأثيرات الذاتية جهد الامكان . ونحن

نعتقد أن المؤلف حقق جزءاً كبيراً من هذه النظرة الموضوعية . يضاف الى ذلك ان المؤلف عالم فرنسي متخصص بتأريخ الاتحاد السوفييتي . والشيء الأهم ان الكتاب لا يمثل وجهة نظر الحركة الغورباتشوفية التصفوية . واذا كنا لا نعرف اليوم رأي المؤلف فيما حصل حتى الآن ، الا ان الحركة السياسية الفرنسية التقدمية لا تزال تعلن ولاءها للاشتراكية وتناضل بكل الوسائل المشروعة من أجل ترويج وجهة النظر الاشتراكية والسعي الى تجسيدها في الواقع .

لقد دافع المؤلف عن الاشتراكية وبيّن بصورة مقنعة أن ظاهرة ستالين لسيت شيئاً متأصلاً في الاشتراكية ، بل كانت نتاجاً لظروف تاريخية محدودة في الزمان والمكان المعينين ، وفنّد كذلك الزعم بنموذجية الطريق الروسي الى الاشتراكية . كما رد على دعوى مُمَاثلة ستالين بهتلر وأظهر الاختلاف في الأساس الاجتماعي للظاهرتين الاستبداديتين . وقال عن ستالين : « وكان عليه أن يتقدم مرحلة فمرحلة ، وبهذه الطريقة بدا ضحاياه وكأنهم أعداء الثورة والسلطة السوفييتية . وكان هذا ضرورياً في داخل الاتحاد السوفييتي والخارج على السواء ، وعكس حقيقة ربما كان من العسير ادراكها أو الاعتراف بها ، في الواقع انه كان يبني الاشتراكية حتى وان كانت أساليبه استبدادية . »

وأجاب عن سؤال خطير أثير في بداية السبعينات هو : هل كان على البلاشفة أن يتخلوا عن السلطة ، كما يُقْتَرحُ باصرار هذه الأيام ؟

« لقد انتصرت الاشتراكية في بلد فقير ومتخلف ثقافياً وليس في بلد رأسمالي عالي التطور . وكان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية الدولة الاشتراكية الوحيدة ، وكان عليه إما أن يتقدم الى الأمام واما ان ينتحر . وقد اختار أن يتحرك الى الأمام . وكان اختياراً تأريخياً لم يكن حوله كثير من الشك . »

وفي هذا السياق تطرح مسألة الطليعة والظروف الموضوعية لانتقال المجتمع الى مرحلة تطورية أعلى ، الى تشكيلة اجتماعية أرقى . ولا نريد أن

ندلي برأي حول هذه المسألة الخطيرة ، والتي يمكن أن تقرر مصير الثورة حتى بعد عقود من السنين كما حدث ويحدث اليوم . انها عودة الحياة الى المجتمع القديم أو ما نسميه في السياسة بالردة ، غير أن العودة لا تكون مماثلة للوضع القديم ، فالمهزوم يمارس تأثيره أيضاً . ويمكن الحديث أيضاً وعن حق ، عن الرأي الذي قال به ماركس وهو ان المجتمع لا ينتقل الى تشكيلة أرقى فعلياً الا بعد استنفاد التشكيلة السابقة كل طاقاتها وصيرورتها بذلك عائقاً أمام تقدم الانسانية . الا انه ليست ثمة معايير دقيقة لا تخطئ في تقدير نضج الظروف الموضوعية ، ومن هنا تأتي امكانات الارتجاع الى الوراء ولكن مؤقتاً وريثما يكتمل النضج للانطلاق نحو التشكيلة الجديدة .

ولا نجد ما نختتم به هذه المقدمة القصيرة خيراً من الجملة التي أنهى بها المؤلف كتابه ، « ويبقى لنا الآن أن نبني الاشتراكية على أساس اقتصاد رأسمالي غربي متطور . »

د . مجيد الراضي
١٩٩٥/٢/٢٤

مقدمة

لم تولد ظاهرة ستالين مع ستالين ولم تمت بموته . وهي غير محصورة بالاتحاد السوفييتي . ولكن ذلك البلد يشكل المركز السطحي لها . وتهم كل الدول الاشتراكية التي ولدت في أعقاب الحرب العالمية الثانية وكل الأحزاب الشيوعية . وهي تؤثر في ميادين النظرية والممارسة كذلك ، وتمس السياسة مثلما تمس الاقتصاد والايديولوجيا . وقد ولدت في الاتحاد السوفييتي في عشرينات القرن بعد وفاة لينين ،وقد بدأت تتلاشى بعد موت ستالين (١٩٥٣) وبعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي (١٩٥٦) . ومن الهام أن يدرك مغزى اختيار التعبير ذاته «ظاهرة ستالين» - ان كلمة «ستالينية» لا تبدو لي وكأنها فضيحة . وعلى أية حال ، لها أضرار معينة حسب رأيي . واذا تحدثنا من الناحية التأريخية ، فانها كلمة اخترعتها البرجوازية ، سلاحاً ايديولوجياً وسياسياً ، مع انها كلمة تستعمل بشكل عام (في الأوساط الشيوعية أيضاً) وتفهم ببساطة وعلى وجه العموم .

والتعبير «عبادة الشخصية» الذي استعمله الحزب الشيوعي السوفييتي وفيما بعد تبنته الحركة الشيوعية العالمية ، يبدو حتى أقل مقبولية بما انه

يؤكد جانباً واحداً من الظاهرة ـ عبادة القائد . أما بالنسبة لتعبير « الفترة الستالينية » ، فان له ضرراً بوضعه حدوداً زمنية ضيقة جداً للظاهرة . حقاً ، حتى صفة « ستاليني » تخلق مشكلات . والظاهرة لا يمكن أن تختزل في شخصية ستالين ، وهي حتى أقل احتمالاً لان تفسر بتلك الطريقة . وعلى أية حال ، فانها لأسباب تاريخية تماماً مرتبطة باسمه . وان تعبير « ظاهرة ستالين » يبدو لي الأكثر ارضاء ، باعتباره أقل محدودية فيما يتعلق بالزمان والمكان .

وهذا الكتاب الذي يكمل كتابي « تأريخ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية » الذي نشرته في أربع مجلدات الطبعات الاجتماعية (والمجلد الرابع صدر للتو) ، يقصد به التوصيف والتفسير .

أولاً ، أهدف الى دراسة ظاهرة ستالين في جميع مظاهرها المتناقضة ، وهي مهمة أكثر صعوبة مما قد تبدو للوهلة الأولى . وهدفي الثاني ، الذي لن يخفى مغزاه على أي امرء يفكر في مستقبل الانسان ، هو أن أفهم أسبابها ، وبالتالي ، طبيعتها العميقة ، ولا يمكن لأي انسان في زماننا أن يتهرب من هذا المأزق المأساوي . أما ان تفسر ظاهرة ستالين بالظروف التأريخية التي حدثت في ظلها الثورة الاشتراكية الأولى ، وبذلك تكون ناتجاً عرضياً للشيوعية ، واما انها الناتج الحتمي لها . وهذا هو السؤال الأساس الذي سنحاول الاجابة عنه في الصفحات التالية .

ـ ١ ـ

الحزب والدولة بعد الحرب الأهلية

كان الوضع الاقتصادي في روسيا السوفييتية فور انتهاء الحرب الأهلية مفزعاً . كانت روسيا القيصرية في عام ١٩١٣ أبعد من أن تكون بلداً غنياً . وكان ثمة تطور صناعي حقيقي منذ ١٨٨٠ ، ولكنه كان لايزال محدوداً . فانتاج الطاقة المنتجة للمواد الخام (النفط ، الفحم) فاقت الانتاج الصناعي الفعلي . ومع ان روسيا قد أصبحت القوة الصناعية الخامسة الأعظم في العالم ، فانها كانت لاتزال متخلفة كثيراً عن البلدان الرأسمالية الرئيسة : الولايات المتحدة ، المانيا ، بريطانيا العظمى ، وفرنسا (آخذين في الحسبان سكانها) .

كان الناتج الصناعي لفرنسا يزيد على نظيره الروسي بمرتين ونصف ، مع ان سكان فرنسا أقل من سكان روسيا أربع مرات . وكان الناتج الصناعي للولايات المتحدة الامريكية يزيد على ناتج روسيا أربع عشرة مرة في الأرقام المطلقة ، وأكبر منه اثنين وعشرين مرة اذا أخذنا في الاعتبار عدد السكان . وعلى أية حال ، فان هذه الأرقام تظهر فقط الموقع من حيث الكمية . أما من ناحية النوعية ، فان الاختلاف كان أكبر حتى من ذلك . يضاف الى هذا ، ان

هذا التصنيع لم يغيّر بالعمق البنى الريفية لهذا البلد الشاسع . اذ كانت الصناعة مركزة في مدن كبيرة قليلة وفي مناطق قليلة (سينت بطرسبيرغ ، موسكو . دونباس ، باكو ومناطق الاورال) . كما لو انها قشرة خشبية ملصقة على هذا الجسد الريفي الهائل لروسيا القيصرية .

ان الزراعة نفسها بقيت فقيرة وقديمة الأسلوب بسبب المعدات الفقيرة ، والاستخدام الضئيل للأسمدة الكيماوية والتناول غير العلمي بصفة عامة . وكانت المردودات واطئة وكان عدد سكان الريف أكبر بالقياس الى حجم الأرض المزروعة .

ولكن عواقب الحرب الأهلية (والحرب العالمية الأولى) كانت درامية .واختفت في ألواقع الصناعة (باستثناء انتاج الأسلحة) وهبط الناتج الزراعي الى النصف ، والأرقام تتحدث عن نفسها

النسبة المئوية مقارنة بعام ١٩١٣

الصناعة	١٩٢٠	١٩٢١
تعدين الفحم	٢٦,٨	٣٠,٨
النفط	٤١,١	٤٢,٧
الحديد	١ـ	١,٦
الهندسة	٨,٧	٩,٣
السكر	٥,٩	٦,٧
القطن	٥,٢	٧,٥

الزراعة	١٩٠١ ـ ١٩١٣	١٩٢٠	١٩٢١
	المعدل		
الحصيد من الحبوب (بملايين البودات)	٤,٠٧٩	١,٧٣٨	١,٦١٧
المساحة المزروعة (بملايين الديسياتاين)	٨١,٢	٥٦,٨	٤٩

بود واحد = ٣٦,١١ باونداً ـ الديسياتاين = ٢,٧ هكتار

وكانت نتيجة هذا الهبوط في الانتاج الزراعي المجاعة في شتاء ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ ، وهي واحدة من أسوأ المجاعات في التأريخ : أصابت المجاعة ٢٤ مليون انسان في مساحة قدرها مليونا (٢) كيلو متر مربع تقريباً تغطي منطقة الفولغا الى حد الأورال والقفقاس (سامارا ، أوفا ، قازان ، تارتزين ، سواستيبول) وجنوب القرم . وكانت هذه المناطق تعيش في الماضي البعيد حيث كان البشر يموتون من الجوع بالمعنى الحرفي ، وكان وباء التيفوس والكوليرا يوجدان اضافة الى المجاعة . (أكثر من ٢٠ مليوناً عانوا آلام التيفوس بين ١٩١٧ و ١٩٢١) . وقتلت المجاعة أكثر من ٧ ملايين انسان . يضاف الى هذه الأرقام ، ان مليوناً ونصف مليون انسان ماتوا في الحرب العالمية الأولى ، ومليوناً واحداً ماتوا في الحرب الأهلية ، وراح ٣ ملايين ضحايا الأوبئة . ونتيجة للحروب الأجنبية والأهلية وعواقبها مات ما مجموعه ١٣,٥٠٠٠٠٠ انسان . وهاجر مليونا انسان تقريباً . وكان يجوب الريف ملايين الشحاذين والمشردين والأطفال المهجورين . وازدهرت العصابات كما كان الأمر في فرنسا في عهد «الادارة» . وفي الوقت الحالي ننسى بسهولة تامة الوضع الحقيقي في ١٩٢١ ـ أو نقلل من قيمة خطورته وعواقبه .

ومن الصعوبة الادعاء بان البلاشفة كانوا مسؤولين عن الحرب العالمية الأولى . أما بالنسبة للحرب الأهلية ، فانهم حاولوا تفاديها ، ومع انهم لم يرفضوا

القتال الا انهم لم يبدأوه . ومنذ منتصف تشرين الثاني ١٩١٧ ، نظم الروس البيض جيشاً وحاولوا استرداد بيتروغراد ، وقد دحر في بالكوفو (Pulkovo) . وحتى توقيع الهدنة في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، تدخل الألمان بصورة مباشرة في اوكرانيا على الرغم من معاهدة السلام التي وقعها الألمان والروس في بريست ـ ليتوفيسك . وفي آذار ١٩١٨ تمرد ضد الدولة السوفييتية الفتية (٣٠) ألف تشيكي كانوا قد حاربوا في صفوف النمساويين وكان قد أطلق سراحهم . وقد حشد الروس البيض عدة جيوش لكي يركعوا السوفييت ،وتدخلت قوات من ١٧ بلداً (فرنسا ، بريطانيا ، اليابان ، تركيا ، الخ) ضد الثورة .

ولم تكن «شيوعية الحرب» سوى كاريكتير للشيوعية ، ولد من الفقر المدقع والحرب الأهلية . وشكلت المصادرات الواسعة أحد العناصر الأكثر بروزاً في هذه السياسة ، وكانت تدعمها الفكرة الطوباوية القائلة بانه من الممكن الانطلاق فوراً ومباشرة الى الانتاج والتوزيع الشيوعيين .[1] حقاً لقد أعلن في ١٩١٨ ان الخدمات العامة سوف تكون حرة . ولم يكن صعباً على الفهم أن تكون في مثل هذه الظروف المهمة الأكثر الحاحاً وأساسية ، كما وردت في برنامج الحزب «تطوير القوى المنتجة» (لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص ٦٧ . تقرير الى المؤتمرالثاني لاقسام التثقيف السياسي ، ١٧ تشرين الأول ١٩٢١) .

ان السياسة الاقتصادية الجديدة (نيب)[2] ، نشأت من هذه المستلزمات الموضوعية ، ولكن تطور القوى المنتجة قد أعاقته حقيقتان كانتا نفسيهما قد

---

١ ـ هاجم لينين بقوة هذه السياسة الطوباوية في ١٩٢١ (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص٦٩) .

٢ ـ هذا هو الاسم الذي أعطي للسياسة السوفيتية الجديدة بعد الحرب الأهلية مباشرة - وأساسهاانهاء المصادرات والاقرار بالتجارة الحرة داخل البلاد .

ورثتنا من الحرب الأهلية : هجرة معظم الملاك الاداري من روسيا ، وقسم لا يستهان به هاجر حتى قبل الثورة ، والمقاطعة الأجنبية الكاملة في الواقع . وعنى هذا ان تتم اعادة البناء من دون فنيين أو رأس مال أجنبي .

ولم تكن هذه الظروف من دون تأثير في التطورات التي حدثت في عشرينات القرن . وهي تشكل أحد المكونات للبيئة التأريخية التي نشأت فيها ظاهرة ستالين . ان الوضع الذي وجدت فيه روسيا السوفييتية نفسها في ١٩٢١ تطلب منها أن تعطي الأولوية للتطوير الصناعي .

يحذف تشارلز بيتلهايم ببساطة تامة دراسة الظروف الاقتصادية في روسيا السوفييتية بعد الحرب الأهلية مباشرة في كتابه الأخير (الصراع الطبقي في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ، المجلد ١ ، ١٩١٧ ـ ١٩٢٣) . وثمة ميل لاحلال الأحاديث حول التأريخ محل البحث التأريخي . «انه واجب الحزب البلشفي ان يسير بروسيا على طريق الاشتراكية ، ومهماته كثيرة ، وقد أشار لينين الى أغلبها . وقبل كل شيء ، انها تتعلق بالتحويل الايديولوجي والعلاقات السياسية» (بيتلهايم ص٤٥٦) . من الطبيعي أن تعبير «قبل كل شيء» يستلزم النقد . ان التحويل الايديولوجي والعلاقات السياسية ضرورة حقاً وليس لديَّ نية أبداً للتشكيك فيها ، على الرغم من ان تسلسل الصفات «الايديولوجية» ومن ثم «السياسية» لا يبدو بالنسبة لي مصادفة ومختلف بشأنه الى حد كبير ، لانه ما كان يهم لينين في عام ١٩٢٢ «قبل كل شيء» ضمان تطوير القوى المنتجة . فعندما انتقد لينين شعار «الانتاج الديمقراطي» الذي طرحه بوخارين ، لاحظ «الصناعة لا غنى عنها والديمقراطية ليست كذلك» . . . وقد أوضح تماماً وجهة نظره سابقاً : «ان الديمقراطية مقولة مناسبة للمجال السياسي فقط .» (خطاب لينين في ٣ كانون الأول ١٩٢٠ ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٢ ص ٢٦) .

لا أتحمل مسؤولية عن هذه الصيغة ، التي تبدو لي ضيقة جداً ، ولكن هذا المقتبس يؤكد الى أي مدى كان الانتاج الصناعي هاماً بالنسبة للينين .

وكان لابد أن يكون لـ «الكارثة المرعبة» في الحقل الاقتصادي عواقبها الاجتماعية الدرامية بالنسبة لمستقبل التجربة السوفييتية . وقد درسنا هذه العواقب فيما يتعلق بأرقام السكان ، وما كان قد قيل حول مجاعة الشتاء في ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ يعطي فكرة ما عن فقر الناس فيما بعد انتهاء الحرب الأهلية للتو ، ولكن الحرب أحدثت تغييرات أساسية في موقع الطبقات الاجتماعية ، وكان التغيير الأكثر جدية هو اختفاء البروليتاريا . وقد اعترف لينين بذلك بأمانة في خطابه في ١٧ تشرين الأول ١٩٢١ (الى المؤتمر الثاني لأقسام التثقيف السياسي) : «ان البروليتاريا الصناعية في بلادنا ، انتزعت من طبقتها (declassed) نتيجة الحرب والفقر المدقع والخراب ، أعني ، انها أزيحت عن مكانها الطبقي وكفت عن الوجود كبروليتاريا . . فيما ان الصناعة الرأسمالية الكبيرة قد دمرت ، وبما ان المصانع متوقفة عن العمل ، فان البروليتاريا قد اختفت . انها تبرز أحياناً في الاحصاءات ، ولكنها ليست موحدة اقتصادياً (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ الصفحتان ٦٥ ـ٦٦) .

كان حوالي ثلاثة ملايين ونصف المليون من العمال يعملون في الصناعة الكبيرة في١٩١٣ (وهو رقم صغير بالنسبة لسكان عددهم ١٧٤ مليوناً) . وقد بقي منهم ١,١١٨ فقط في عام ١٩٢٢ . كان لايزال ثمة البروليتاريون في صفوف الجيش الأحمر ، والحزب وأجهزة الدولة (السوفيتات ، مفوضيات الشعب ، اللجنة الاستثنائية) ، ولكن البروليتاريا كطبقة اختفت تقريباً . لقد مات عدد كبير من العمال في أثناء الحرب الأهلية التي اضطلعوا فيها بدور نشيط .

وعانت الفئات المختلفة للبرجوازية الحضرية المصير نفسه . وقد شكلت ، هي والنبلاء أغلبية المهاجرين . وغادر البلاد بالجملة الصناعيون والممولون ، يتبعهم التجار . ان تعميم الشركات أدى الى الاختفاء التام تقريباً للرأسماليين الروس الذين وجدوا قبل الثورة .

كانت الخسارة في الميدان الفكري ضخمة بشكل خاص . فقد أفرغت

روسيا السوفيتية من مادتها الذهنية . ولم يكد يبقى هناك أي من المهندسين والأطباء أو المعلمين . فقد هاجر تسعة أعشارهم . وقد فقد النبلاء أملاكهم ومناصبهم . وجميع أولئك الذين لم يموتوا في الثورة والحرب الأهلية ذهبوا الى الخارج .

وعانى الفلاحون تغييرات كبيرة . ونتيجة لمرسوم تأميم الأرض التابعة للملاك العقاريين والكنيسة الاورثوذكسية ، وزعت هذه الأرض على الفلاحين ، الذين يملكونها الآن والذين سيورثونها لأبنائهم .

وفي الواقع ، كانت روسيا السوفييتية في ١٩٢٢ بلداً يسوده الفلاحون . وبالطبع ، كان هناك الفلاحون الأغنياء ، الكولاك (Kulaks) (من الكلمة الروسية التي تعني القبضة) والفلاحون الفقراء جداً ، البيدناك (bednaks) (٢٤ في المئة في ١٩٢٥) . وحتى العمال الزراعيون الذين لم يملكوا أي أرض ، باتراك (batraks) ، ولكن أغلبيتهم كانت من الفلاحين المتوسطين ، سيريدنياك (seredniaks) (٦٤,٧ في المئة)[٣] . ويجب أن يؤخذ في الاعتبار الوضع الروسي عند ترجمة هذا التعبير ، لان هؤلاء الفلاحين المتوسطين كانوا في الحقيقة ، حسب معاييرنا ، فلاحين فقراء لا يملكون سوى أكثر من حصان بقليل وبعض الهكتارات من الأرض . ونتيجة لافراغ المدن من سكانها (كان يسكن في بتروغراد ٢,٤١٥,٠٠٠ نسمة في ١٩١٦ و ٧٤٠,٠٠٠ في ١٩٢٠ ، وفي موسكو ١,٧٥٣,٠٠٠ في ١٩١٦ و ١,١٢٠,٠٠٠ في ١٩٢٠) ، كان تأثير الريف في حياة الأمة حتى أكثر مما كان عليه قبل الحرب . ولذلك ، فان الصورة العامة للمجتمع تغيرت بالكامل بين ١٩١٣ و ١٩٢١ . وتلاشت البروليتاريا والفئات المثقفة كما تلاشى الرأسماليون الأجانب والروس . وكان ما بقي ، هم الفلاحون المتوسطون ،

---

٣ ـ لينين (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٢ ، ص٢٩٥) : «لقد أصبح الفلاحون المتوسطون العنصر السائد في المناطق الريفية» .

يخاصرهم الفلاحون المدقعون والفلاحون الأغنياء جداً ، « يقودهم officered by » العمال والمثقفون الذين شكلوا العمود الفقري للحزب الشيوعي والأجهزة الادارية في البلاد .

ان الحرب الأهلية لم تخرب الاقتصاد وتقلب المجتمع رأساً على عقب فقط ، بل وخلقت دولة جديدة . واكتسبت هذه الدولة الاشتراكية مظهراً كان يمكن ان يدهش أي امرئ كان يحاول ان يتصوره في عشية الثورة . والتأريخ لا يمكن أن يكتب مقدماً ، وحتى أكثر الخيالات خصباً لا تكاد تسعف المرء بالتنبؤ بالمستقبل . لقد حلت الدولة السوفيتية محل الدولة القيصرية . ولاشك في ان الثورة سحقت الأخيرة وحطمتها كما نصح ماركس وفهم ذلك لينين .(٤) والاستيلاء على السلطة كان قد سبقه تفكيك المؤسسات القيصرية والدعائم الايديولوجية للدولة . لقد سحقت ثورة اكتوبر هذه الكومة المنخورة بالعث ، وفي الأشهر القليلة الأولى من الحكم السوفييتي ، أكملت عملية التفكيك . ولكن ، كما يقول المثل « ان التقاليد ذات الجذور العميقة الخ لا تجتث بسهولة » . وأدرك لينين هذا بعد الحرب الأهلية تماماً ، في الفترة التي سبقت مباشرة مرضه وموته . « لقد حدث هنا شيء ما مشابه لما كان يقال لنا في دروس تأريخنا عندما كنا أطفالاً : أحياناً تقهر أمة من الأمم أمة أخرى » والأمة التي تقهر هي الأمة القاهرة والأمة المهزومة هي الأمة المقهورة . واذا كانت الأمة القاهرة أكثر ثقافة من الأمة المقهورة ، فان الأولى تفرض ثقافتها على الثانية ؛ ولكن اذا كان المثال معكوساً ، فان الأمة المقهورة تفرض ثقافتها على القاهرين . ألم يحدث شيء ما مماثل في عاصمة جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية . (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص٢٨٨) .

---

٤ ـ لينين ، الدولة والثورة (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٥ ، ص٤٩١) : « الثورة تشتمل على تدمير البروليتاريا لـ « الجهاز الاداري » وماكنة الدولة بكاملها ، واحلال واحدة جديدة محلها ، مؤلفة من العمال المسلحين .

كانت المدينة الاغريقية قد قهرت بهذه الطريقة الروح الرومانية ـ فاليونان المقهورة ؛ قهرت قاهرها الضاري « هوراس رسالة ١١ ، ١٠٦ ـ وفي ١٩٢٢ عادت الدولة القيصرية الى الظهور في الدولة السوفيتية الجديدة . اذ سيطرت البيروقراطية على الدولة الاشتراكية . وحدد برنامج الحزب الوضع بوضوح عندما وصف الدولة السوفيتية باعتبارها «دولة عمال مع انحرافة بيرقراطية » (لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٢ ، ص٢٤) ، والمقالات التي كتبها لينين في أثناء السنتين الأخيرتين من حياته النشيطة شاهدة على ألمه ازاء هذه « البقية من بقايا الماضي »(٥) وهذه الانحرافة البيروقراطية جسدت نفسها في عدم القدرة على حل القضايا الاقتصادية الملموسة ، في وجود جسم من الموظفين المدنيين الذين يعملون في عزلة عن الجماهير ويتمتعون بمستوى معيشة عال ، وفي العودة الواسعة للموظفين المدنيين القيصريين (بمئات الألوف) . وكما أكد لينين في ملاحظاته التمهيدية لخطابه في مؤتمر السوفيتات العاشر في كانون الأول ١٩٢٢ (واحد من الأشياء الأخيرة التي كتبها) ؛ « ماكنة الدولة عموماً ؛ سيئة الى حد لا يوصف ؛ أوطأ من المستوى البرجوازي للثقافة » (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ص ٥٨٨) .

إن تأثير الماضي خيم بثقل على مصير الثورة ومستقبل الاشتراكية . ويمكن تشخيص مصادر عدة . أولاً ، التخلف الثقافي . ففي ١٩٢٠ ، كانت أغلبية السكان لا تزال أمية .

٥ـ مثلاً ، المقالات الأخيرة المنشورة في برافدا في ١٩٢٣ ؛ « صفحات من المذكرات » ، « حول التعاون » ، « ثورتنا » ، « كيف ينبغي اعادة تنظيم التفتيش العمالي والفلاحي » ، « أفضل أقل شرط أن يكون أفضل » (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣) .

القابلية على القراءة والكتابة
(لكل ألف من السكان)

في ١٨٩٧	النساء	الرجال	المعدل
في ١٨٩٧	١٣١	٣١٨	٢٢٤
في ١٩٢٠	٢٤٤	٤٢٠	٣٣٢

وهكذا ، فان ٧٠ في المئة من السكان تقريباً كانوا أميين . وهذه الأرقام تحتاج الى تعقيب . في الحقيقة ، ان الناس المعنيين هم أولئك الذين كانوا قد تعلموا قليلاً من القراءة والكتابة . وفي أغلبية الحالات كانوا قد نسوا هذه المبادئ الأولية . ولانهم لم يستخدموا مهاراتهم ، فان النسبة المئوية الحقيقية للأمية أعلى بكثير من الأرقام المقدمة من دائرة الاحصاء السوفيتية المركزية (مبنية على الاحصاء العام في ١٩٢٠ ، المنشور في ١٩٢٢) . وكانت نسبة الأمية بين النساء أعلى منها بين الرجال ، أعلى في الريف منها في المدن ، أعلى في تلك المناطق التي كانت مستعمرات حتى الثورة (آسيا الوسطى ، القفقاس ، سيبيريا) منها في روسيا .(٦) وهكذا ، فان نسبة الأمية كانت في روسيا السوفيتية أعلى منها في فرنسا عام ١٧٨٩ ، عندما كان المعدل هو ٦٥ في المئة . ولم يكن في المدارس المتوسطة سوى ٦٣٥,٥٩١ تلميذاً في ١٩١٤ (٥٩١,٦٤٥ في ١٩٢٢) ، وكان ١٤,٥٧٥ تلميذاً منهم فقط في الريف . وفيما يتعلق بالتعليم العالي كان التوزيع حتى أكثر سوءاً : فمن مجموع ١٢٧,٠٠٠ طالب (٣٦,٠٠٠ منهم فقط في الجامعة) كان ٣٧,٦ في المئة منهم من أصول ارستقراطية ، ١١,٥ في المئة من أسر الموظفين المدنيين الكبار ، و ٢٤,٢ في المئة من أطفال التجار والمثقفين ؛ و ٧,٧ في

6- L'Edification Culturelle en U.R.SS. Moscou, 1958.

المئة من أسر الرهبان ، و ١٤,٦ في المئة من القفقاسيين والأسر الفلاحية . ان شهرة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر ونوعية الموسيقى الروسية ينبغي الا يسمحا باخفاء الحقيقة فيما يتعلق بالحياة الثقافية والقائلة «ان الليل كان أكثر ظلاماً في روسيا عام ١٩١٧ منه في فرنسا ١٧٨٩» كما اعترف اولار صاحب كرسي التأريخ في جامعة السوربون في كتابه «تأريخ السوفييت» المنشور في ١٩٢٢ .

لم يكن هذا التخلف الثقافي مجرد مسألة تعليم ، ففلاحو (moujiks) الامبراطورية الروسية السابقة كانوا يفتقرون الى الثقافة . كانوا يؤمنون بالخرافات ، تحت تأثير القسيس الاورثوذوكسي . وعاشوا في فقر ، يعبدون ايقونات ، والصور المقدسة للمسيح ، ومريم العذراء والقديسين ، التي كانت توجد في كل كوخ فلاحي . وكانت هوايتهم المفضلة شرب الفودكا . التي تقطّر من البطاطا وتستهلك بكميات هائلة (في عام ١٩١٤ وفرت ضريبة الكحول ربع عائدات الدولة) . هذه الصورة دقيقة بصفة عامة ، مع ان تفصيلات معينة يمكن ان تحتاج الى تغيير .

ولاحظ عالم الاجتماع الفرنسي جورجيس فريدمان في كتاب نشره في ١٩٣٨ (٧) . ان « قوى الظلام » مسيطرة على روسيا المقدسة . واذا احتكمنا الى العديد من ملامح روسيا ـ أغلب سماتها في الحقيقة ـ فانها كانت لا تزال في القرون الوسطى . وهذا يبدو أكثر صدقاً لو ان المرء يدرس وعي سكانها وعقليتهم وأيديولوجيتهم . واليوم ، عليك أن تذهب الى الأقطار الفقيرة في افريقيا وامريكا اللاتينية أو الشرق الأقصى لتفهم هذا التخلف الثقافي ولتدرك في ظل أي ظروف بالتحديد كان على الاشتراكية أن تبنى . كانت الدولة القيصرية متميزة بالنزعة الاستبدادية والممارسة التعسفية للسلطة والاوتوقراطية . ولم تكد ثورة ١٩٠٥ تغير الوضع . والحقوق الأساسية مثل

7- De La Santie Russie à L'U.R.S.S.

حرية الكلام ، وحرية الصحافة ، وحرية عقد الاجتماعات وتكوين المنظمات لم تكن موجودة عملياً . ولم تكن ثمة مؤسسات تمثيلية ولا انتخابات عامة . والدوما لم يكن أكثر من جمعية استشارية منتخبة وفقاً لنظام معقد يحابي الملاك العقاريين على حساب الفلاحين ، وقبل كل شيء ، العمال . وهكذا ، لم تكن المؤسسات ولا الثقافة ديمقراطية ، ولم تكن ثمة فرصة لسلوك ديمقراطي . وكانت الصحافة ، شأنها شأن الأدب والمسرح ، مكبوتة وكانت الشرَطة السياسية (Okhrana) كلية القدرة .

وكان القيصر لا يزال عاهلاً شرقياً يحيط به النبلاء والبيروقراطيون المنتسبون الى الصفوف المختلفة للبيروقراطية القيصرية . اذ كونت « الذقون » (chins) الطبقات الأربع عشرة من الموظفين المدنيين . وكانت (« الذقون » العسكرية الثمانية الأولى محجوزة الى حد بعيد للنبلاء) . ان الحرية الشخصية لم تكن موجودة ، لان الشرطة كانت تستطيع اعتقال من تريد حينما تريد . وكان المرء يحتاج الى جواز سفر ليسافر ضمن الامبراطورية والى عدد كبير من تأشيرات الخروج للذهاب الى الخارج . وكانت الادارة المدنية غير كفء وفاسدة بممارسة قبول الرشاوى(vsiatka) .

وكان القيصر يُعظّم مثل اله ويعبد مثله ، في الأقل حتى الأحد الدامي المأساوي (٢٢ كانون الثاني ١٩٠٥) ، عندما أعطى الأمر باطلاق النار على جمع أعزل كان يقدم قائمة بمطالبه الى قصر الشتاء . وهكذا ، كان على رأس دولة كلية الحضور أشبه ما تكون بالممالك الاغريقية المبكرة والامبراطورية البيزنطية أكثر منها بالدول الحديثة في أوائل القرن العشرين . ذلكم هو ميراث الماضي . وكان ممكناً ازالته في الواقع de facto باصدار القوانين . ولكن لم يكن ممكناً اجتثاثه من وعي الناس . وكان يمكن تحطيمه بالقوة ، ولم يكن بالامكان ابعاده فوراً من الروح الانسانية ولا من السلوك اليومي . وهذه هي الحقيقة المزعجة التي تأكد منها البلاشفة في ١٩٢٢ . وقد أضيفت الى هذه عواقب الثورة والحرب الأهلية .

وفي الحال بعد سقوط القيصرية في ١٥ آذار (مارس) ١٩١٧ وحتى تموز (يوليو) ١٩١٧ ، وجدت حرية سياسية حقيقية . وبعد المظاهرات الدامية في ١٧تموز (يوليو) لجأت الحكومة المؤقتة بقيادة كيرنسكي الى اجراءات قمعية ضد الحزب البلشفي بذريعة الخيانة العظمى ؛ احتلت مقرات الحزب ، وحظرت صحفه واعتقل قادته (كامينيف ، تروتسكي ، وعشرات غيرهما) . ولم ينقذ لينين نفسه الا الهرب . وفي ظل كيرنسكي ، كانت دكتاتورية عسكرية مضادة للثورة آخذة في التشكل ، ولكن محاولة الانقلاب العسكري التي قام بها الجنرال كورنيلوف فشلت بسبب معارضة جنوده أنفسهم الذين كسبهم البلاشفة الى صفهم . وينبغي رؤية ثورة اكتوبر في هذا السياق التأريخي على وجه التحديد . ولو لم تنفذ الثورة ، لكانت روسيا قد ناءت تحت نير دكتاتورية عسكرية ؛ وثمة أمثلة تأريخية عديدة تعلمنا انه لَصَعْبٌ التخلصُ من نظام حكم مثل هذا .

وما ان جرى الاستيلاء على السلطة في بيترغراد حتى كان يجب مواجهة قوى الثورة المضادة عسكرياً ، ومكافحة التخريب الاقتصادي الاداري . وهكذا ، بدأت الدولة السوفيتية الفتية تسير في طريق القمع ، الا انها سارت فيه ببطء وتردد . ومن الناحية النظرية ، كان البلاشفة مدركين منذ وقت طويل هذه الضرورة . والدور الذي اضطلع به العنف في التأريخ لم يكن سراً لا بالنسبة لماركس ، ولا لانجلز الذي قام بدراسات دقيقة وواضحة له .(٨)

ان الخبرة التأريخية للاشتراكية منذ بداياتها تؤكد هذه الدراسات ، ونعرف بأي عناية درس لينين ، بعد ماركس ، تأريخ كومونة باريس في عام ١٨٧١ ، التي برهنت على انها كانت رحيمة جداً وأغرقت بدماء عشرات آلاف العمال الباريسيين لانها كانت بطيئة جداً في اتخاذ الاجراءات الضرورية ضد أعدائها . ومن وجهة النظر هذه ، يوجد المثل الايجابي للثورة الفرنسية مع

٨ ـ على سبيل المثال ، انجلز ، حول دور القوة في التأريخ .

ارهاب عامي ١٧٩٣ ـ ١٧٩٤ ، والمثال السلبي لكومونة ١٨٧١ اللذين أظهرا الحاجة الى استخدام السلطة الثورية في ظروف تأريخية محددة . ومع استجماع القوة أدت الأخيرة الى الارهاب الأحمر . وسوف يكون من عدم الأمانة الفكرية نوعاً ما ان ندرسه في معزل عن البيئة التأريخية التي ولّدته . وعلى أية حال ، هذا ما قام به كثير من المؤلفين ، على سبيل المثال ، رويدت كونكويست في «الارهاب العظيم» أو في شكل أدبي مثل سولجنتسين في ارخبيل الغولاغ (The Gulag Archipelago)[٩] . وفي ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ، على الضد من نصيحة لينين ، ألغى مؤتمر السوفيتات الثاني عقوبة الاعدام ، ولكن في اليوم ذاته قرر اخضاع الصحافة لـ «رقابة العمال» لكي يمنع البرجوازية من تشويه ما كان يحدث . وفي ٣٠ تشرين الثاني ، أوقفت جميع الصحف غير البلشفية في بيترغراد ،وحلت لجنة صيانة الوطن والثورة ، التي كان دوما بيترغراد قد أسسها ، ومن ثم واجه المجلس (دوما) المصير نفسه . وفي ١٨ كانون الأول (ديسمبر) فرض الحظر على حزب الكاديت (الحزب الدستوري الديمقراطي) ، ولكن الارهاب الأبيض كان قد بدأ بالفعل . ففي موسكو ، اشتبك الحمر والبيض في صراع عنيف لمدة أسبوع من ٧ إلى ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ . وكانت عدة مئات من الجنود الحمر قد عزلت داخل الكرملين ، وذبحها البيض دونما سبب عسكري وجيه . ورفض البلاشفة اتخاذ اجراءات قمعية واسعة (اللجوء الى الارهاب) . واعمال القسوة القليلة التي حدثت كانت نتيجة لمبادرات فردية . وفي ٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧ قتل حشد من الناس الجنرال دوخونين ، القائد الأعلى للجيش ، في مقره . وكانت هناك بعض الاعدامات أيضاً في بيترغراد في تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الأول (ديسمبر) . ولكن لم يستحثها القادة البلاشفة الذين حموا

---

٩ ـ ليكن واضحاً تماماً ان نقدنا لأفكار سولجنتسين لا يتعلق بمواهبه ككاتب ولا يبرر الاجراءات القمعية . والأفكار التي ينبغي مكافحتها بالأفكار فقط .

الوزراء السابقين في حكومة كيرنسكي من الهياج الشعبي وعندما تدهور الوضع الداخلي ، وسادت الفوضى وانفجرت الحرب الأهلية ، أصبح القمع أكثر قسوة . وكما أعلن تروتسكي : «اننا لا ندخل مملكة الاشتراكية مرتدين قفازات الفتيان ونسير على أرض مكسوة بالخشب ومدهونة» المجلد ٣ ، الكتاب ٢ ، ص ٢٥٢) .

وقد اعتقل قادة الكاديت والجناح اليميني من الاشتراكيين الثوريين في بيترغراد وموسكو . وفي ٢٣ كانون الأول (ديسمبر) بدأت محكمة بيترغراد الثورية عملها . وفي ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧ شكلت بموجب مرسوم سري (نشر نصه في برافدا في ١٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٧) من سوفنا ـ كوم ـ مجلس مفوضي الشعب ـ اللجنة الاستثنائية لعموم روسيا Vecheka حسب الحروف الأولى الروسية) ، وكانت وظيفتها «مكافحة الثورة المضادة والتخريب» . وقد أنشئت في اللجنة العسكرية الثورية التي أعدت وأدارت فعلياً ثورة اكتوبر . وهذه اللجنة التي رئسها دزرجينسكي ، وهو ثوري متمرس (من أصل بولندي) ، كانت مؤلفة من ثمانية أعضاء . وشكلت لجان محلية على غرارها .

وبحلول كانون الثاني (يناير) كان الوضع في روسيا مفزعاً بالفعل . كان ثمة جيش أبيض ممن يدعون بالمتطوعين . يحتشد على الدون . وكان الحمر والبيض في اوكرانيا وكذلك فنلندا ملتحمين في صراع عنيف . وكانت القوات الألمانية تهدد باحتلال بيترغراد والزحف على موسكو . وكان ثمة نقص في المؤن في كل مكان . في هذا الوقت كتب لينين مقالة عنوانها «كيف ننظم المنافسة» ، تلك المقالة التي يستخدمها سولجنتسين في «ارخبيل الغولاغ» ليحاول البرهنة على ان الستالينية يمكن تتبع أثرها عند لينين .(١٠) وفي مقالة

---

١٠ ـ ارخبيل الغولاغ ، المجلد ٢١ ، ص٢٢ ؛ لينين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، ص٤٠٤ .

(مكتوبة بين ٧ و ١٠ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ ، ولكنها لم تنشر الا في برافدا في ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٩) يشدد لينين على الدور الذي يجب ان يضطلع به العمال والفلاحون في حقل الانتاج وفي تنظيم المحاسبة والمراقبة اللتين «يمكن للشعب فقط ان يمارسهما » .ويعلن «الحرب حتى الموت على الأغنياء والتابعين لهم ، والمثقفين البرجوازيين ؛(. . .) حرباً على المتشردين ، والكسالى والمشاكسين» ، ويضيف ان آلافاً من الأشكال والطرق العملية لمحاسبة الأغنياء والمتشردين والكسالى ومراقبتهم ، يجب ان تقوم البلديات ذاتها ووحدات صغيرة في المدن والأرياف باستنباطها واختبارها عملياً . ان التنوع ضمانة للفاعلية هنا ، انه عهد بالنجاح في انجاز الهدف المشترك الوحيد ـ تنظيف أرض روسيا من جميع الضارين ، من البراغيث ـ المتشردين ، من البعوض ـ الأغنياء وكل من على شاكلتهم . في أحد الأمكنة عشرة من الأغنياء اثنا عشر متشرداً ، ستة عمال يتهربون من عملهم . . . سوف يوضعون في السجن .»

آمل أن يسامحني القارئ على هذا المقتبس الطويل ، ولكن من الواضح انه لمن الصعب استناداً لهذا النص تفسير ارهاب ستالين ، الذي كان موجهاً ضد الشعب . ونص لينين مؤرخ بكانون الثاني (يناير) ١٩١٨ ويفسره السياق التأريخي . ويوافق ا ي .هـ . كار بصدد تأسيس اللجنة الاستثنائية لعموم روسيا . «في اللحظات الحاسمة لنضال شاق ، لا يكاد يعتبر تأسيس مثل هذه الأجهزة شيئاً غير اعتيادي»(١١) ، وفيما بعد : «ان تطوير اللجنة الاستثنائية لعموم روسيا كان تدريجياً وعملية لم يجر فيها التفكير مسبقاً الى حد كبير .» وخلال ربيع وبواكير صيف ١٩١٨ ، فان ملاك اللجنة الاستثنائية (cheka) نما ، ولكنه كان لا يزال محدوداً وسلطاته متواضعة . والتمرد التشيكي(١٢)

---

١١ ـ أي .هـ . كار ، الثورة البلشفية ، المجلد ١ ، ص١٥٩ .

١٢ ـ كان هناك سجناء سابقون من التشيك والسلوفاك ممن قاتلوا في صفوف النمساويين ؛ لقد حرروا في زمن الثورة ، ورفع (٣٠) ألفاً منهم السلاح ضد السوفييت .

جعل الوضع أسوأ ، بينما اغتصبت اليابان فلاديفوستوك وأنزلت بريطانيا وفرنسا قواتهما في مورمانسك وأرخانغيلسك .

في تموز (يوليو) ١٩١٨ حاول الجناح اليساري للاشتراكيين الثوريين (كانوا أعضاء في مجلس مفوضي الشعب من كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧ الى نيسان (ابريل) ١٩١٨ . وكانوا لا يزالون مرتبطين مع البلاشفة في اللجنة التنفيذية المركزية للسوفيتات) دون نجاح القيام بانقلاب عسكري في موسكو وبيتروغراد ومدن أخرى قليلة . وفي ٣٠ آب (اغسطس) ١٩١٨ أصيب لينين برصاصتين ونجا من الموت بصعوبة اثر محاولة لاغتياله قامت بها اشتراكية - ثورية يسارية تدعى فاني كابلان . وفي اليوم نفسه اغتال في بيتروغراد طالب اشتراكي - ثوري يساري قائد اللجنة الاستثنائية في بيتروغراد يوريتسكي (وفي حزيران (يونيو) ١٩١٨ كان قد لقي المصير نفسه فولودارسكي القائد البلشفي في بيتروغراد) . وحتى ذلك الوقت كان عدد الاعدامات قد بقي صغيراً . لقد أعدمت الأسرة المالكة في ١٧ تموز (يوليو) ١٩١٨ في ايكاتيردنبيرغ بينما كانت القوات التشيكية تقترب من المدينة . وعلى أية حال ، لم تكن ثمة اعدامات واسعة . وفي ٢٣ تموز (يوليو) صدر مرسوم ضد المضاربة انطوى على عقوبات مشددة (حتى عشر سنوات حبس مع الأشغال الشاقة) ، لكل من يضارب بالمواد الغذائية . وفتحت محاولة اغتيال لينين مسارب الفيضان الدموي للغضب الشعبي . وفي الحال أصبح الارهاب مؤسسياً . وفي ٢ ايلول (سبتمبر) أعلنت اللجنة التنفيذية المركزية للسوفيتات : «ان حكومة العمال والفلاحين سوف ترد على الارهاب الأبيض لأعداء العمال والفلاحين بارهاب أحمر واسع موجه ضد البرجوازية وعملائها . » وفي اليوم نفسه شكل مجلس حرب ثوري يقوده تروتسكي . وفي ٣ ايلول (سبتمبر) ، أصدر مفوض الشعب للشؤون الداخلية اعلاناً : «كان ثمة ما يكفي من الرحمة وما يكفي من التغاضي . ان جميع الاشتراكيين - الثوريين اليمينيين ممن تعرفهم السوفيتات المحلية يجب اعتقالهم فوراً . وسوف نأخذ

عدداً كبيراً من الرهائن من بين البرجوازيين والضباط . واذا ما أظهر البيض أبسط مقاومة أو أبدوا أي نشاط ، فسوف نستجيب ليس بالمناقشة بل باطلاق النار على نطاق واسع .»

ولا يمكن فهم هذه الكلمات الا اذا وضعناها في سياقها التأريخي . كانت الثورة في خطر وكان التشيك ، بالتحالف مع البيض يهددون المراكز العصبية للبلاد . وكانت القوى الأجنبية ؛ من جميع الجهات ،ترمي نفسها على روسيا لكي تشارك في المجزرة . (١٣) وفي ٧ ايلول (سبتمبر) ١٩١٨ أعلنت اللجنة الاستثنائية (cheka) للينينغراد اعدام ٥١٢ شخصاً . وهكذا حدثت الآلاف من حالات الاعدام وعشرات ألوف الاعتقالات . لقد شعرت الثورة الفرنسية بضرورة اتخاذ اجراءات الارهاب ضد النبلاء والمتواطئين مع القوى الأجنبية ، وحدثت مذابح ايلول (سبتمبر) ، وذلك بعد ان أصدر الدوق برونزويك بيانه وعانى الجيش الثوري أولى هزائمه في ايلول (سبتمبر) ١٧٩٢ . وتنامى الارهاب الأبيض أيضاً . وأعدمت الجيوش البيض والمتدخلون الأجانب عشرات ألوف الأسرى من الجنود الحمر . وفي النهاية ، ان القوى الامبريالية كانت المسؤولة عن الحرب العالمية الأولى التي أسفرت عن حمام من الدم لا سابقة تأريخية له . وأكثر من عشرة ملايين قتيل وعشرات ملايين الجرحى ! ان بضع عشرات الألوف من ضحايا الارهاب الأحمر «يبدو شيئاً لا أهمية له بالمقارنة مع تلك المذبحة . ليس قصدنا أن نكتب قصة الارهاب ، ولكن لنفهم أصوله وندرس عواقبه بالنسبة للمستقبل . ولذا دعونا نكن في غاية الصراحة حوله .

---

١٣ ـ ليس هنا مجال الحديث عن قصة التدخل الأجنبي ، ولكن مما يستحق التذكير هو الدور الفعلي حقاً الذي قام به الجواسيس البريطانيون والفرنسيون في التحضير لانقلاب تموز (يوليو) وفظائع آب (اغسطس) (انظر ، بروس ولكهارت ، مذكرات عميل بريطاني .) ان نشاطات سِدني ريلي وكذلك الجنرال الفرنسي ل . دي لافيرنه Lavergne مذكورة في أعمال عديدة ويشهد عليها الكثيرون .

لو ان البلاشفة لم يتصرفوا بهذه الطريقة ، لكانت الثورة السوفيتية قد هزمت ، ولكانت اليوم ، شأنها شأن كومونة باريس ، مجردذكرى مدفونة في عقول الناس . وبالطبع ، هذا لا يبرر الانتهاكات التي جلبتها في أعقابها ، ولكن ، من حيث الأساس ، كان أمام الثورة خيار بسيط اما ان تسلك هذا السلوك واما ان تهلك . وقبل كل شيء ، علينا أن نرى ان الارهاب كان موجهاً نحو أعداء الشعب ، نحو أولئك المسؤولين عن الحرب والمجاعة ، نحو المضاربين والبيض . وهكذا ، فانه لا يمكن مقارنته ، لا من حيث الأهداف ولا من حيث العواقب بالارهاب الستاليني . يضاف الى ذلك ، انه ليس كافياً ان يقنع المرء نفسه بأوصاف أنيقة لشناعات الحمر ، كما يفعل سولجنتسين ، بينما كان سلوك البيض قاسياً وعديم الرحمة طيلة سنوات الحرب الأهلية . ان الجرائم التي اقترفتها جيوش كورنيلوف ، دينيكين ، رانغل ، بتلييورا ، يودينتش ، وكولتشاك يجب أن تعد بمئات الألوف ؛ عذّب وقتل الشيوعيون كما في قازان وسامارا ، ونظمت اغتيالات جماعية للعمال كما في ميكوب (في القفقاس) ، وحرقت القرى كما حدث في ليجوكا قريباً من الدون ، حيث قتل جنود كورنيلوف ٥٠٧ أشخاص ، ولا أحد يذكر المذابح التي حدثت في اوكرانيا التي يسيطر عليها البيض وكلفت الناس مئة الف قتيل (كما ورد في تقرير الصليب الأحمر الى عصبة الأمم) . لان اليهود كانوا بالنسبة للجنرالات البيض هم المحرضين على الثورة وقادتها .

ونحن لا نسعى الى الاعتذار عن شيء ، بل مجرد أن نضع الأشياء في منظورها . لان كل هذه الأحداث وقعت في بيئة تأريخية مختلفة تماماً عن بيئة ظاهرة ستالين .

ان عام ١٩٢١ شهد تشكيل عدد معين من المؤسسات ، والبنى والآليات التي تجاوزت في حياتها الحاجات والظروف التي خلقتها . وهذا ما يصدق على الشرطة السياسية . وبسبب الأحداث ازدادت أهمية اللجنة الاستثنائية لعموم روسيا باطراد . لقد اعتقلت وحاكمت وأعدمت المشتبه بهم دونما أي

اشراف خارجي . وكان السجناء يحكمون غيابياً . كانت اللجنة تراقب الصحافة والكتب ، والرحلات التي يقوم بها الناس ، والأمكنة العامة ، ولنقل كل شيء . وكانت تمتلك ملاكاً كبيراً (مئات ألوف الناس) وتتصرف كما يحلو لها . وقد سبب دورها بعض القلق بين البلاشفة أنفسهم . وفي مؤتمر السوفيتات التاسع لعموم روسيا في نهاية كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢١ ، قدم لينين ايضاحاً طويلاً لآرائه حول هذا الموضوع . «قبل الختام ، أريد أن أطبق هذه العبرة مرة أخرى وأعني ـ ان عيوبنا بعض الأحيان هي استمرار لمزايانا ـ على احدى مؤسساتنا ، على اللجنة الاستثنائية . «وبعد ان يستذكر تآمر الأعداء الداخليين والخارجيين على الثورة ، يضيف قائلاً : «انكم تعرفون ان الطريقة الوحيدة التي استطعنا ان نرد بها عليهم كانت القمع الفوري السريع وغير الرحيم ، ذلك القمع الذي حظي بتعاطف ودعم العمال والفلاحين . . . وطالما وُجِدَ المستغلون (بكسر الغين) في العالم ، الذين لا يرغبون في تقديم أملاكهم وحقوقهم الرأسمالية على طبق للعمال ، فان سلطة الشغيلة لا يمكن ان تظل على قيد الحياة دون مؤسسة مثل هذه . ونحن نعي ذلك بشدة ، ونعرف أيضاً ان مزايا الانسان يمكن ان تصبح عيوبه ، ونعلم ان الظروف السائدة تطلب باصرار ان يكون عمل هذه المنظمة محدوداً بالمجال السياسي بصورة خالصة ، وان تكرس جهودها للمهمات التي يساعدها عليها الوضع والظروف .» وفيما بعد يشير : «ولكن في الوقت نفسه نقول بشكل قاطع انه من الضروري اصلاح اللجنة الاستثنائية» وتحديد وظيفتها وصلاحياتها وحصر عملها في القضايا السياسية .» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، الصفحتان ١٧٥ ـ ١٧٦) . وهكذا ، فانه من الواضح للقادة البلاشفة ان هذه كانت مسألة هامة . «ان الوضع يجعل من الضرورة المطلقة حصر نشاطات هذه اللجنة وكذلك اصلاحها ، وتحديد وظائفها ومجال عملها .» «ونحن لا نفعل سوى اقتباس كلمات لينين .وخاتمة خطابه كانت واضحة تماماً : «(انه لامر الزامي) طرح الشعار الثابت لشرعية ثورية أكبر» (المؤلفات الكاملة ، المجلد

٣٣ ، ص١٧٦) . وصوت المؤتمر على قرار اقترحه سيمرنوف وتبناه بالاجماع . « يعتبر المؤتمر ان التعزز الراهن للسلطة السوفيتية داخلياً وخارجياً على حد سواء ، يجعل من الممكن تركيز نشاط اللجنة الاستثنائية وأجهزتها ، والاحتفاظ للهيئات القضائية بمكافحة أولئك الذين يخرقون قوانين الجمهوريات السوفيتية . ووفقاً لذلك ، دعا مؤتمر السوفيتات هيئة رئاسة لجنة السوفيتات التنفيذية المركزية ان تعيد النظر بالسرعة الممكنة في اللوائح الداخلية للجنة الاستثنائية وأجهزتها . بهدف اعادة تنظيمها ، والحد من مجال عملها وتعزيز مبادئ الشرعية الثورية . » وعلى النقيض مما يقوله كار لم تكن هذه مناورة تكتيكية ، بل قراراً مبدئياً ، واجه مصاعب جدية في تطبيقه . ففي ١٨ شباط (فبراير) ١٩٢٢ حلت اللجنة الاستثنائية ونقلت صلاحياتها الى مفوضية الشعب للشؤون الداخلية ، التي شكلت مديرية سياسية للدولة (G.P.U) وفقاً للحروف الأولية الروسية) . فأي امرئ يعتقل كان يجب اما اطلاق سراحه أو تقديمه الى المحاكمة خلال شهرين . ما لم تقرر هيئة رئاسة لجنة السوفيتات التنفيذية المركزية ان ذلك غير ملائم .

وباختصار ، ان الحرب الأهلية شهدت خلق شرطة سياسية جبارة أقلق دورها القادة السوفيت . فهل كانت الاجراءات التي اتخذت في ١٩٢٢ كافية لمكافحة هذا الخطر لوجود دولة داخل الدولة ؟ وأي دور كان للشرطة السياسية ان تضطلع به في ميلاد ظاهرة ستالين ؟ ان عواقب الحرب الأهلية كانت حتى أكثر خطورة .

من الناحية النظرية ، كانت ثورة اكتوبر قد أسست « دكتاتورية البروليتاريا » وقوتها الحرب الأهلية . وتعبير « دكتاتورية البروليتاريا » اخترعه ماركس ، ويعبر عن مفهوم نظري عظيم الأهمية . انه قابل دكتاتورية البرجوازية التي وجدت في المجتمع الرأسمالي بـ « فترة انتقال سياسية لا يمكن للدولة ان تكون فيها الا دكتاتورية البروليتاريا الثورية » (ماركس ، نقد برنامج غوتا ، ١٨٧٥) . وانها تبقى طيلة الفترة بين الرأسمالية والمجتمع

الشيوعي ، أي لفترة المجتمع الاشتراكي . ولكن ماركس لم تكن في ذهنه أشكال سياسية محددة . ولينين في «الدولة والثورة» يشدد على فكرتين مكملتين ؛ فمن جهة ، الضرورة الأساسية لدكتاتورية البروليتاريا ، ومن الجهة الأخرى ، تنوع الأشكال السياسية التي يمكن أن تتخذها هذه «الدكتاتورية» . وفي النهاية ، كان ماركس ، شأنه شأن لينين ، معنياً بوصف المحتوى الطبقي للدولة ، بما ان كل دولة ، في عيونهما كانت بالتعريف أداة تسيطر بوساطتها طبقة على طبقة أخرى (أو كل الطبقات الأخرى) . وبحلول عام ١٩٢٢ ، كانت الثورة والحرب الأهلية قد خلقتا دولة جديدة ضمنت «دكتاتورية البروليتارية» . ومع ذلك ، فان الوضع كان غريباً بالتأكيد . في الواقع ، اعترف لينين ان البروليتاريا قد تلاشت (ولكن ليس البروليتاريون الذين كانت أعداد كبيرة منهم تعمل في السوفيتات وفي منظمات الحزب ، أو كانوا يرتدون البزة الرسمية للجيش الأحمر أو اللجنة الاستثنائية) . وبسبب اختفاء البروليتاريا فان «دكتاتورية البروليتاريا» لا يمكن ان تعبر الا عن مفهوم مجرد . ومما لا يثير الدهشة في ظل مثل هذه الظروف ان تصبح دكتاتورية الحزب البلشفي مطابقة في الواقع de facto ان لم يكن في القانون لدكتاتورية البروليتاريا .

والحقيقة في ان حزباً واحداً كان موجوداً في ١٩٢٢ مرتبطة بتأريخ الحرب الأهلية . وبقدر ما يتعلق الأمر بالأحزاب اليمينية ، فان الوضع كان قد اتضح بسرعة نتيجة للدور العاجل والمباشر والفعال الذي اضطلعت به في الثورة المضادة . وكما رأينا ، فان حزب الكاديت قد حُلّ وقادته اما أرسلوا الى السجن واما اضطهدوا وفرض الحظر على صحفه (بعض صحفه كانت لا تزال تصدر في موسكو في صيف ١٩١٨ ، مثلاً صحيفة روسيا الحرة) .

وكان الوضع أكثر تعقيداً بالنسبة للأحزاب الأخرى . وأدار القادة البلاشفة ، بعد ثورة اكتوبر ، مناظرة حيوية قبل رفضهم فكرة «كتلة» اشتراكية كان يمكن أن تضم الاشتراكيين الثوريين ، والبلاشفة ، والمناشفة .

لقد انقسم الاشتراكيون ـ الثوريون الى حزبين . فمنذ بداية الثورة اتخذ اليمينيون موقفاً مضاداً للثورة ، بينما التف اليسار حول الثورة . وهكذا ، من كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٧ الى نيسان (ابريل) ١٩١٨ ، شارك الاشتراكيون ـ الثوريون اليساريون في مجلس مفوضي الشعب ، الذي استقالوا منه احتجاجاً على توقيع معاهدة بريست ـ ليتوفسك . وعلى أية حال ، بقوا أعضاء في لجنة السوفيتات التنفيذية المركزية حتى تموز (يوليو) ١٩١٨ ، عندما ساهموا في انتفاضة عسكرية ضد البلاشفة .

وبحلول ١٤ حزيران (يونيو) ١٩١٨ ، كان المناشفة قد أزيلوا من لجنة السوفيتات التنفيذية المركزية ، وجاء دور الاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين بعد انقلاب تموز (يوليو) ١٩١٨ فوراً .وعلى أية حال ، فان الأحزاب لم تحل واستمرت الصحف بالصدور . وفي اكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٨ ، عقد المناشفة كونفرنسا في بيتروغراد ، اعترفوا فيه بالضرورة التأريخية لثورة اكتوبر وأدانوا التدخل الأجنبي ، بينما دعوا الى انهاء «الارهاب الاقتصادي والسياسي» . وتبنى قسم من الاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين موقفاً مماثلاً . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩ قررت لجنة السوفيتات التنفيذية المركزية اعادة المناشفة ، باستثناء المجموعات التي تحالفت مع البيض أو المتدخلين الأجانب ، ومن ثم أعيد في شباط (فبراير) ١٩١٩ الاشتراكيون ـ الثورويون اليساريون وطبقت عليهم الشروط ذاتها . وفي ١٩٢٠ ، كان لايزال يوجد مقر لحزب المناشفة في موسكو ، وعقد المناشفة اجتماعات لهم في ايار ١٩٢٠ . وفي عام ١٩٢٠ كان لا يزال عدد كبير نسبياً من المناشفة والاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين أعضاء في السوفيتات . وحتى قد حضر قادة مناشفة معروفون ، مثلاً دان ومارتوف ، المؤتمرين السابع والثامن للسوفيتات في ١٩١٩ و ١٩٢٠ .

وبعد آذار (مارس) ١٩٢١ وانتفاضة كرونستاد فقط فرض الحظر على نشاطات المناشفة والاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين . ويبدو ان القادة

البلاشفة كانوا في نهاية ١٩٢٠ وبداية ١٩٢١ مترددين في الموقف الذي يتخذونه من المناشفة والاشتراكيين ـ الثوريين .

كانت كرونستاد الميناء البحري لبطرسبورغ . ولعب البحارة دوراً كبيراً في انتفاضة اكتوبر . وفي ١٩٢١ ، شنت عناصر معادية للبلاشفة اضرابات في المدن وانتفاضات في الريف ، مستفيدة من الوضع الاقتصادي اليائس في البلاد . وبسبب استشراء الفقر حصلت على درجة معينة من الدعم الشعبي . وفي كرونستاد ازداد الوضع سوءاً بسرعة ، وشكلت «لجنة عسكرية ثورية ، تبنت بياناً احتوى سياسات منشفية واشتراكية ـ ثورية وفوضوية . وقد قرر البلاشفة ان يخمدوا هذا التمرد في مهده ، لانه هدد بالانتشار . وبعد معارك عنيفة ، استطاع الجيش الأحمر تحت قيادة تروتسكي والجنرال الفتي توخاتشيفسكي ان يلحق الهزيمة بالتمرد . ان موقف البلاشفة في ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ يمكن أن تفسره حقيقة انهم كانوا خائفين من ان تلتف عليهم الحركات الشعبية التي استولى عليها أعداء الدولة السوفيتية ، وازدادت خطورتها بسبب الفقر المأساوي في روسيا .

وانتفاضة كرونستاد مالت بكفة الميزان نحو القمع . وهكذا ، وجد الحزب البلشفي نفسه في ١٩٢٢ في موقع احتكاري . ولانه كان الحزب الوحيد ، فان السلطة تركزت في يديه . وقد لاحظ لينين ذلك منذ بداية ١٩١٩ . «أجل ، ديكتاتورية الحزب الواحد » ، كان ذلك جوابه لأولئك الذين انتقدوه . وفي المؤتمر العاشر في ١٩٢١ ، جدد «ان دكتاتورية البروليتاريا لن تمارس عملها من خلال الحزب الشيوعي » (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٢ ، ص١٩٩) . وأعلن المؤتمر الثاني عشر للحزب في ١٩٢٣ ان «دكتاتورية البروليتاريا لا يمكن أن تضمن الا في شكل دكتاتورية لطليعتها القائدة ، أي دكتاتورية الحزب الشيوعي » . اذا تكلمنا من الناحية الشكلية ، فقد كان لايزال ثمة اختلاف بين الحزب والدولة ، وبقدر ما يتعلق الأمر بالمؤسسات ، كانت هناك بنى مختلفة تمتعت باستقلال ذاتي معين (اختلف

باختلاف الزمان والمكان والناس المشاركين فيه) . ولكن في الحقيقة كان الحزب هو نواة الدولة لان كل المؤسسات كانت تابعة له .

ان الأدوار التي اضطلعت بها السوفيتات اضمحلت تدريجياً منذ ١٩١٧ . ومتطلبات الحرب الأهلية تفسر لماذا أفسحت المناقشة الطريق للقبول المنضبط بالقرارات . وأصبحت السوفيتات ، شيئاً فشيئاً ، هيئات للصراع والادارة أكثر منها نوادي للمناظرة . وشهد الجيش الأحمر اعادة تأسيس الانضباط الشديد ؛ ومن دون ذلك لم يكن بمقدوره الحاق الهزيمة بالبيض . واللجنة الاستثنائية ذات الجبروت والحضور الدائم بدت تلعن كلاً من المتآمرين والنقاد . وفي هذا الموضوع نمتلك شهادة ثمينة ، شهادة لينين نفسه . انه ينتقد في نص كتب في بداية ١٩١٩ ولم ينشر في برافدا الا في ١٩٢٦ ، مقالة كتبها لاتسيس (أحد قادة اللجنة الاستثنائية ، وهو بالنسبة له «واحد من أفضل الشيوعيين ، شيوعي مجرب») . وقد ظهرت مقالة لاتسيس في «الارهاب الأحمر» ، وهي صحيفة تصدرها اللجنة المذكورة في قازان . ان لاتسيس يقصد ان يقول ان الارهاب الأحمر هو التحطيم العنيف لكل المستغلين (بكسر الغين) الذين يحاولون اعادة تأسيس سيطرتهم ، فكتب عوضاً عن ذلك على الصفحة الثانية من العدد الأول لمجلته «لا تفتشوا السجلات بحثاً عن الأدلة فيما اذا كان تمرده ضد السوفييت تمرداً مسلحاً ، أو كلامياً فقط» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٨ ، ص٣٨٩) . والكتابة بمثل هذه الطريقة في عرف لينين كانت «ادلاء بتصريحات حمقاء» . وكانت هذه النزعة ، نتيجة للحرب الأهلية ، منتشرة في الغالب . فالنسخ الديمقراطي للسوفيتات قد استنزف ، اذ أزيل تدريجياً بالكامل من صفوفها الاشتراكيون الثورويون ، في البداية اليمنيون ومن ثم اليساريون ، يليهم في ذلك المناشفة . وكانت هذه هي الحال بعد كرونستاد . وهذا التغير في دور السوفيتات لم يكن بلا شك متساوياً في كل مكان ، ولكن ما كان مهماً هو الاتجاه العام .

لان التشكيك في حرية الكلام هو منع الديمقراطية من القيام بوظيفتها ، والديمقراطية لم توجد في روسيا قبل الثورة ، ولم تعمل الثورة على خلقها ، على الرغم من التجربة التي دامت أشهراً قليلة في ١٩١٧ ، بسبب موقف البيض ، والبرجوازية الروسية ، والامبريالية الأجنبية ، التي شنت حرباً أهلية لا رحمة فيها لدحر الثورة .

فحسب دستور جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية ، الذي صودق عليه بالتصويت في ١٠ تموز (يوليو) ١٩١٨ ، والذي بقي ساري المفعول حتى ١٩٣٦ ، شكلت المستويات المختلفة من السوفيتات الأجهزة الأساسية للدولة ، «دولة من نوع جديد» قائمة على نموذج كومونة باريس . ان السلطة العليا ، من الناحية النظرية ، كانت منوطة بمؤتمر السوفيتات لعموم روسيا ، وعندما لا يكون المؤتمر منعقداً ، فاللجنة المركزية التنفيذية المؤلفة من مئة شخص والمنتخبة في المؤتمر . وهذه الهيئات كانت برلمانات الى هذا الحد أو ذاك . وكان يدير الدولة حقاً مجلس مفوضي الشعب الذي تعينه لجنة السوفيتات التنفيذية المركزية . وعلى أية حال ، فإن الحق في الانتخابات كان أبعد من أن يكون عاماً ، لان فئات عديدة كانت قد استبعدت منه ، التجار ، متوسطو الحال ، رجال الكنيسة ، وجميع أولئك الذين لا يعيشون من عملهم (المادة ٦٥) . واذا نظرنا الى التفاصيل العملية للنظام الانتخابي ، سوف نجد ان الدستور حابى البروليتاريا الحضرية على حساب الفلاحين . لان مؤتمر السوفيتات لعموم روسيا كان مؤلفاً من ممثلي سوفيتات المدن (عضو واحد عن كل ٢٥ ألفاً من السكان) والسوفيتات الريفية (عضو واحد عن كل ١٢٥ ألفاً من السكان) . ولذا فقد كان ثمة عدم مساواة ، زادتها سوءاً الطريقة التي نُظّمَ بموجبها التصويت في سوفيتات المحافظات والمناطق والنواحي والمحلات . يضاف الى ذلك ، ان التصويت لم يكن سرياً . ولم يتمتع بالحريات الأساسية الا العمال وفقراء الفلاحين ، وقرروا ، وفقاً للظروف والشخوص المعنيين ، كيف يمكن ان تستخدم . وهكذا ، فان حرية الكلام

وحرية الاجتماع وتكوين الجمعيات لم تكن موجودة واقعاً ، ولم يدع البلاشفة ان هذه كانت ديمقراطية سياسية .

ان انتقادهم للديمقراطية البرجوازية لم يكن جديداً ، يضاف الى ذلك ، انه ينسجم تماماً مع أفكار ماركس حول الموضوع . كانت الديمقراطية البرجوازية شكلية من حيث طابعها . ومع ان العمال كانوا محقين في استخدام الديمقراطية البرجوازية ، الا انه ينبغي ان لا يحملوا أوهاماً بالنسبة لـ «عدم الأمانة ، والزيف والرياء» التي كانت تعبيراً عنها . ولم يكن لينين مخطئاً عندما أظهر حدودها وناضل ضد الأحزاب الاشتراكية التي قبلت بها . ألم يذهب ، على أية حال ، الى التقليل من أهمية ظاهرة الديمقراطية ، بسبب الظروف وتجربته التأريخية الخاصة (تجربة روسيا) ؟ اذا قرأنا مذكرة كتبها في ١٩٢٠ «مساهمة في تأريخ الدكتاتورية» (التي تتبنى نصوصاً من ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦) تبدو هذه هي الحال (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣١ ، الصفحة ٣٤٠) . انه لم ير أو لم ير بوضوح كاف المدى الذي يمكن للدكتاتورية ـ لنقل «سلطة لا تحدها أية قوانين . . .» ـ ان تشكل فيه خطراً على العمال أنفسهم ، حتى ولو كانت قائمة على دعم جماهيري وتمثل أغلبية العمال . الا يعني ذلك انه من المحتمل لرجل واحد (أو مجموعة من الرجال) ان يمارسوا سلطة غير محدودة وان يسيئوا استعمالها ؟ وبكلمات أخرى ، ان دكتاتورية البروليتاريا في الشكل الذي ظهرت فيه في روسيا أثناء الثورة والحرب الأهلية احتوت على بذور ظاهرة ستالين . لم تكن أمراً حتمياً ، بيد انها كانت امكانية ، لان الشروط الضرورية لها قد خلقت حالما لم تعد الآليات والبنى والتقاليد للسيطرة الديمقراطية موجودة .

واذا انتقلنا الى الحزب نفسه ، الذي درسنا سابقاً دوره الفعلي ، وجدناه في وضع معقد في ١٩٢٢ . لقد تنامت عضويته بسرعة حتى ١٩٢١ . فقد كان يوجد حوالي (٢٤) ألف بلشفي في شباط (فبراير) ١٩١٧ ، عندما أجبرت الثورة البروجوازية الديمقراطية نيقولاي الثاني على التنازل عن عرشه و (٢٤٠)

ألفاً في آب (اغسطس) ١٩١٧ . وبحلول عام ١٩٢٠ ، كان الرقم ٩٧٨ , ٦١١ شيوعياً ، و (٧٣٠) ألفاً في ١٩٢١ . وقرر المؤتمر العاشر (آذار / ١٩٢١) انه ينبغي اجراء تطهير ، وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٢٢ لم يبق في الحزب سوى (٥١٥) ألف عضو . كان النمو في عضويته نتيجة لتجنيد الفتيان الذين شاركوا في الثورة والحرب الأهلية ، وانتموا الى الحزب بدافع النزعة المثالية ، بل وكذلك لتدفق طالبي الوظائف الذين التحقوا بالحزب بمحض المصلحة الذاتية (لأنه كان في السلطة) . وكان تطهير عام ١٩٢١ قد تقرر للتخلص من الآخرين . ان الدكتاتورية التي كانت حتمية في ١٩٢١ ، هددت بالتحول ضد الشعب نفسه الذي كان قد أقامها ما لم يتم تحويلها بطريقة ديمقراطية . كانت في الوقت نفسه ضرورية وخطرة .

في عام ١٩٢٢ كان « البلاشفة القدامى » (الأعضاء في الحزب في شباط (فبراير) ١٩١٧) يشكلون ٢ـ٣ في المئة من عضوية الحزب (٢ في المئة وفقاً لزينوفييف) . ان الخبرة العملية للبلاشفة الجدد كانت كبيرة دون شك ، ولكن لا يمكن قول الشيء نفسه عن تأهيلهم النظري ، الذي لم تستحثه الأحداث . وكان الحزب ، فيما يتعلق بالنوعية ، فتياً جداً ، اذ ان ٩٠ في المئة من أعضائه كانوا دون سن الأربعين ، وأكثر من النصف دون سن الثلاثين . وكان الذكور هم السائدين فيه (النساء ٥ , ٧ في المئة فقط) . ومع انه في بواكير ١٩٢٣ كان العمال يشكلون ٤٥ في المئة من أعضائه والفلاحون ٢٦ في المئة ، وعمال المكاتب والمثقفون ٢٩ في المئة ، الا ان التوزيع في المنظمات المحلية أو أماكن العمل ، أو « الخلايا » جسد التغييرات الاجتماعية التي تناولناها سابقاً . اذ ان ١٨ في المئة فقط من الأعضاء كانوا منتسبين الى خلايا المصانع ، و٣٠ في المئة الى خلايا الفلاحين ، و ٢٤ في المئة الى الخلايا العسكرية و ١٩ في المئة الى خلايا المكاتب . وفي رسالة الى موتولوف مؤرخة في ٢٦ آذار (مارس) ١٩٢٢ لاحظ لينين ما يلي « اذا حكمنا استناداً الى القسم الأعظم من العضوية الحالية فان حزبنا ليس بروليتارياً بما فيه

الكفاية» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص٢٥٦) . واستخلص الاستنتاج التالي : «اذا لم نغمض عيوننا عن الواقع ، توجب علينا أن نعترف ان السياسة البروليتارية للحزب في الوقت الراهن لا يقررها طابع عضويته ، بل الهيبة الهائلة الشخصية لمجموعة صغيرة يمكن أن ندعوها بـ «الحرس القديم للحزب» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص٢٥٧) . كان الحزب البلشفي سرياً الى قيام الثورة حتى وان كان قد استطاع في بعض الأحيان ان يستخدم الامكانات القانونية التي وجدت بعد ثورة ١٩٠٥ . وأغلبية مناضليه عرفوا السجن ، والترحيل الى سيبيريا والنفي ، وهذه الظروف نادراً ما أعدت الحزب للحياة الديمقراطية . وبعدها جاءت الثورة والحرب الأهلية ، وهما لم تكونا أكثر مواتاة من زاوية النظرتلك . فالديمقراطية تزدهر في أوقات السلام وتذوي في الأوقات المضطربة .

لم يكن ثمة نقص في المناظرة المتقدة داخل الهيئات القيادية (مثلاً ، عندما كان التحضير لثورة اكتوبر جارياً وبعدها مباشرة ، وعندما وقعت معاهدة بريست ـ ليتوفيسك ، وبعد انتهاء الحرب الأهلية ، وحول السياسة الاقتصادية الجديدة ، ودور النقابات) ، ولكن اتخاذ القرار فعلياً كان محصوراً في عدد معين من القادة . ومن الطبيعي ان يحل في أثناء الحرب الانضباط والسلطة العسكرية محل المناظرة العامة بسبب متطلبات الزمن والحاجة الى الكفاءة . وكان أحد أسباب نجاحات البلاشفة هو قدرتهم على المركزة ، واتخاذ القرارات وتنفيذها . وقد اتخذوا من اليعاقبة في ١٧٩٣ نموذجاً لهم . فالقرارات التي اتخذت في المؤتمرين العاشر والحادي عشر للحزب الشيوعي الروسي ، وكذلك في الكونفرنس الحادي عشر ، تؤكد هذا التوجه . ولكي ينتخب العضو الى اللجنة المركزية مثلاً ، كان ضرورياً أن يكون عضواً في الحزب قبل ثورة شباط (فبراير) . وهكذا ، كانت المناصب القيادية مفتوحة أمام ٢٪ فقط من عضوية الحزب ، أي امام حوالي عشرة آلاف شخص . وبالمثل ، ينبغي ان يكون المرء قد شارك في الحرب الأهلية لكي ينتخب

سكرتيراً للخلية ، وكان على المرشحين الى سكرتارية المناطق ان يكونوا قد انتموا الى الحزب قبل ثورة اكتوبر (تشرين الأول) . ان نص القرار الذي اتخذه في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٢ الكونفرنس الوطني الثاني للحزب الشيوعي الروسي وصادق عليه المؤتمر الحادي عشر ، دقيق جداً .[١٤] انه لمن المهم ان تعير المنظمات الحزبية انتباهاً خاصاً جداً سكرتارية المحافظات والنواحي وينبغي اختيار الرفاق الذين كانوا أعضاء في الحزب قبل ثورة اكتوبر ١٩١٧ كسكرتيرين للجان المحافظات ، والرفاق الذين كانوا في الحزب لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات كسكرتيرين للجان النواحي . وانه لرغبة الكونفرنس ان يكون انتخاب سكرتيري المحافظات أو النواحي قد حظي بمصادقة السلطات العليا في الحزب .»

وعلى هذا المنوال ، كان على انتخابات النقابات ان تجري تحت اشراف الحزب . «يعتقد الكونفرنس ان من الضروري ان يكون الرؤساء والسكرتيريون للجان النقابات المركزية الذين تختارهم الكتل الشيوعية أعضاء في الحزب قبل ثورة اكتوبر وسكرتيريو اللجان النقابية في المحافظات أعضاء في الحزب لمدة ثلاث سنوات في الأقل .»

انه لحقيقة ان مناظرة فعلية استمرت في الهيئات القيادية ، ولكن المؤتمر العاشر كان قد استحث على ازالة الكتل ، وهو قرار يجب تفسيره بوجود خطر حقيقي جداً لانشقاق في الحزب . ولموازنة هذا الاجراء ، قرر المؤتمر ان يصدر نشرة للمناقشة يقصد بها على وجه التحديد حفز المناظرة داخل الحزب ، دونما اعادة تكوين التكتلات على أية حال ، والتي كانت ستصبح أو كانت بالفعل أحزاباً داخل الحزب . ان أي افراط في الديمقراطية كان سيقوض الحزب ويقود الى هزيمته . وكان أي افراط في المركزية ينطوي على خطر قتل الديمقراطية والافضاء الى ظاهرة ستالين .

١٤ـ كما في التقرير المختزل للمؤتمر الحادي عشر من ص ٥٥٤ فصاعداً .

تلكم كانت البيئة التاريخية التي تطورت فيها الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي .(١٥) وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢ ، طرح لينين على نفسه السؤال الدرامي التالي : «لقد أمضينا خمس سنوات وحدنا ؛ ولا توجد حتى الآن ثورة في أي من البلدان الأخرى ؛ الحرب والجوع ؛ هل سنهلك ؟» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، ص٥٨٥) . لقد هزمت الثورة في كل بلد في اوربا لأسباب متنوعة ؛ في احدى الحالات لان البرجوازية قد احتفظت بقوة كافية (في المانيا) ، وفي اخرى لان التدخل الأجنبي جعل من الممكن تدمير الثورة (في المجر) . ان التأريخ لا يسير بطريقة حسابية ، فالناس يضطلعون بدور أساسي وكذلك الظروف . وبطريقة من الطرق ، كان للثورة نصيب أفضل في أن تسود في المانيا بسبب القوى المنتجة الحسنة التطور ، والطبقة العاملة الواسعة والتقدم الثقافي للجماهير . كان يمكن ان يعاني البلاشفة هزيمة عسكرية على أيدي دينكين أوكولتشاك ، وكان يمكن للسبارتاكيين ان يفوزوا في ١٩١٩ . وهكذا ، لا يوجد ثمة شيء اسمه الحتمية التاريخية ـ ومع ذلك فمن الملائم جداً كتابة التاريخ كما لو ان الأحداث كان من الضروري ان تحدث كما وقعت بالفعل . ويمكن لوضع تأريخي معين ان يكون سبباً في نشوء عدة تطورات بديلة ، وهنا يأخذ أهميته الكاملة تفاعل الظروف ودور الأفراد ، دور الجماهير والشخصيات . في ١٩٢٢ وجد الاتحاد السوفيتي وكان عليه ان يتقدم ، وقد خرج ، ودمه ينزف ، من الكثير جداً من المحن على الطريق الجديد ، طريق الاشتراكية . كان ينبغي بناؤها تحت أكثر الظروف الممكنة صعوبة ، بأناس يرتدون الخرق ويفتقرون الى التعليم ، منهكين بحرب ثماني سنوات ومحاطين بدول معادية .

---

١٥ ـ كان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية قد تأسس في ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٢ ، عندما اندمجت جمورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية واوكرانيا ، وروسيا البيضاء والجمهوريات الاشتراكية السوفيتية لما وراء القفقاس .

ولا يمكن تفسير ظاهرة ستالين وفهمها الا اذا بدأنا من هذا السياق التأريخي .

ـ ٢ ـ

ميلاد ظاهرة ستالين

واجه البلاشفة ، الذين ركزوا السلطة في أيديهم بثبات في نهاية الحرب الأهلية ، قضايا هائلة . فكان عليهم ، قبل كل شيء ، ان يقوموا باعادة بناء وطني من دون مساعدة أجنبية . وكان هذا هدف النيب (السياسة الاقتصادية الجديدة ـ المترجم) . وكانت هذه الأخيرة على حد سواء ضرورة بسبب الظروف ، وسياسة طويلة المدى قُصِدَ بها خلق الاقتصاد الاشتراكي الذي لم يكن موجوداً في عام ١٩٢٢ . واعترف لينين انهم اقترفوا خطأ في عام ١٩١٨ بمحاولتهم السير مباشرة الى الانتاج والتوزيع الشيوعيين (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص٦٢) . وفي هذه الظروف عنت النيب احلال الضريبة محل المصادرة في الريف ، وتضمنت ، الى حد كبير «الانتقال الى اعادة تأسيس الرأسمالية» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص٦٦) . واستعيدت التجارة الداخلية الحرة . وولدت من جديد الصناعة الصغيرة (التي تُشَغِّل حتى ٢١ عاملاً) . وأعيد اقرار الميراث الى حد ما (حتى عشرة الاف روبل ذهبي) . وكانت النيب اقتصاداً انتقالياً ، ووجدت تحت رعاية الدولة الاشتراكية أنماط انتاج مختلفة ، وبخاصة رأسمالية الدولة . وذهب القادة السوفيت الى الاقرار مبدئياً بمنح امتيازات للرأسماليين الأجانب (كان يمكن لهذه الامتيازات أن

تكون صالحة لمدة ٣٠ سنة) . وانطوت هذه السياسة على خطر جدي ، أعني ، ربما أنزلت الرأسمالية الهزيمة بالاشتراكية في الاقتصاد والمجتمع ، ولكن الدولة الاشتراكية احتفظت بالسيطرة على النقل والصناعة الكبيرة ، وأكدت احتكارها للتجارة الخارجية والائتمانات .

لقد قرر القادة السوفيت أن يقيموا سياستهم على اعطاء الفلاحين حوافز مادية لتطوير الانتاج ، منطلقين من الادراك بان الفلاحين المتوسطين يسيطرون على الاقتصاد الريفي ، وبالتالي ، على الاقتصاد السوفيتي بكامله . وحسب رأي لينين ، ان بناء اقتصاد اشتراكي حقيقي ، يتطلب عقوداً ، «أجيالاً» لبناء اقتصاد اشتراكي . وشجعت النيب اعادة معينة لميلاد الرأسمالية . وقوت في الريف الفلاحين الأغنياء ، الكولاك . وأغنت الصناعيين الصغار ، والتجار والسماسرة ، أولئك الذين اعتبروا «رجال النيب» . وفي الوقت نفسه شجعت تطوير القوى المنتجة . فازداد الانتاج الزراعي وتقدمت الصناعة ، الا ان هذا التقدم كان بدرجة أقل . ونما السكان بالوتيرة نفسها التي نموا فيها قبل الحرب . وباختصار ، كانت النيب سياسة لاعادة البناء الاقتصادي أعطت ثماراً وجعلت الانتعاش الاقتصادي الضروري جداً ، ممكناً .

وفي الوقت نفسه تحسنت قليلاً العلاقات مع القوى الأجنبية . ووقع الاتحاد السوفييتي اتفاقات تجارية مع الكثير من الدول الرأسمالية التي احتذت حذو بريطانيا العظمى (التي وقعت اتفاقية تجارية مع الاتحاد السوفيتي في ١٦ آذار / مارس ١٩٢٢) ، واعترفت بالاتحاد السوفييتي دول عديدة (فرنسا في ١٩٢٤ ، ولكن الولايات المتحدة لم تعترف به حتى ١٩٣٢) . وساهم من جديد في المؤتمرات الدولية بعد المؤتمر الذي عقد في جنوا في ١٩٢٢ ، واستغل التناقضات بين الدول الرأسمالية (موقعة معاهدة رابالو مع المانيا في ١٩٢٢) ، ودعم وساعد الحركات المعادية للامبريالية (مثلاً ، تركيا مصطفى كمال) . وباختصار ، كما قال تروتسكي ، كانت هذه بداية «فترة طويلة من التعايش السلمي والتعاون الجدي مع البلدان البرجوازية» .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد واصلت الأخيرة اقامة «حزامها الصحي» حول الاتحاد السوفيتي ، أي اقامة دائرة من الدول المعادية للشيوعية قصد بها ان تمنع «رائحة البلشفية العفنة» من ان تنتشر عبر اوربا (بولندا ، المجر ، رومانيا ، بلغاريا) . لقد استمروا في رفض تقديم مساعدة اقتصادية حقيقية وفي التحضير للاطاحة بنظام الحكم الجديد . ومن زاوية النظر هذه ، تخبرنا بالكثير سياسة منح الامتيازات . اذ ان عدداً ضئيلاً من الشركات الرأسمالية جرب حظه ، وما لاحظنا في الواقع هو مقاطعة حقيقية للسوق السوفيتية . وبهذه المقاطعة فرض على الاتحاد السوفيتي الاكتفاء الذاتي .

ومع ان السياسة الاقتصادية كانت قد تغيرت أساساً من ١٩٢١ فصاعداً ، الا انه لا يمكن قول الشيء نفسه عن ممارسة البلاشفة للدكتاتورية التي جنحت الى التعزز على وجه التحديد بسبب النزعة الليبرالية الأوسع في حقل الاقتصاد والمخاطرة التي تضمنتها . ومن هذه الزاوية ، لا يمكن المغالاة في أهمية أحداث كرونستاد . وتقوية الانضباط الحزبي التي أعقبت المؤتمرين العاشر والحادي عشر شهدت اختفاء ما سمي كتلة «المعارضة العمالية» التي كان يقودها شليابنيكوف والكسندر كولونتاي ، والتي أدانها بعنف كل القادة البلاشفة . فمثلاً كان تروتسكي هو من القى خطاب المقاضاة في المؤتمر الحادي عشر وأمام الأممية الشيوعية .ومرة أخرى ، كان تروتسكي هو من كتب في صحيفة برافدا في ١٦ ايار (مايو) ١٩٢٢ يدافع عن الحزب الواحد والاجراءات القمعية . «ان هذه الاجراءات القمعية لا تحقق هدفها عندما توجبها حكومة ونظام حكم ينطويان على مفارقة تأريخية ضد القوى الجديدة والتقدمية تاريخياً غير انها في أيدي حكومة تقدمية تاريخياً يمكن ان تكون وسيلة فعالة جداً لكنس القوى البالية من المسرح ، تلك القوى التي ولى زمنها . «كما لاحظ لينين حوالي هذا الوقت» لقد أُحرِزت السلطة وتوطدت في أيدي حزب واحد ، حزب البروليتاريا الذي لا يملك الى جانبه حتى رفاق الطريق غير المعول عليهم» .

لقد وجد الحزب البلشفي نفسه يمارس السلطة وحده ، وقد أصبح الحزب الوحيد . وغياب حتى الحلفاء الملتبسين جعل مهمته أكثر سهولة وأكثر صعوبة على حد سواء ؛ أسهل بقدر ما يتعلق الأمر بالفاعلية العاجلة ، وأصعب فيما يخص تطور الديمقراطية في المستقبل . وهكذا ، كان ثمة تناقض بين النصر العسكري للجيش الأحمر ، والمشكلات التي كانت لنظام الحكم مع الجماهير . فمن جهة ، كان يقصد بالنيب ان تحقق مساندة الفلاحين . ومن الجهة الأخرى ، تكفلت الدكتاتورية والقمع بالبقية . ولم يكن ثمة بديل آخر ، اذا استثنينا التخلي عن السلطة . ومن الواضح ، ان هذا لم يكن موضع شك ولم يقترحه أحد . وفي مثل هذه الظروف يستطيع المرء أن يفهم الى أي حد كان أي نزاع داخل «الفئة القيادية الضئيلة» يهدد بالخطر نظام الحكم السوفيتي .

وغالباً جداً ما يعتقد الناس ان نظام الحكم السوفيتي كان قوياً في ١٩٢٢ لانه انتصر في أرض المعركة . وفي الواقع ، لم يكن في أي وقت من الأوقات أضعف منه في هذه اللحظة بالذات ، عندما بدا قوياً . ان مرض لينين ، وانسحابه من النشاط السياسي ، من ثم موته ، كانت قد جعلت الوضع حتى أكثر اثارة للرعب .(١) وليس من الملائم بما فيه الكفاية محاولة تفسير ظاهرة ستالين بالموت المبكر للينين . والمرء غالباً جداً ما يقرأ «آه ، لو فقط ان لينين لم يمت! » ولكن من الحق أن نقول ان موت لينين في الرابعة والخمسين من العمر ليس بلا مغزى بين الظروف التي ولدت ظاهرة ستالين . ان دور لينين كان كبيراً في احداث الثورة والحرب الأهلية . لم يخلق الأحداث من لا شيء ، الا انه فرض المصير ببصيرته الواضحة ، وواقعيته وعناده . ومن الهام تفادي

١ـ في ٢٠ آيار (مايو) كان لينين قد أصيب بأول ضربة للفالج . واستأنف العمل في ايلول (سبتمبر) ، ولكنه أصيب بضربة ثانية في ٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٢ وثالثة في ١٠ آذار (مارس) ١٩٢٣ . ومن ذلك الوقت فصاعداً كان مشلولاً تماماً ، وكان عليه ان يتخلى عن كل نشاط وتوفي في ٢١ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٤ .

الخطأ العام في خلق صورة مثالية له . وحالما يجرد من الهالة الغامضة التي تحيط به ، يبدو أكثر عظمة . كان رجلاً ذا طاقة لا تعرف الهدوء ، رجل دولة لم يسمح لأي شيء بأن يعترض سبيله عندما كان مصير الثورة في الميزان . وحتى تلك اللحظة ، كانت جميع الثورات قد دُحِرَتْ لانها لم تنفذ حتى نهايتها . وقد أدرك لينين «ان على المرء أن لا يوفر الأساليب الدكتاتورية لكي يعجل في استزراع الطرق الغربية في روسيا القديمة البربرية ، وان لا يجفل من استعمال الأساليب البربرية لمكافحة البربرية» . ونحن غالباً ما نخطئ في الحكم على هذه الفترة ، على هذا البلد وعلى هذه الثورة استناداً لتجربتنا التأريخية الخاصة ومعاييرنا الخاصة . ولا شيء يمكن أن يكون أكثر خطأ .وحتى الثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩ ليست كافية لكي تعطي النظير لهذه الأحداث . يضاف الى ذلك ، انه على الرغم من الحروب المحلية والاستعمارية ، وعلى الرغم من الحرب الباردة ، فان العالم منذ ١٩٤٥ عاش في سلام في الأغلب ، وفرنسا ، مثلاً ، شهدت سلاماً داخلياً على الرغم من بعض لحظات التوتر الجدي . ولم تكن هذه هي الحال في روسيا في ١٩١٧ . فالحرب كانت مندلعة ، يشترك فيها عشرات ملايين الرجال في معاناة لا مثيل لها سابقاً . فقد أضيف الى الفقر الخراب الذي سببته الحرب ، وهي حرب لا رحمة فيها ، حرب شاملة طالت السكان المدنيين .

وعلى أية حال ، وجه لينين صرامته ضد البرجوازية ، قاصراً اياها على حالات خاصة وأشخاص بعينهم ، وليس ضد الناس . وعندما كان التحضير لثورة اكتوبر جارياً ، وتماماً قبل توقيع معاهدة بريست ـ ليتوفسك كان لينين بين الأقلية في حزبه نفسه ، وكانت هذه هي الحال في عدة أحيان أخرى ، مثلاً ، في ١٩٢١ عندما بدأت المناظرة حول النقابات . لقد تمتع بالجدال ولم يتردد في التعبير عن آراء الآخرين الصريحة بوحشية ، الا انه لم يحل مطلقاً في المناظرة القمع محل المواجهة بين الأفكار ، ولم يحقد بتاتاً طويلاً جداً على أولئك الذين انتقدوه .

وعلى الرغم من محاجاته العنيفة مع تروتسكي من ١٩٠٢ الى ١٩١٤ ، فقد نجح في ان يعمل معه يومياً من ١٩١٧ الى ١٩٢٣ ، لانه كان مدركاً لمزاياه العظيمة وأعتقد انه من الأفضل ان يجندها للثورة . لقد ناضل ضد كامينيف وزينوفييف اللذين عارضا ثورة اكتوبر ، الا انه استمر في العمل معهما داخل قيادة الحزب . وانتقد بوخارين بعنف لانه أصبح «شيوعياً يسارياً» عندما وقعت معاهدة بريست ـ ليتوفسك ، غير انه استمر في احترامه وواصل العمل معه . وكان له نفوذ كبير بين البلاشفة ، الذين قادهم الى النصر ، وبين قسم واسع من الناس ، وبين العمال وصغار الفلاحين الذين رأوا فيه رجلاً مخلصاً لأفكاره وناضل من أجل مصالحهم . وفي أثناء سنته الأخيرة من عدم النشاط ، أدرك بواقعية حادة المخاطر التي هددت نظام الحكم السوفيتي . وانبعث بعض هذه المخاطر من أعدائه الذين أخذوا يأملون بفضل النيب بعودة سلمية للرأسمالية ، وكان بعضها الآخر نتيجة لسياسة البلاشفة نفسها ، بالترابط مع الوضع الذي كان سائداً آنذاك . وهذا هو السبب في انه لماذا من المفيد تتبع أفكار لينين ذاتها حول القضية لان كتاباته في ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ تنورنا حول أصول ظاهرة ستالين وميلادها وتطورها . ونبع اهتمامه بالمقام الأول ، من الأبعاد التي اتخذتها البيروقراطية ، التي كانت انبعاثاً للقيصرية ، متشجعة بالظروف التي مورست السلطة في ظلها . ولم تكن لدى لينين أوهام حول الصعوبات التي يتضمنها بناء الاشتراكية . فهي ستكون مشروعاً طويلاً وصعباً . فماكنة الدولة مثقلة بالموظفين المدنيين القيصريين ، وكان ثمة ميل لان تظهر من جديد الممارسات التي كانت سارية المفعول في الدولة القيصرية ، مثلاً ، الرشوة ، الروتين الذي يسفر عن افتقار كامل الى الكفاءة . وكان هذا الوضع هو نتيجة التخلف الثقافي ، والحقيقة القائلة بانه على الرغم من التطهير الذي أجري بعد المؤتمر العاشر ، كان الحزب ضعيفاً ايديولوجياً وسياسياً . ولم تكن هذه مسألة تعليم حسب . بالطبع ، كان أمراً هاماً خفض الأمية . ولكن ثمة ضرورة للذهاب أبعد من ذلك كثيراً ، لانجاز ما

دعاه لينين «الثورة الثقافية» ، أي ان تحويل العادات العقلية والسلوكية ، وهي أكثر المهمات صعوبة ، أكثر صعوبة بكثير وأبطأ كثيراً من النجاح السياسي أو الانتصار العسكري . فقد كان يجب تحطيم «البربرية» كما تجسدت في العادات أو العقلية .

وهذه الفكرة حول «البربرية الروسية» تتردد مثل «النغمة الأساس» في كل شيء كتبه لينين الى نهاية حياته ، حتى عندما كان يحلل العمليات الثورية خارج روسيا . وصرح في مناسبات عديدة ان البلدان الرأسمالية الكبيرة العالية التطور في الغرب يمكن أن تسير نحو الاشتراكية في أسلوب متمدن ، ولكن روسيا مختلفة . كان من الأسهل على البروليتاريا ان تتسلم السلطة هناك ، ولكن من الأصعب ان تبني الاشتراكية ، وكان على التاريخ ان يقدم تصويراً مأساوياً لحقيقة هذا التصريح .(٢)

قدم لينين في مقالة بعنوان «حول التعاون» دليلاً قوياً(٣) على الحاجة لاشراك الناس في «النظام التعاوني» . انه يقول ان الفلاح لا يزال يتاجر بـ «أسلوب آسيوي» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص٤٧٠) ، «ولكن لكي يكون المرء تاجراً جيداً عليه ان يتاجر بالأسلوب الأوربي . وهم متخلفون حقبة كاملة في ذلك .» وحسب رأي لينين ، تحول «التأكيد» منذ ١٩١٧ الى العمل التثقيفي . وهذا يتضمن انه يجب ان «يعترفوا بماكنة دولتنا ، التي هي بلا فائدة تماماً» وان يبدأوا العمل التثقيفي بين الفلاحين . «وهو حتى يخصص فيقول» «ان تنظيم الفلاحين كافة في جمعيات تعاونية يفترض سلفاً . . . ثورة ثقافية» . ان رد لينين على خصوم الثورة الذين ادعوا «اننا كنا متعجلين في

---

٢ ـ من خطاب الى المؤتمرالسابع للحزب الشيوعي الروسي (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٧ ، الصفحتان ٨٩ ـ٩٠) .

٣ ـ كانت قد كتبت في ٤و٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٣ ولكنها لم تنشر في برافدا حتى ٢٦ و ٢٧ أيار (مايو) ١٩٢٣ .

أخذنا على عاتقنا غرس الاشتراكية في بلد غير مثقف بما فيه الكفاية » كان هو «ان الثورة السياسية والاجتماعية سبقت الثورة الثقافية التي على الرغم من ذلك تواجهنا الان « غير » انها تطرح صعوبات هائلة ذات طابع ثقافي محض (لاننا أميون) وطابع مادي (لاننا لكي نكون مثقفين علينا أن نمتلك قاعدة مادية معينة) (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص٤٧٥) . وهذه « وصية » لينين الحقيقية تعلموا من الغرب ، استخدموا رأسمالية الدولة ،طوروا التعاون ، كافحوا البيروقراطية ، ولكي تقوموا بذلك أنجزوا ثورة ثقافية حقيقية ، شجعوا الانتاج ، و كل هذا على قاعدة دولة اشتراكية وبصبر « لان هذا سوف يأخذ عشر سنوات . . . عشرين سنة » ؛ وحتى عندما فعل ذلك ألم يقلل من شأن عظم القضايا العالمية ؟ وهذا بعيد جداً عن اطروحات الماوية حول « الثورة الثقافية » التي تميل الى نبذ النماذج الغربية في الثقافة والاستهلاك والتنظيم وأخيراً تُدْخل فكرة الاصلاح الأخلاقي . وهذا لا يجعلنا نقول ان الأخيرة كانت في عيني لينين غير ضرورية ، بل كانت عنصراً واحداً في عملية التغيير في السلوك الانساني التي جعلتها الاشتراكية ممكنة .

وكان لينين واعياً لحقيقة ان « الماضي . . . مع انه قد أطيح به ، الا انه لم يجر التغلب عليه » (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص ٤٧٨) « أفضل أقل شرط أن يكون أفضل » . ولاحظ : « في جميع مجالات العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، نحن ثوريون « مرعبون » . ولكن فيما يتعلق بالسابقة ، بمراعاة أشكال الادارة المكتبية وشعائرها ، فان « ثوريتنا » تخلي الطريق غالباً الى أكثر الأساليب الروتينية عفونة . فقد شاهدنا ، في أكثر من مناسبة ، الظاهرة الأكثر امتاعاً لقفزة كبرى الى الأمام في الحياة الاجتماعية تقترن بالجبن المدهش عندما تقترح أكثر التغييرات بساطة » (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص٤٩٧) .

والشيء الذي لم يره لينين بوضوح كاف دون شك ، لانه افتقر الى الخبرة التأريخية الكافية ، كان الربط الذي يجب ان يقوم بين مدى الظاهرة

البيروقراطية والنظام السياسي السوفيتي كما مارس عمله في ١٩٢٢ داخل الحزب الواحد . ودور اللجنة الاستثنائية (وفيما بعد المديرية السياسية للدولة G.U.P) والجيش الأحمر ، والدور المتضائل الذي اضطلعت به السوفيتات ، والتطور غير الكافي للحياة الديمقراطية في جميع المستويات داخل الحزب والدولة . وكانت هذه العوامل المختلفة موجودة بشكل مستقل الواحد عن الآخر في عام ١٩٢٢ . وفي بعض الأوقات اتحدت ، ولكنها لم تتطابق . ونتيجة لاتحادها برزت ظاهرة ستالين الى الوجود .

وكان لينين أيضاً قلقاً من خطر انشقاق داخل «الفئة القيادية الضيقة» للحزب والدولة . وفي هذه اللحظة بالذات يظهر ستالين على المسرح ؛ لم نذكره سابقاً لان الدور الهام ، ولكن الثانوي ، الذي لعبه حتى ١٩٢٢ لم يتطلب ذكره . ان جوزيف فيساريوفيتش دجوغاشفيلي ، الذي ولد في ١٨٧٩ من أصل جيورجي ، تحدر من أسرة فقيرة (بقي والداه قنّين حتى ١٨٦١) . وبعد اختلافه الى مدرسة تديرها الكنيسة الاورثوذوكسية ، دخل في تبليسي المدرسة الكهنوتية الاورثوذوكسية في عمر الخامسة عشرة . وكانت مركزاً للنزعة القومية الجيورجية الليبرالية . ونشر الفتى دجوغاشفيلي شعراً في المجلة القومية ايبيريا Iberya تحت اسم مستعار هو سوسيلو . وقرأ مجموعة كبيرة من الروايات الفرنسية والانكليزية والروسية . وفي التاسعة عشرة من عمره انضم الى مجموعة اشتراكية معتدلة سرية (Messane Dassy) المجموعة الثالثة . ونتيجة لنشاطه في المدرسة الكهنوتية طرد منها ، بحجة انه لم يحضر الامتحانات . ويشير تقرير رئيس المدرسة الى ٢٩ ايلول (سبتمبر) ١٨٩٨ «في الساعة التاسعة صباحاً ، تحلقت مجموعة من الطلاب في حجرة الطعام حول جوزيف دجوغاشفيلي الذي كان يقرأ لهم من كتب منعتها سلطات المدرسة الكهنوتية» ، ويقول تقرير آخر بعد أسابيع «ان دجوغاشفيلي لا يحترم بصفة عامة أولئك الذين في السلطة وهو فظ بالنسبة لهم . «لقد وجد نفسه عاطلاً ، فأخذ يعطي دروساً خصوصية» وشغل لبضعة أشهر وظيفة

متواضعة في مرصد تبليسي . وفي عام ١٩٠١ اضطر الى الاختفاء نتيجة لنشاطه السياسي . ومنذ ذلك التأريخ فصاعداً ، امتزجت حياته بحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي . ومنذ عام ١٩٠١ ، عندما كان محرراً لصحيفة «النضال» السرية ، أيد الأفكار التي أعرب عنها لينين في «ايسكرا» . ومن عام ١٩٠١ الى عام ١٩١٧ عانى عدة فترات من السجن والترحيل الى سيبيريا . وأثبت ، بوصفه ثورياً محترفاً ، انه مخلص وكفء وكصحفي ، وداعية ، ومنظم بلشفي . وكتب الكثير من الأكاذيب حول نشاطه السياسي ؛ حتى جرى الايحاء بانه كان عميلاً للشرطة السرية القيصرية .(٤) وفي الحالة الراهنة لمعرفتنا ان مثل هذه التهمة ليست ذات أساس مطلقاً . وفي الحقيقة ، كان مناضلاً محنكاً اضطلع بدور هام في القفقاس ، وفي جيورجيا وفي اذربيجان (في باكو) . وقام بدور فعال في ثورة ١٩٠٥ ، وفيما بعد قاد الألوية المقاتلة البلشفية التي نظمت «المصادرات» ، أي الغارات المسلحة على البنوك بقصد توفير النقود لصندوق القتال للبلاشفة .

بدأ يظهر من القفقاس ، مشاركاً في الكونفرس الوطني للحزب في تامرفورس في فنلندا ، ومن ثم في مؤتمر استوكهولم في ١٩٠٦ ، وفي مؤتمر لندن في ١٩٠٧ . وفي ١٩٢١ جرى اختياره مع آخرين الى اللجنة المركزية للحزب البلشفي (٥) وأعطي وظيفة منظم الحزب في روسيا ونشر جريدة علنية (قانونية) هي برافدا .

وفي السنة نفسها سأله لينين ان ينضم اليه في كراكوف (بلدة بولندية كانت تحت الاحتلال النمساوي آنذاك) ليعمل في قضية القوميات ، وفيما بعد

---

٤ ـ انظر : «القصة السرية لجرائم ستالين» بقلم أ . أورلوف نيويورك ١٩٥٣ (لاجئ سوفيتي في الولايات المتحدة الامريكية) ؛ و «السر الكبير لستالين» بقلم ليفين ، نيويورك ١٩٥٦ .

٥ ـ كانت مؤلفة من سبعة أعضاء كاملي العضوية وخمسة مرشحين .

أرسله ليمثل الحزب في فيينا . وقد قضى ما مجموعه ستة أشهر في الخارج .
وهكذا ، كانت خبرة ستالين قبيل الثورة غنية في كل أنواع المهمات ، وان
الكثير يمكن تأكيده . ومما لا شك فيه انه لم يعش في الخارج المدة التي
عاشها لينين ، تروتسكي ، بوخارين ، زينوفييف ، وكامينيف ، ولكنه سافر
في اوربا . ويعتبره لينين كما عبّر عن ذلك في رسالة الى غوركي التي يذكر
فيها «الجيورجي الرائع» الذي كان يعد كتاباً نشر بعنوان «المسألة القومية
والاشتراكية الديمقراطية» . لقد اعتقل بعد أسابيع قليلة من وصوله الى روسيا
ورحل الى سيبيريا الشمالية ؛ وقد وشى به مالينوفسكي ، وهو عميل للشرطة
السرية القيصرية تسلل الى الحزب البلشفي وأصبح عضواً في لجنته المركزية .
وبقي هناك حتى أطيح بالقيصرية في ١٩١٧ . وفي الواقع لا نعرف الكثير حول
حياة دجوغاشفيلي الحقيقية خلال هذه الفترة كلها . كان متواضعاً ومصمماً ،
ونتيجة لتفانيه وكفاءته وصل قمة الهرم الحزبي ، ولكن محوه لذاته عنى انه لم
يترك أثراً كبيراً في أولئك الذين عملوا معه . والشيء الوحيد الذي يستحق
الاشارة اليه هو الصفة المتوهجة نوعاً ما للأسماء المستعارة التي اختارها . واذا
استبعدنا الأسماء المتداولة ، مثلاً ايفانوفيتش ، فانه شعر لسنوات طويلة انه
مدفوع الى ان يتخذ له اسم كوبا Koba (لا يقهر) الذي كان بطلاً اسطورياً من
أبطال جورجيا القروسطية ، وان يتخذ في ١٩١٣ اسم ستالين (فولاذ) الذي
دخل تحته التأريخ على قدم المساواة مع الاسكندر ويوليوس قيصر ونابليون .
واختيار مثل هذه الأسماء المستعارة يحدثنا بمجلدات حول الأفكار السرية
لهذا الانسان الصامت الذي أقلق أحياناً رفاقه المرّحلين . ففي اذار (مارس)
١٩١٤ كتب سفيردلوف الذي أصبح فيما بعد رئيساً للجنة السوفيتات
التنفيذية المركزية ، من كوريكا حيث كان قد رحّل الى هناك مع ستالين يقول :
«انه شاب ظريف ، ولكن سلوكه في الحياة اليومية فردي بشكل طفيف .»
وفي ١٤ ايار (مايو) أضاف : «ومع ذلك ، فالرجل يفتضح ، وتنكشف نقط
ضعفه ، وهذا الجانب الأكثر حزناً في المنفى والسجن . وفي اللحظة الراهنة

نعيش أنا ورفيقي في قسمين منفصلين ونادراً ما نرى بعضنا . »(٦) وتزوج ستالين كاترين سفانيدزه عندما كان لا يزال فتياً جداً وأصبح أرمل منذ عام ١٩٠٥ ؛ وتعهد تربية ولده الصغير جداه . وتبدو حياته الشخصية فارغة جداً . فليس لديه أصدقاء ولا زوجة . وبقي وحيداً في أثناء سنوات ترحيله الطويلة في سيبيريا الشمالية . وقد أمضى وقته في القراءة ؛ ويود المرء لو عرف ما الكتب التي قرأها ، ولكن ثمة نقص تام في المعلومات حول هذا الموضوع . وكل ما نعرفه انه حاول دونما نجاح تعلم لغة الاسبرانتو ، وكان لا يعرف من اللغات الا الجيورجية والروسية . وبالمقارنة مع قادة الثورة الآخرين ، لا يبدو انه عالي التهذيب . كانت أذواقه بسيطة . ولم يكن يعنى بالطعام عناية خاصة . ولكنه أحب الفودكا . ولم تثر النقود ولا النساء اهتمامه الحقيقي . والشيئان الوحيدان اللذان اعتنى بهما بشغف هما الثورة والسلطة . وكانت الأولى قد جلبت له الأخيرة . وعلى أية حال ، جسدت حياته سمات برهنت على انها حاسمة في المستقبل ، وعلى خلاف قادة الثورة الآخرين ، انحدر من خلفية متواضعة وعرف الشعب وطريقة ردود فعله . وكانت جذوره عميقة في الماضي المتأخر حيث كانت القنانة لا تزال موجودة . كما أكد المؤرخ الفرنسي أ . ليروي بيليو A. Leroy - Beaulieu : «كانت القرون الوسطى بالنسبة لجماهير الشعب لا تزال موجودة» ، ودوجو غاشفيلي عرف ذلك ، ليس في النظرية حسب ، بل وبالملموس في البيئة الاجتماعية ـ الثقافية التي ترعرع فيها . وبما انه كان طالب لاهوت حتى سن التاسعة عشرة ، فقد احتفظ من أيام دراسته برؤية علمية للتراث الاورثوذوكسي ، مجرداً من صفاته الصوفية والدينية ، وهذا ما قربه أيضاً من الشعب . إن أسلوبه ، الذي كان مماثلاً للطقس الديني الاورثوذوكسي ، كان بسيطاً ، في متناول أكثر الفلاحين تخلفاً .

٦ـ مقتبس أورده رودي ميدفيديف في كتابه «لندع التأريخ يحكم» .

عندما مَثُلَ أمام مجلس التجنيد في أواخر ١٩١٦ ، أعفي من الخدمة العسكرية بسبب ضعف بسيط في ذراعه اليسرى . وعندما سقطت القيصرية ، كان على الحياة بالنسبة لستالين أن تتغير . كان في الثامنة والثلاثين . وجعلت محنة الحياة في سيبيريا جسده أكثر نحافة من السابق . كان نحيلاً وأقرب الى القصر (١,٦٧ متر) ، وكان وجهه يحمل ندوب الجدري ، ومظهره غير جذاب جداً .

ولكن في عام ١٩١٧ كانت الثورة تسير ، والقيصرية قد أسقطت . وقد أطلق سراح ستالين وعاد من سيبيريا الى بيتروغراد بقطار محمل بالمرحلين الذين كانوا يقابلون بالتصفيق على طول الطريق . وفي ٢٧ آذار (مارس) وصل الى بيتروغراد ، في الوقت الذي وصل فيه كامينيف ، ولكن قبل وقت طويل من وصول جميع قادة الثورة المعترف بهم تاريخياً . وقام بدور هام ، ولكنه لم يشغل الموقع القائد في قصة هذه الفترة ، على خلاف ما أكده فيما بعد عدد من كتاب سير القديسين ، الذين صوروه على أنه أفضل تلاميذ لينين وأقربهم اليه . وحالما عاد ، أشرف هو وكامينيف على صحيفة برافدا ، واتخذ موقفاً وسطياً في المناظرة حول مستقبل الثورة ، ذاهباً الى حد قبول فتح المفاوضات حول الوحدة الاشتراكية مع المناشفة ، ومقترحاً سياسة حيادية انتقادية ازاء الحكومة المؤقتة . وكان هذا الموقف «التوفيقي» هو ما شجعه لينين حالما وصل الى بيتروغراد في ١٦ نيسان (ابريل) . وتراجع ستالين ومن تلك اللحظة فصاعداً كان مؤيداً ثابتاً للينين . وفي ايار (مايو) انتخب الى اللجنة المركزية المكونة من تسعة رجال والتي أدارت الحزب . وفي تموز (يوليو) وآب (اغسطس) ١٩١٧ وجد نفسه على رأس قيادة الحزب ، لان الكثير من القادة قد اعتقلوا ولينين نفسه قد اختفى . وعندما اقترح لينين على اللجنة المركزية ان تعد انتفاضة ، كان ستالين مع سفيردلوف وتروتسكي ، من بين أثبت مؤيديه ، بينما عارض الفكرة زينوفييف وكامينيف . وفي ٢ تشرين الثاني (٢٠ اكتوبر) انتخب الى المكتب السياسي ، الذي اقترح تشكيله

دزرجينسكي (رئيس اللجنة الاستثنائية مستقبلاً) . الى جانب لينين وزينوفييف وكامينيف ، وتروتسكي وسوكولنيكوف وبوبنوف .(٧) وكان ينتمي الى اللجنة العسكرية الثورية لسوفيت بيتروغراد ، ولكنه اضطلع بدور ثانوي بالمقارنة مع تروتسكي . وكان عليه ان يعترف بدور تروتسكي الحاسم في مقالة نشرت في برافدا بمناسبة الذكرى الأولى لاكتوبر ١٩١٧ . «ان جميع العمل العملي فيما يتعلق بتنظيم الانتفاضة كان قد نفذ تحت قيادة الرفيق تروتسكي ، رئيس سوفيت سنت بطرسبورغ . ويمكن أن نقول دونما شك ان الحزب مدين بالدرجة الأساس الى الرفيق تروتسكي للسرعة التي وقفت فيها الحامية الى جانب السوفيت والطريقة الكفء التي نظم بها عمل اللجنة العسكرية الثورية .»

وبعد الثورة أصبح مفوض الشعب للقوميات ، وهو منصب هام ، ولكنه ليس واحداً من أهم المناصب . وعلى أية حال ، فقد انتخب ، بسبب تأييده للينين في المناقشة الصعبة التي أعقبت الانتفاضة ، الى عضوية اللجنة التنفيذية المؤلفة من أربعة رجال والتي كانت مهمتها قيادة الحزب (مع لينين ، سفيردلوف ، تروتسكي) وكذلك الى مجلس مفوضي الشعب المحدود (مع لينين وتروتسكي) . وكان دور ستالين كبيراً مع كونه متحفظاً في كل الفترة من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ الى نهاية الحرب الأهلية . فهو ، في الصور الفوتوغرافية المأخوذة في ذلك الوقت ، لاجتماعات اللجنة المركزية أو لمجلس مفوضي الشعب يمحو ذاته بحيث يجري التعرف عليه بصعوبة بوصفه الشخص النحيف ذي الشوارب الكثة ، الجالس بتواضع في ظل القادة المعروفين على نحو أفضل .

٧ـ اذا استثنينا تروتسكي (الذي جرى ترحيله) ، جميعهم أعدموا بأوامر من ستالين في أثناء القمع الواسع في الثلاثينيات .

ان غرضنا ليس كتابة سيرة حياة ستالين ، ولا مناقشة مزاياه ومزايا تروتسكي النسبية في أثناء الحرب الأهلية . وهكذا سوف نكون مقتنعين بالتذكير بان دور ستالين كان هاماً (ربما كان أكبر مما يبدو للوهلة الأولى) .(٨) غير انه عانى من شهرة تروتسكي الذي كان بوصفه مفوض الشعب للحرب منذ ١٩١٨ ، مسؤولاً عن النصر وحصل على المجد المترتب على ذلك . وظهر تروتسكي في أعين الرأي العام الرجل رقم ٢ في نظام الحكم . وكان لينين وتروتسكي يظهران في الصور الرسمية في مستوى واحد ، وكان تحتهما كالينين رئيس لجنة السوفيتات التنفيذية . وفي خلال هذه الفترة كان ستالين يتعلم كيف يسيطر على الشعب . وتصرف بمكر عند الضرورة . فمثلاً غادر اجتماعات لجان المفوضين للقوميات عندما سئل ان يعطي رأياً دقيقاً ، ولكنه لم يتردد في استخدام الارهاب على نطاق واسع عندما كان ضرورياً وممكناً ، على سبيل المثال في تسارتيسين (ستالينغراد مستقبلاً) .

كان جوابه للينين ، الذي كان قلقاً حول خطر انتفاضة اشتراكية ـ ثورية يسارية في تسارتيسين نموذجاً في بابه : «بالنسبة للهستيريا ، لتكن متأكداً ان يدنا لن ترتعش : ان اعداءنا سوف يعاملون كأعداء» . وفي الوقت نفسه كان قادراً على التراجع عندما كان الوضع في غير صالحه ، مثلاً ، عندما واجه تروتسكي في مناقشة ادارة العمليات العسكرية ، كان تكتيكاً بارعاً أكثر منه استراتيجياً ، كان يؤكد نفسه في الميدان . في آذار (مارس) ١٩١٩ كان قد انتخب عضواً كاملاً في المكتب السياسي الذي أعيد تكوينه (مع لينين ، تروتسكي ، كامينيف ، كريستنسكي ، بينما كان زينوفييف وبوخارين

---

٨ ـ هذا الرأي يعتقد به دوتشر (في كتابه «ستالين» ص٢١٥) الذي يؤسسه على المراسلة السرية لتلك الفترة ، التي لم تنشر ، والذي استطاع ان يرجع اليها في أرشيف تروتسكي في هارفارد .

مرشحين للعضوية) . ومع انه لم يكن معروفاً جيداً خارج الدوائر القائدة في الحزب ، فان سلطته تنامت أكثر فأكثر . ان ستالين بوصفه عضواً في المكتب السياسي ومفوض الشعب للقوميات وكذلك للتفتيش العمالي والفلاحي منذ ١٩٢١ فصاعداً ، جمع في يديه نفوذاً وصل الى كل ممر من ممرات السلطة .

وبقدر ما كشف عن أفكاره بالتعبير عنها علناً ، لا تبدو انها مختلفة عن أفكار أغلبية القادة البلاشفة . ربما كان أقل حساسية ازاء النفوذ الغربي . وكقفقاسي مسؤول عن قضية القوميات ، كان ينظر نحو الشرق . وثمة مقالتان نشرهما بعد ثورة اكتوبر تحملان العنوانين التاليين ذوي المغزى : «لا تنسوا الشرق» ، «وضوء من الشرق» . وفي خلال المناقشة حول توقيع معاهدة بريست ـ ليتوفسك . وضعه لينين (الذي دعمه بصفة عامة) في مكانه بتعابير ليست غير مؤكدة بسبب شكه في الطاقة الثورية للبروليتاريا في البلدان الرأسمالية الغربية المتطورة . وعلى أية حال ، لا يجعل هذا أي اختلاف واضح بينه وبين القادة البلاشفة الآخرين .

وهكذا ، ما هو مصدر القلق الذي عبر عنه لينين في ملاحظاته في ٢٣ و ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٢ و ٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٣ . وفي سلسلة من النصوص في أواخر ١٩٢٢ وأوائل ١٩٢٣ ؟ وحسبما نعتقد هناك سببان مترابطان . فمن جهة ، كان لينين خائفاً من ان النزاع بين تروتسكي وستالين يمكن ان يؤدي الى انشقاق الحزب ، والحرب الأهلية وهلاك الثورة ، «أعتقد أن العلاقات بينهما تكون القسم الأعظم من خطر قيام انشقاق» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، ص٥٩٦) . وبدا هذا أكثر خطورة بالنسبة له ، بسبب وجود عناصر في الحزب مؤيدة لخلق أحزاب عديدة . فمن الجهة الأخرى ، كان قلقاً بشأن السلطة المتنامية لستالين والطريقة التي كان يستخدمها بها . وفي ٣ نيسان (ابريل) ١٩٢٢ كان كامينيف قد اقترح ستالين لمنصب السكرتير العام للحزب ، وقد انتخب لهذا المنصب في اجتماع اللجنة المركزية في نهاية المؤتمر الحادي عشر . لقد وجد المنصب منذ ١٩١٨ ،

وكان سفيردلوف أول من شغل هذا المنصب حتى وفاته في آذار (مارس) ١٩١٩ . وتبعه في ذلك كريستنسكي ، وفي عام ١٩٢١ مولوتوف . وفي الأصل كان المنصب ادارياً أكثر منه سياسياً . ولكن بتراكم مهمات الحزب ونمو دوره ، أصبح منصب السكرتير العام هاماً جداً . قبل كل شيء لانه كان مسؤولاً عن الكادر وجميع نشاط الماكنة الحزبية ، تلك الماكنة التي أصبحت أكثر وزناً باطراد . وأصبح ستالين أيضاً عضواً في اورغبيرو (اللجنة المسؤولة عن توزيع الملاك) . وعندما مرض لينين ، تعزز دور السكرتير العام ليصبح حتى أكبر . وكان هو الوحيد من بين قادة الحزب ، الذي كان عضواً في المكتب السياسي واللجنة السياسية المسؤولة عن توزيع الملاك والسكرتارية ورئيساً لمفوضيتين من مفوضيات الشعب . وهكذا فان ملاحظة لينين ان « للرفيق ستالين سلطة غير محدودة مركزة بيده . » (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، ص٥٩٤) تصبح أكثر قابلية للادراك . كان لينين يلاحظ موقفاً فعلياً كان يبدو له مثيراً للاضطراب . « انني لست متأكداً من انه سيكون دائماً قادراً على استخدام ذلك النفوذ بحذر كاف » (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، الصفحتان ٥٩٤ ـ ٥٩٥) . فعلى أي وقائع استند في تصريحه هذا الذي أصبح حقيقة مؤكدة بعد أيام قليلة : « ستالين فظ جداً » (٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٢٣) ؟ ـ والذي أدى به الى ان يقترح « التفكير بطريقة لازاحة ستالين من هذا المنصب ؟ ـ وهي من الواضح مهمة صعبة . كان مهتماً بالعمل اليومي لستالين ، الذي كان مسؤولاً عن مفوضيتين للشعب مفوضية القوميات ، والتفتيش العمالي والفلاحي .

وبقدر ما يتعلق الأمر بمسألة القوميات ، انتقد لينين ستالين لخطته العامة ، التي أفضت به الى ان يطرح دستوراً تصبح بموجبه الجمهوريات السوفيتية غير الروسية جزءاً من الجمهورية الروسية الاتحادية الاشتراكية السوفيتية . وفي النهاية تدخل لينين مما جعل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية يتكون في نهاية عام ١٩٢٢ . ومن ثم انتقد لينين بعنف الموقف

الذي تبناه القادة البلاشفة في جورجيا : كان المعنيون دزرجينسكي (قائد اللجنة الاستثنائية) ، واورجونيكيدزه وستالين . وانتقدهم لينين ، ليس دونما سبب ، لتصرفهم بأسلوب وحشي قومي . لقد شتم مندوبو اللجنة المركزية القادة البلاشفة في جورجيا وعاملوهم بقسوة لمعارضتهم تأسيس جمهورية ما وراء القفقاس ودعوا الى استمرار وجود جمهورية جورجيا الاشتراكية السوفيتية . وأرعد لينين ضد «هجوم ذلك الرجل الروسي حقاً ، الشوفيني المنادى بروسيا العظمى ، وفي الجوهر الوغد والطاغية ، تماماً مثلما يكون البيروقراطي الروسي النموذجي «وأضاف» اعتقد ان عجلة ستالين ، وافتتانه بالأسلوب الاداري المحض ، مقرونين بحقده على «الاشتراكية القومية» السيئة الصيت ، اضطلعا بدور مشؤوم هنا» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، ص٦٠٦) . وحدد سمة سياسة ستالين بكونها «شوفينية روسيا العظمى» حقاً ، لقد كان ستالين جورجيا في الأصل ، ولكن كما أشار لينين : «ان الناس الذين يصبحون متروسين يغالون في اطار هذه العقلية الروسية» .وأصبح ستالين روسياً أكثر من الروس لان المركزة كانت ضرورة سياسية تماماً كما «غالى نابليون في اطار العقلية الفرنسية» ، عند تطوير المركزية في نهاية الثورة الفرنسية .(٩) ان اختيار لينين للألفاظ فظ جداً بحيث يستحق تذكره . «فالجيورجي المهمل لهذا الجانب من المسألة ، أو الذي يلقي الاتهامات بـ «الاشتراكية القومية» جُذافاً (بينما هو «اشتراكي ـ قومي» حقاً وصدقاً ، وحتى من دعاة روسيا العظمى المبتذلين) . ينتهك في الجوهر مصالح التضامن الطبقي البروليتاري . . .» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، ص٦٠٨) . ورأى لينين الخطر الحقيقي الذي شكله نشاط ستالين والسمة الحقيقية لهذا الخطر ، ومن هنا ، يأتي تحذيره .

٩ـ كانت كورسيكا قد ضمت الى فرنسا قبل ولادة نابليون تماماً ، وحدثت انتفاضة حقيقية معادية لفرنسا قادها باولي . ومع ان نابليون كان كورسيكيا من حيث الأصل فقد قام بدور حاسم في تأسيس المركزية كما توجد في فرنسا .

ولم يكن لينين ألطف فيما يتعلق بقضايا «التفتيش العمالي والفلاحي» . ففي مقالة كُتِبتْ في ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٣ ونشرت في برافدا في ٢٦ كانون الثاني (يناير) يصف ماكنة الدولة السوفيتية باعتبارها «من مخلّفات الماضي . . . أكثر الآثار نموذجية لماكنة دولتنا السابقة» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص٤٨١) . وكمثال على هذا العجز لماكنة الدولة يأخذ مفوضية «التفتيش العمالي والفلاحي» التي كان ستالين مسؤولاً عنها منذ ١٩٢١ :

«لنقل صراحة ان «مفوضية الشعب للتفتيش العمالي والفلاحي» لا تتمتع في الوقت الحاضر بأبسط نفوذ . ويعرف كل امرئ ان ليس ثمة مؤسسات أخرى أسوأ تنظيماً من مؤسسات التفتيش العمالي والفلاحي ، ولا يمكن توقع أي شيء من مفوضية الشعب هذه في الظروف الراهنة» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص٤٩٠) . «لدينا بيروقراطيون في مؤسساتنا الحزبية وكذلك في المؤسسات السوفيتية» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص٤٩٥) .

وفي الوقت نفسه اقترح وجوب اصلاح نشاطات اللجنة المركزية ، والمكتب السياسي والسكرتارية . وهذه الانتقادات كانت حتى أكثرعنفاً في مقالة «أفضل أقل شرط ان يكون أفضل» التي كتبت بعد أيام قليلة . وباختصار ، كان انتقاد لينين لستالين انتقاداً جذرياً . يمتلك «سلطة غير محدودة» «انه فظ» «استعجاله يضطلع بدور مشؤوم» ، سياسته سياسة شوفينية روسيا العظمى» «انتعل أحذية جهاز الدولة السابق» (القيصرى) «انه بيروقراطي» .

والحوادث ذات الطابع الشخصي طالت زوجة لينين كروبسكايا ، وجعل ستالين الوضع أكثر سوءاً . ولم تكن المسألة على مستوى العلاقات الشخصية بين القادة . وكانت هذه الأخطاء ، على الضد مما يقال في غالب الأحيان . ليست عرضية ولا صغيرة . كانت طويلة المدى وجدية وذات مضامين أكثر من مجرد المضامين الشخصية . وهكذا قام لينين بمصالحة مع تروتسكي . فبعد

معارضته الضارية لاطروحات تروتسكي حول عسكرة العمل ودمج النقابات في الدولة كجزء منها (في المؤتمر العاشر)[10] بدأ يتفق معه على الكثير من النقط ، مع انه بقي ينتقده لرفضه قبول منصب نيابة رئاسة المجلس . وامتدحه علناً ، مراراً ، ذلك الشيء الذي نادراً ما عمله . ففي برافدا في ٨ آذار (مارس)١٩٢٢ ، صرح بالاشارة الى مؤتمر جنوا «من زاوية المهمات العملية ، وليس من زاوية لعبة قفز الضفدع الدبلوماسية ، ولذلك فقد حدد الرفيق تروتسكي الموقف بدقة أكبر من أي امرئ آخر» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص٢١٧) . وفي ١٢ آذار (مارس) ١٩٢٢ ابتدأ مقالة نشرت في مجلة «تحت راية الماركسية» على النحو التالي : «الرفيق تروتسكي قال بالفعل كل شيء ضروري ، وقاله بطريقة حسنة جداً ، حول الأغراض العامة لمجلة «تحت راية الماركسية» Pod Znamenem Marksizma في العدد ١ـ٢ من تلك المجلة» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٣ ، ص٢٢٧) . وفي المؤتمرين الثالث والرابع لـ «الأممية الشيوعية» ، ناضل لينين وتروتسكي معاً ضد العناصر اليسارية من أجل تطور الجبهة الموحدة . وفي ١٣ كانون الأول (ديسمبر)١٩٢٢ ، سأل لينين تروتسكي ان يدافع عن «موقفنا المشترك حول احتكار التجارة الخارجية .»[11] وبعد ان انتقد اقتراح تروتسكي لمنح لجنة التخطيط صلاحيات تشريعية في ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٢ ، اعترف : «في هذا المجال أعتقد اننا نستطيع ويجب أن نقبل رغبات الرفيق تروتسكي» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، ص٥٩٩) . وفي ملاحظاته حول القيادة ، أعلن بصدد تروتسكي : «انه شخصياً ربما يكون

١٠ـ أعرب تروتسكي عن الموضوعة القائلة بان «عسكرة العمل هي الأساس الذي لا غنى عنه لتنظيم قوة عملنا» . وقد طرد من العمل قادة نقابة العاملين في السكك وحاول ان يفرض سياسة مركزية انتقدها لينين والحزب . وفي النهاية قبل تروتسكي قرارات الحزب .

١١ـ مراسلات لينين ـ تروتسكي (في أرشيف تروتسكي) .

أكثر الرجال قدرة في اللجنة المركزية الحالية » . وفي الوقت نفسه انتقد «ثقته المفرطة بالنفس وانشغاله المفرط في الجانب الاداري من العمل» (المؤلفات الكاملة ، المجلد٣٦ ، ص٥٩٥) ؛ وفي ٥ آذار (مارس) ١٩٢٣ سأل تروتسكي ان يضطلع بمسؤولية الدفاع عن القضية الجورجية أمام لجنة الحزب المركزية . «هذه المسألة موضع «اضطهاد » الآن من ستالين ودزرجينسكي ، وأنا لا أستطيع الاعتماد على حيادهما . بل الأمر على الضد من ذلك تماماً . وسوف أشعر بالارتياح اذا وافقت على الاضطلاع بالدفاع عنها » (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٤٥ ، ص٦٠٧) .

اننا نقتبس هذه النصوص الهامة لانه يبدو لنا أمراً لا غنى عنه ان نعرفها اذا أردنا ان نفهم كيف برزت « ظاهرة ستالين » الى الوجود ، وليس لتمجيد تروتسكي أو للحط من قدر ستالين . وما يعنينا هو طبيعة القضايا التي أثارها لينين ، وليس الأشخاص الذين شملتهم . واقترح تروتسكي سياسة عسكرية وبيروقراطية أقل ما يقال فيها انها لا تساهم في تصحيح الأخطاء في الماكنة السوفيتية . وأدرك لينين انها خطرة ، وهذا لا يعني بالضرورة انه رأى كل عواقبها الممكنة .

«ان التشويه البيروقراطي » والسياسات القومية لروسيا العظمى لم يكن من المستطاع مكافحتها الا بديمقراطية متسعة لم تكن لها قاعدة في روسيا ١٩٢٣ . ويزداد افتقارها لهذه القاعدة لانها هددت السلطة السوفيتية نفسها . كما أوحت أحداث كرونستاد . ومن زاوية النظر هذه علينا ان لا ننسى ان الاتحاد السوفيتي في ١٩٢٣ كان بلداً لم تتوفر فيه لا حرية الكلام ، ولا حرية عقد الاجتماعات ، ولا التنظيم في جمعيات ، ولا الانتخابات الحرة ، حيث كانت السلطة في أيدي حزب واحد ، وفي أيدي مجموعة صغيرة من الرجال ضمن ذلك الحزب (عدة آلاف في الأغلب) ، وحيث بقيت الشرطة السياسية كلية القدرة ، وحيث لم توجد لا التقاليد الديمقراطية ولا المؤسسات ، وذلك للأسباب ذاتها التي انتصرت في ظلها الثورة . وقد بيّنا سابقاً ان عدداً معيناً من

سمات الشكل السوفيتي للاشتراكية يعود الى الظروف التأريخية وليس الى الاشتراكية ذاتها .

وأرشيفات سمولينسك تصور هذه الحقيقة . وعندما وجدت في وقت الغزو الألماني في ١٩٤١ ، أرسلت الملفات الخمسمائة الى المانيا . وقد حصل عليها الامريكان في ١٩٤٥ وأخذت الى واشنطن ، حيث توجد في القسم العسكري للأرشيفات العسكرية الاتحادية . وقد استخدمها المؤرخ الامريكي فينسود (الذي مات مؤخراً) في كتاب نشر في عام١٩٥٨ ، «سمولينسك تحت الحكم السوفيتي » (مطبعة هارفارد ١٩٥٨) ، ولكنها لم تنشر بالكامل بتاتاً . في ١٩٢٢ كان سكان منطقة سمولنيسك ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة . وكان للحزب ١٢٨ عضواً انضموا الى الحزب قبل سقوط القيصرية في ١٩١٧ و ٣٦٦ عضواً انضموا اليه في ١٩١٧ . وفي عام ١٩١٩ وصل عدد الأعضاء الى ٢,٥٦٦ عضواً (١٢ ألف عضو استناداً الى سلطات المنطقة ، ولكن تبين ان هذه الأرقام زائفة) . وفي ١٩٢١ ، عندما حدث التطهير ، وصل عدد أعضاء الحزب الى ١٠,٦٥٧ عضواً . وكانوا ٧,٢٤٥ عضواً فقط في نهاية عام ١٩٢١ . و٥,٩٢٩ في نهاية ١٩٢٣ و ٥,٦٥٥ في ١ انيسان (ابريل) ١٩٢٤ . ولم يكن يعيش في المدن من المجموع الكلي ٥,٤١٦ عضواً كاملاً أو مرشحاً لعضوية الحزب ، سوى ٣٧٠ شخصاً و ١,٧١٢ شخصاً في الأرياف . اي انه كان ١٦ شيوعياً في كل عشرة الاف شخص في سن العمل ، أو تقريباً عضواً واحداً لكل عشر قرى . ولان سكان المحافظة كانوا ٩٠ في المئة ريفيين ، فان الضعف الشديد للحزب في الأرياف يبدو أكثر وضوحاً (فينسود الصفحتان ٣٥ـ ٣٦) .

وهكذا ، ففي منطقة في الغرب ـ مع انها واحدة من أكثر المناطق ريفية ـ كان الحزب في ١٩٢٤ لايزال قطرة من الماء فقط في البحر الروسي ، ومن هنا نبعت الصعوبات في بناء الاشتراكية وظهور ظاهرة ستالين . ولا يمكن مقارنة هذه الفترة بالزمن الذي كان فيه لينين حياً . مع ان الارهاب الأحمر ، الذي كان موجهاً ضد البيض وأنصارهم السياسيين والاجتماعيين أنجبه الارهاب الأبيض .

ولا يمكن مقارنة الارهاب الأحمر من حيث النوعية ولا من حيث الكمية بالقمع الستاليني الواسع . مع ان ستالين جعل حضوره محسوساً في ظل لينين وضده . وسوف يكون المؤرخ أحمق اذا لم ير هذه الصلة ، لانه سوف يدان لتفسير ظاهرة ستالين بلغة شخصية ستالين وحدها . والصورة الكاريكتيرية لما يمكن ان يقوله ستكون على النحو التالي :

« كان ثمة رجل طيب جداً يدعى لينين ، ومن ثم جاء بعده رجل شرير جداً اسمه ستالين . . . » والصلة بين بداية العشرينات وأواسط الثلاثينات موجودة بالتأكيد ، وتكمن في استمرارية المؤسسات السياسية ، وفي الظواهر المتعلقة بالوعي ، وبالسلوك الانساني ، التي كانت ثمرة للتراث والظروف التي تكوّن التربة التي نمت فيها أكثر الأزهار سموماً للستالينية . وفي عام ١٩٢٣ وجدت هذه التربة بالفعل الى مدى معين ، هذا ما يفسر محاولة لينين لتقليصها . وهذا لا يعني ان هذه الظاهرة كانت ضرورية ، ضرورية تاريخياً ، أي حتمية ، ولكنها كانت امكانية . وعلى الرغم من ذلك ، هل كان على البلاشفة ان يتخلوا عن السلطة ، كما يُقْتَرحُ ، باصرار ، هذه الأيام ؟ وكما كان يقول تروتسكي « ان عجلة التاريخ لا ترجع الى الوراء » . لقد انتصرت الثورة الاشتراكية في بلد فقير ومتخلف ثقافياً وليس في بلد رأسمالي عالي التطور . وكان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الدولة الاشتراكية الوحيدة وكان عليه اما ان يتقدم الى الامام واما ان ينتحر . وقد اختار ان يتحرك الى الامام وكان خياراً تأريخياً لم يكن حوله كثير من الشك .

واستمرت تجربة النيب من ١٩٢٣ الى ١٩٢٨ وكانت فترة استقرار نسبي على الصعيدين الداخلي والدولي . وفي الوقت نفسه تطورت التيارات التي لاحظناها في السنوات السابقة ، وتنامى نفوذ ستالين . وجعلت النيب اعادة البناء الاقتصادي ممكنة . وبحلول عام ١٩٢٦ وصل الانتاج الزراعي ٩٠ في المئة من مستوى ما قبل الحرب ، ومع ان الانتاج الصناعي تقدم ببطء أشد ، ففي السنة نفسها وصل الى أرقام عام ١٩١٣ . ولكي ندرك كم كانت سرعة

هذه الوتيرة للتقدم ، فاننا بحاجة الى ان نتذكر حالة اقتصاد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ١٩٢٢ . ومع ان فرنسا عانت تدميراً أقل بكثير من الاتحاد السوفيتي ، كان عليها ان تحقق أرقام ١٩١٣ في عام ١٩٢٦ فقط . وهكذا ، فان انتعاش الاقتصاد السوفيتي ، آخذين في الاعتبار اضرار الحرب ، كان أسرع بمرتين مما كان عليه في فرنسا . وكانت النيب قد حققت آمال أولئك الذين شجعوها . وشهد الاتحاد تطورا سريعاً في القوى المنتجة على أساس اقتصاد السوق ، والحوافز للعمال والفلاحين ، والتجارة الحرة والشركات الرأسمالية الصغيرة الحجم ، بينماواصلت الدولة الاشتراكية سيطرتها على المالية والصناعة الكبيرة والنقل وكذلك التجارة الخارجية .

وبالمعايير الاجتماعية ، كان للنيب آثارها المتوقعة . وقد عادت البروليتاريا الى الظهور عندما ولدت من جديدالصناعة الكبيرة . وعلى أية حال ، فقد بقيت أقل عدداً منها في عام ١٩١٣ . وقبل كل شيء ، كانت بروليتاريا جديدة ذات أصل ريفي ـ يضاف اليها عدد متنام من كسبة الأجور . وساعدت النيب الرأسمالية أيضاً . وفي الريف ازداد الكولاك غنى ، استخدموا العمل ، وأقرضوا الفلاحين النقود ، وزادوا المساحة المنزوعة بالالتفاف على بنود القانون الريفي بطرق مختلفة ، وأخيراً ، لعبوا دوراً متزايداً في تجارة المنتج الزراعي والحيواني ، لان ناتج الفلاحين الأغنياء كان أعلى من ناتج الفلاحين المتوسطين . وقد ازداد عدد الفلاحين المتوسطين ، ولكن عدد الفلاحين المعدمين (بلا أرض) ازداد أيضاً ، وان وضعهم ، شأن وضع الفلاحين الفقراء ، أصبح أسوأ نوعاً ما . ولم تغط المزارع التعاونية ومزارع الدولة سوى نسبة مئوية صغيرة من الأرض المزروعة (١٨,٠٠٠ لا تكاد تغطي ٣ في المئة) وفي المدن كانت البطالة متفشية (٧٠٠٠٠٠ ألف عاطل في ١٩٢٤ مليون وأربعمائة ألف في ١٩٢٨) . وقد اغتنى التجار والصناعيون الصغار . وكان « رجال النيب » قد أفادوا على نحو حسن جداً من النيب . « من سوف يربح ؟ » سأل لينين نفسه في عام ١٩٢١ . وفي ١٩٢٨ لم يكن واضحاً مطلقاً ان الاشتراكية

انتصرت . مما لا شك فيه كان لها أفضليات ثمينة ، ولكن مستقبلها كان لا يزال مشكوكاً فيه ، ومما زاد في ذلك ان النمو الاقتصادي بدا غير مؤكد . ولوحظ منذ عام ١٩٢٧ بطء مقلق في القطاعات الأساس للاقتصاد . وفي ظل الظروف التي حدث فيها التطور الاقتصادي ، والتي تطلبت اللجوء الى رأسمالية الدولة والرأسمالية الخاصة الصغيرة ، ظهر أكثر من السابق ضرورة ان يحتفظ البلاشفة بدكتاتوريتهم . وبشكل خاص دكتاتورية تلك الفئة الضيقة القائدة التي ذكرها لينين في رسالته الى مولوتوف . انه لهام جداً ان قادة الحزب على الرغم من الخلافات التي كانت موجودة بينهم في فترة ١٩٢٣ ـ ١٩٢٧ شككوا في المؤسسات السياسية التي أقيمت في ١٩٢٢ . ان العدد المحدود من القرارات التي اتخذت بهدف تطوير الديمقراطية أو خلق ظروف أفضل لنموها ـ الحد من الصلاحيات السياسية للجنة الاستثنائية ، ونشر وثيقة للمناقشة الحزبية الداخلية ـ لم تنفذ لان تطور المؤسسات والممارسات التي توطدت أصبحت متحجرة ، واكتملت على وجه التحديد حينما بدت الديمقراطية غير كافية لضمان الهيمنة البلشفية ، التي كانت قد أصبحت آنذاك متماهية مع هيمنة البروليتاريا . وأوراق ارشيفات سمولينسك ، التي لا يكاد يشكك في صحتها فينسود ، تظهر انه على الرغم من وجود مناظرات حاسمة داخل قيادة الحزب ، فان تأثير هذه المناظرات كان ضئيلاً في المحافظات ، حتى داخل الحزب .(١٢) وربما كان هذا أقل انطباقاً على بعض المناطق ، ولكن الاتجاه العام كان يبدو مؤيداً للامبالاة معينة . وبقدر ما يستطيع المرء ان يؤكد حالة الرأي العام ، فان الانطباع الذي يحصل عليه هو كانت ثمة رغبة عميقة في السلام الداخلي والخارجي . فالناس عانوا على نحو سيء من ١٩١٤ الى ١٩٢٢ ولم يرغبوا لا في المغامرات الخارجية ولا في الاضطراب الداخلي .

وكان المزاج العام يفضل العمل ، وتحسين ظروف المعيشة والتقدم في

١٢ـ فينسوده «سمولينسك تحت الحكم السوفيتي» ص٣٨ .

ميدان التعليم وتقارباً معيناً بين السلطة السوفيتية والفلاحين المتوسطين ، وهذا ما يشير اليه كل أولئك الذين شهدوا الفترة . وفي مثل هذه الظروف كان من الطبيعي بالنسبة للمناضلين البلاشفة أن يتساءلوا حول مستقبل الثورة في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية وفي العالم . وكانت المناظرات في القيادة البلشفية في السنوات ١٩٢٣ ـ ١٩٢٧ تتناول هذه القضايا . ولكنها استحالت الى قضايا أكثر تعقيداً بسبب الوضع ، والمسائل الشخصية وغياب الديمقراطية الحقيقية ، التي من دونها لم تكن أية مناظرة حقيقية ممكنة .

وعندما انعقد المؤتمر الثاني عشر في نيسان (ابريل) ١٩٢٣ في غياب لينين ، الذي لم يعد يضطلع بأي دور في السياسة عكس الترددات داخل الحزب . وحسب ملاحظة سرية أبدتها كروبسكايا الى كامينيف فان لينين كان قد قرر تدمير ستالين سياسياً . ان الظروف لم تسمح له بتنفيذ هذه النية ، ولم يكن أي شخص آخر قادراً على القيام بذلك ١٩٢٣ ، لان مما لاشك فيه ان ستالين كان يتمتع بالفعل بـ «سلطة غير محدودة» . ولم يكن لتروتسكي نفوذ كاف داخل قيادة الحزب . فماضيه ـ الدور الذي قام به قبل الحرب ـ جعل عدداً جيداً من أعضاء الحرس البلشفي القديم يقفون ضده . وربما كان باستطاعته ، بوصفه مفوض الشعب للحرب ان يحاول استخدام الجيش الأحمر لاخضاع ستالين . ولا يمكن ان يفترض ان الجيش كان سيتبعه ، ومن المحتمل ان تروتسكي الذي كان واعياً لخطر الانشقاق في الحزب ، لم يفكر مطلقاً بمثل هذا المنحى . لقد اتهم بكونه يريد ان يصبح بونابيرت الثورة الروسية ، ولكنه لم يرغب في القيام بمثل هذا الدور . يضاف الى ذلك ، انهم قللوا من شأن ستالين الى مدى بعيد جداً بحيث لم يكونوا قادرين على تحليل الوضع بجدية . كان تروتسكي ، في بعض الأحيان ، استراتيجياً جيداً . وكان كاتباً عظيماً وخطيباً جيداً . ولكنه لم يكن مطلقاً سوى تكتيكي عادي ، يشعر بالراحة في الأوضاع المتأزمة أكثر منه في أوقات السلام النسبي . وكان قادراًعلى اظهار العظمة في الحياة المضطربة ، وكان عادياً دائماً في الحياة الهادئة . أما

زينوفييف وكامينيف فقد تحالفا مع ستالين ، مشكلين ما كان يعرف بالثلاثي .
وفي بداية حكومة القناصل في فرنسا بعد ١٨ برومير ، كان هناك ثلاثة
قناصل . ولكن من ، باستثناء الاختصاصيين ، يتذكر كابيسيريس وليبرون ،
بينما يعرف الجميع نابليون بونابيرت ؟ كان زينوفييف وكامينيف استراتيجيين
عاديين وتكتيكيين غير ماهرين ، ورأيا في تروتسكي بونابيرت جديداً يجب
ابعاده عن السلطة العليا . وفهما ، متأخراً جداً ، ان التاريخ لا يكرر نفسه
أبداً ، وان ستالين دكتاتور محتمل من طراز جديد .

كان جميع القادة يدركون ادراكاً جيداً جداً ضعف الحزب للبدء بأزمة كان
يمكن ان تكون مشؤومة حقاً . وبعد موت لينين نقلت محتويات « وصيته »
الى اللجنة المركزية وهيئة رئاسة المؤتمر الثالث عشر (في أيار / مايو
١٩٢٤) . ولكن قُرر عدم ذكرها في المؤتمر نفسه . وقدم ستالين اعتذاراً عن
القضايا في جورجيا ، وتحدث عن مكافحة البيروقراطية بحيوية ، ووعد بان
يكون أكثر تهذيباً وأقل وحشية ، ونتيجة لذلك بقي في منصبه واستخدم
صلاحياته للسيطرة على ماكنة الحزب بوساطة الازالة الماهرة للموظفين
والتعيين القانوني ، وهو ما أصبح ممكناً بتطبيق قرارات المؤتمر الحادي
عشر . وتشكلت قبل ذلك مجموعة معارضة داخل قيادة الحزب ، وفي تشرين
الأول (اكتوبر) ١٩٢٣ ناشد ٤٦ عضواً قيادياً اللجنة المركزية ان تقوم بتصنيع
أكثر سرعة وتوسيع الديمقراطية داخل الحزب .[١٣] ولم يوقع تروتسكي هذه
الرسالة ، غير انه بالتأكيد لم يتبرأ منها .

وقررت اللجنة المركزية تأنيب الموقعين على الرسالة لانهم مذنبون
باعادة تشكيل تكتل ، وهذا ما مُنِع منذ المؤتمر العاشر . وعلى أية حال ،
اعترفت بالحاجة الى مزيد من الديمقراطية داخل الحزب (في مقالة كتبها

١٣ـ كان من بين الموقعين : الاقتصادي بريوراجنسكي ، سكرتير سابق للجنة المركزية ، وبياتاكوف ، وانطونوف ، أوفسينكو ، مورالوف ، وبوبنوف الخ . وجميعهم هلكوا في أثناء القمع الواسع في الثلاثينات .

زينوفييف في برافدا في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٣) . وحصل الستة والأربعون على بعض التأييد في موسكو ، في الجيش وخلايا الجامعة . وكان رد فعل اللجنة المركزية قوياً . وقد فصل انطونوف ـ أوفسينكو ، المفوض السياسي للجيش الأحمر .وحلت اللجة المركزية للكومسومول ورابطة الشيوعيين الشباب ، وقبلت المعارضة الهزيمة . واذا أخذ الوضع في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية في الاعتبار ، ووضع الحزب في البلاد فقد كان هامش المناورة ضئيلاً ، وكان الاتحاد السوفيتي الذي واجه خطر العدوان الأجنبي ، لايزال هشاً ، كان موقع الحزب داخل البلاد مزعزعاً من وجوه عديدة . وكان البلاشفة يعتمدون على نتائج النيب ، وسياستهم المفضلة للفلاحين . وهذا ما عبّر عنه بوخارين بحيويته المعتادة في ١٩٢٥ : «اغتنوا ، طوروا مزارعكم ، وليس عليكم ن تخافوا من القسر . وهذه النصيحة التي استلهمت النصيحة التي أعطاها غيزو الى البرجوازية الفرنسية في زمن ملكية تموز/ يوليو ، كان من الطبيعي ان تواجهها المعارضة اليسارية بالنقد وان يوافق عليها أوستريالوف بعضو سابق في حكومة كولتشاك الذي كان ينوي استخدام النيب لاعادة الرأسمالية في روسيا .وسحب بوخارين « هذه الصيغة الصارمة المعبرة عن رأي صحيح » ، ولكن المناقشة التي أثارها لم تظهر الا مدى صعوبة الوضع آنذاك .

وكان البلاشفة يعتمدون أيضاً على التقدم في ميدان الثقافة . وكان ذلك واقعياً . اذ كانت الأمية في انحسار . ففي نهاية ١٩٢٦ كان نصف السكان يستطيعون القراءة والكتابة ، الا ان النسبة كانت أوطأ بين النساء والشعوب غير الروسية في الاتحاد . والتعليم الثانوي والمهني ، وكذلك عدد الطلاب كانا في نمو . ان جامعات العمال ومدارس العمل سمحت بتعجيل تدريب الفنيين الذين كان الاتحاد السوفيتي بأمس الحاجة اليهم .

وفي الوقت نفسه كان البلاشفة يستعيرون الطرق التقليدية في الحكومة ، مثل عبادة القائد ، في البداية كان لينين . ففي نهاية الحرب الأهلية كانت

صوره موجودة في كل مكان . وحاول لينين كبح هذه الظاهرة ، ولكنه لم ينجح حقاً . وبعد موته اكتسبت هذه الظاهرة أبعاداً هائلة . فقد حنط جسده ووضع في ضريح خشبي في الساحة الحمراء مقابل الكرملين حيث تستطيع الحشود الذهاب اليه والقاء نظرة عليه . وفسر غوركي في الأممية الشيوعية وبوضوح تام ان لينين يصبح شخصية اسطورية وهذا شيء جيد . أقول شيئاً جيداً ، لان لدى معظم الناس حاجة مطلقة للايمان ، لكي يكونوا قادرين على الشروع في العمل . ولسوف يقتضي انتظارهم وقتاً طويلاً لكي يبدأوا بالتفكير والفهم ، بينما سوف تخنقهم العبقرية الشريرة للرأسمالية بسرعة متزايدة بالفقر والكحول والاجهاد (العدد ١٢ في ٢٠ تموز / يوليو ١٩٢٠) .

وعبثاً حاول لينين انتقاد هذه النظرية . وزينوفييف نفسه تحدث عن «الحج» تبريراً لعرض جسد لينين في الضريح . وسميت المدن والمصانع بأسماء القادة بينما هم لا يزالون أحياء . هكذا كانت ثمة مدينة في عام ١٩٢٣ تدعى تروتسك تكريماً لتروتسكي (غاتسينا ـ بلدة سكانها ١٦ ألف نسمة تبعد ٤٦ كيلومتراً عن بيتروغراد) ؛ وفي ١٩٢٤ أصبحت اليزابثغراد زينوفييفسك وفي ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٢٥ اتخذت تسارتسين اسم ستالينغراد . هذا وكانت هذه النزعة تستفيد من التقاليد القيصرية والشعائر الاورثوذوكسية . كان المحتوى الطبقي لهذه الأساليب في الحكومة جذرياً ، ولكن الطريقة لا تزال هي نفسها ، مع انه أضفى عليها طابع علماني ، طابع اجتماعي كما يقال . وانطوت على بعض الخطر كما أثبت المستقبل . وادرك ستالين كيف يستطيع الافادة من هذا التوجه ، وقد ساعده تدريبه على القيام بذلك . والخطاب الذي ألقاه في جنازة لينين نموذج في نوعه ، لانه في الأسلوب والشكل يعيد خلق الابتهال الاورثوذوكسي : «ايها الرفيق لينين مرنا ، وأنت ترحل عنا ، أن نرفع عالياً اللقب العظيم لعضو الحزب ونصون نقاءه ، نعاهدك ، أيها الرفيق لينن ، اننا سوف نتبع وصيتك بشرف .» وكان الهراء نفسه حول خمسة مواضيع أخرى ـ دكتاتورية البروليتاريا ، وحدة العمال

والفلاحين ، واتحاد الجمهوريات السوفيتية ، الاخلاص لمبادئ الأممية الشيوعية . « أيها الرفيق لينين مرنا وأنت ترحل عنا . . . اننا نقسم ، أيها الرفيق لينين ، سوف نتبع وصيتك بشرف . » ولذا فان عبادة القائد ، وهي طقس شبه ديني ، تذهب حتى حد تحويل الحزب الى كنيسة علمانية - « نحن الشيوعيين أناس من طينة خاصة . لقد صنعنا من مادة خاصة » ، هذا ما قاله ستالين في خطابه في جنازة لينين - وقد كان ذلك قد قرر بوعي تام ونفذه الحزب بكامله ولا فرق بين الآراء المختلفة ، وهذه الميزة النموذجية لظاهرة ستالين تكشف عن المدى العظيم الذي نشأت فيه هذه الظاهرة من التأريخ الروسي وليس من الاشتراكية .

وليس في نيتنا هنا ان نبحث في التفاصيل للحجج والنزاعات التي تشمل عدداً من الرفاق القادة ، وقيادة الحزب والحزب بأسره .وسوف نشير فقط الى الأساسيات ، تلك الأشياء المرتبطة مباشرة بولادة ظاهرة ستالين . ومنذ عام ١٩٢٥ أعلن ستالين فكرة ان كان ، ضرورياً « بناء الاشتراكية في بلد واحد » . وفي ذلك الوقت لم يكن أحد يؤكد ان انتصار الاشتراكية في بلد واحد يمكن ان يكون نهائياً ، غير انه كان ضرورياً وممكناً على حد سواء اعطاء هذا للناس والحزب كهدف واضح . وكانت المعارضة في ١٩٢٣ أو في ١٩٢٥ - ١٩٢٦ على خطأ بيّن في عدم ادراكها ضرورة هذا الشعار ، الذي كانت الجماهير الريفية تستطيع فهمه لانه تضمن نبذ الحرب الثورية الهجومية ونزعة المغامرة . وقد كتب الشيء الكثير حول هذا ، وقد أكد عدد من الكتب ان هذا الشعار شعار قومي بصفة متأصلة ومناقض لآراء ماركس ولينين ، وهذا مثال جيد للتناول « الايديولوجي » الذي يكمن في قراءة « النصوص المقدسة » وتطبيقها ميكانيكاً على أوضاع جديدة بالمقارنة مع الفترة التي كتبت فيها . لقد فشلت الثورة الاشتراكية في الأماكن الأخرى ،ولم يكن ثمة ما يشير الى احتمال نجاحها في أي مكان في المستقبل القريب . وهكذا ، فان الطريقة الممكنة الوحيدة للتقدم الى الامام كانت بناء الاشتراكية في بلد واحد . وبالطبع كان

اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية لا يزال يضطلع بدور ثوري عن طريق تقدمه ذاته وعن طريق مساعدة الحركة العمالية ، ولكن واجبه الأول كان بناء الاشتراكية داخل حدوده ذاتها . وكان يجب المحافظة على توازن دقيق بين هاتين المنطقتين المتكاملتين من السياسة . والحقيقة القائلة بان هذا لم يتحقق دائماً لا تبرهن بأي معنى من المعاني ان هذا القرار الذي اتخذ في ١٩٢٥ كان خاطئا .

ان تروتسكي قبل العواقب العملية لهذه الحقيقة ، التي لم يكن يمكن تفاديها في تلك الظروف ، ولكنه رفض ان يعطي اي تصريح حولها ، وهذا ما يكشفه التقرير الذي قدمه حول التصنيع الى المؤتمر الثاني عشر وما قام به في رئاسة اللجان المختلفة للمجلس الأعلى للاقتصاد الوطني . لقد تصور منافسة مستقبلية بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة «سوف تسحق فيها البلشفية المتأمركة النزعة الامريكية الامبريالية» (اوربا وامريكا ،(١٤) برلين ، ١٩٢٦ ص ٤٩) . وليس دونما سبب ، انه يمكن ان يقدم رفضه لقبول الاشتراكية في بلد واحد على انه نتيجة لنظرية «الثورة الدائمة» التي طورها قبل الثورة ،والتي لم يتخل عنها .

لم يكن ثمة بديل من التعايش السلمي على المستوى الدولي ؛ وتروتسكي نفسه اعترف بهذا في محادثة مع السناتور الامريكي كنغ نشرت في ازفيستيا في ٣٠ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٣ . «نحن لا نتدخل في الحروب الأهلية الأجنبية . وانه لمن الواضح ، اننا نستطيع ن نتدخل اذا أعلنا الحرب على بولندا . ولكننا لا نريد الحرب . ونحن لا نتستر على تعاطفنا مع الطبقة العاملة الألمانية في نضالها البطولي من أجل الحرية .واذا تكلمنا بوضوح أكبر وبصراحة أشد ، أقول اننا نستطيع ان نعطي النصر للثورة الألمانية دونما مغامرة

١٤ـ في هذا العمل كتب تروتسكي حول مستقبل أوربا «في اوربا اشتراكية ، سوف نعمل كجسر مع آسيا» ص٩٠ .

للتورط في الحرب ، وسوف نعمل كل ما نستطيع . ولكننا لا نريد الحرب . فالحرب سوف تضر بالثورة الألمانية ، ولا تستطيع البقاء على قيد الحياة الا ثورة تنجح على أساس قوتها الخاصة ، قبل كل شيء عندما يتعلق الأمر ببلد كبير . »

ان تروتسكي ومن ثم كامينيف وزينوفييف والمعارضة بكاملها ، فكروا انه لامر حصيف ان يجعلوا من مسألة « الاشتراكية في بلد واحد » أحد محاجاتهم الرئيسة . وكان سهلاً على ستالين وبوخارين ان يجيبا ان عليهما ان يكونا متسقين وان يتعلما من أحداث الماضي والوضع الحقيقي كما وجدا آنذاك فشعار « الاشتراكية في بلد واحد » أعاد الطمأنينة الى الفلاحين والرأي العام ، وأعطى كل امرئ نظرة واضحة عن الطريق الى الأمام . ومن الجهة الأخرى ، فان رفضه يسبب الاضطراب .

كانت ثلاث قضايا في مركز النقاش في الميدان الاجتماعي والاقتصادي وهي : التصنيع ، والتخطيط ، والنضال ضد الكولاك . لقد طرحت المعارضة الرأي القائل بانه يجب تصنيع روسيا بوتيرة سريعة جداً ، وهو نهج تطلب تخطيطاً شديداً و « تراكماً اشتراكياً بدائياً » ، أي المصادرات التي لا يمكن أن تأتي الا من سكان الريف والحرفيين ، اذا أخذنا حالة البلاد في الاعتبار .

وصاغ بريوبراجنيسكي أفكاره بوضوح في سلسلة من المقالات التي ظهرت من ١٩٢١ فصاعداً .ونشرت في ١٩٢٦ تحت عنوان « الاقتصاد الجديد » . وفي مقالة كتبت في ١٩٢٤ حول « القانون الأساسي للتراكم الاشتراكي » قارن هذا التراكم بـ « التراكم الرأسمالي البدائي » . فالأخير كان قد تحقق بفضل رأس المال المستخلص من استغلال المنتجين الصغار ما قبل الرأسماليين والمستعمرات ، اضافة الى الضرائب وقروض الدولة . حسناً لم يكن ممكناً للاشتراكية ان تستغل المستعمرات . وكل ما تبقى كان استغلال الصناعة الصغيرة واستصغار فائض ما ينتجه الريف والحرفيون » . « وفكرة ان اقتصاداً اشتراكياً يمكن ان ينمو بجهوده الخاصة دونما استخدام موارد

البرجوازية الصغيرة ، بما فيها الاقتصاد الفلاحي ، فكرة رجعية ، وطوباوية برجوازية صغيرة . » وهذا التحليل يصبح أكثر امتاعاً لانه كان على ستالين في النهاية ان يتبناه ـ دونما القول بذلك ـ في تقرير للجنة المركزية في ٩ تموز (يوليو) ١٩٢٨ ليبرر السياسة الجديدة التي كان يقترحها على الحزب . وبدأ مثل هذا التحليل في ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ انه يحتمل المساومة على تحالف العمال والفلاحين الذي قامت عليه النيب . وهذا هو السبب في أن أفكار بريوبراجنسكي ، تلك الأفكار التي تبناها تروتسكي والمعارضة جرت مكافحتها ونبذها . وبعد تقرير تروتسكي الى المؤتمر الثاني عشر سأله كراسين (مفوض الشعب للتجارة الخارجية) سؤالاً كان على التأريخ أن يبرزه بشكل خاص ، « هل وضع تروتسكي في الحساب جميع العواقب لهذا التحليل للتراكم الاشتراكي البدائي ؟ » وكان جواب تروتسكي فظاً ، وكان ثمة سبب جيد لهذا ، لانه كي ينجز بسرعة ووحشية كان ينبغي توجيه الارهاب ضد الفلاحين ـ هذا ما كان بالتحديد يجب ان يحدث في ١٩٢٩ ـ ١٩٣١ . وفي الحقيقة ان التراكم الاشتراكي البدائي كان ضرورة للاتحاد السوفييتي في ١٩٣٣ ، آخذين في الاعتبار حالة اقتصاد البلاد في ذلك الزمن ، وعلى أية حال ، يمكن أن يكون بطيئاً حسب ـ ما لم يكن على حساب الفلاحين (وليس الكولاك فقط) ، وهذا ما خاف منه لينين وانتقده بعنف في الأشياء الأخيرة التي كتبها ، والتي أخذها بوخارين في كتاباته لـ ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ . وبدا ان بناء الاشتراكية كان سيأخذ « عقوداً » .

ودعونا نلاحظ في الحال الحقيقة وهي ان هذا الوضع لا علاقة له بوضع البلاد المتطورة الكبيرة في السبعينات لان التراكم الاشتراكي البدائي لن يكون ضرورياً هناك ، فقد أنجز التراكم الرأسمالي البدائي قبل ما يزيد على القرن .والآن ، نشأت ظاهرة ستالين الى حد بعيد من الظروف التي حقق ستالين خلالها التراكم الاشتراكي البدائي ، أي من العجلة التي تمّ بها التصنيع وتجميع الأرض ، ومن الارهاب الذي نتج عنها ، والذي وجه أولاً ضد الفلاحين

ومن ثم ضد الحزب . ان القاعدة الموضوعية لظاهرة ستالين لا توجد بأية طريقة في فرنسا المعاصرة ، مثلاً ، حيث مستوى القوى المنتجة عال بالفعل . وهنا على وجه التحديد نحن مدركون للمدى الذي لم تكن فيه هذه الظاهرة نتيجة للاشتراكية ، بل للظروف التي تطورت فيها في وضع تأريخي محدد جداً ، وضع الاتحاد السوفيتي وفي فترة ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠ ، للظروف التي يجب مقارنتها مع الظروف الأخرى المختلفة ، مثلاً الظروف المتعلقة بفرنسا في السبعينات .

وباختصار ، كانت ظاهرة محدودة بمعايير الزمان والمكان ، ولم تكن ضرورة تأريخية تنطبق بشكل عام على الاشتراكية ، سواء في ذلك ماضيها وحاضرها ومستقبلها . وكان الكفاح ضد الكولاك مرتبطاً بالتصنيع والتخطيط . ولم يتساءل أحد عن الحاجة لمكافحة الكولاك ، ولا حتى بوخارين . وكانت القضية هي كيف يتم هذا دون تعريض « تحالف » الفلاحين والعمال الى الخطر ، وضمن حدود النيب . وكانت هذه المسألة هي التي أثارت المناقشة والنزاع . فالمعارضة دعت الى اجراءات أكثر قوة ضد الكولاك (وبخاصة في حقل الضريبة) . وتردد الحزب لسنوات عديدة ومن ثم نبذ هذه الدعوات . وعلى أية حال ، قرر أخيراً ، المؤتمر الخامس عشر في ١٩٢٧ اتخاذ خطوات ضد الكولاك ، بعد تقرير دقيق جداً من مولوتوف ، بينما قرر في الوقت نفسه تعجيل التصنيع واعداد الخطة الخمسية الأولى . وأشار مولوتوف الى ضرورة عدم الخلط بين الفلاحين المتوسطين والكولاك . ان الزراعة الجماعية سوف تتطور ببطء وفقط على أساس انه سيجري تبنيها بحرية . وكان ما حدث هو العكس تماماً .

والقضية الثالثة الكبرى التي أثيرت في المناقشة التي حدثت في فترة ١٩٢٣ ـ ١٩٢٧ كانت قضية الديمقراطية . اذ دعت المعارضة الى الديمقراطية داخل الحزب ، مع ان هذا كان في معنى من المعاني موقفاً غير متسق لانها أنكرتها على الآخرين ، وبشكل خاص« معارضة العمال » ، في الماضي

القريب . وهذا ما جعلهم يقررون التراجع . وكانت مسألة تحريم الكتل مسألة دقيقة . فالسماح بالكتل كان ترويضاً للشيطان ، اي خلق ظروف يمكن أن تؤدي الى الانشقاق في الحزب . وكان على المناقشة الحزبية الداخلية ان تستمر بحرية ، ولكن دونما تبلور الآراء المختلفة في كتل ، بحيث تخلق بنى من المحتمل ان تولد حالة من الضعف والتمزق . والهامش بين الاثنين كان ضيقاً ، ويزيد في ذلك ان أقل ما يقال في سياسات ستالين العملية انها لا تميل الى توسيع الديمقراطية . وقد استخدم منصبه ، كسكرتير عام للحزب لتأسيس نفوذه بشكل حتى أكثر متانة بوساطة ازالة أعضاء المعارضة ـ وأعضاء المعارضة المحتملة ـ من مراكز صناعة القرار عن طريق منحهم مراكز في الخارج أو في أطراف الاتحاد السوفيتي . وساند معظم البلاشفة ستالين الذين اعتبروه واحداً من أكثرهم تواضعاً وقدرة على قيادة الحزب في هذه الفترة الصعبة . وكان على أغلبهم ان يموتوا بأمر منه في الثلاثينات ، غير انه لم تكن ثمة طريقة للتنبؤ بهذا آنذاك .

ومنذ صيف ١٩٢٣ اتخذ زينوفييف المبادرة للدعوة لاجتماع سري في قبو في كيسلوفودسك ، وهي واحدة من أجمل مدن المنتجعات المعدنية في القفقاس ، بهدف الحد من سلطة ستالين بتحويل السكرتارية الى هيئة سياسية . وشارك في هذا الاجتماع بوخارين وغوروشيلوف وعدد آخر من الشخصيات القيادية ، ذلك الاجتماع الذي تصور اقامة سكرتارية مؤلفة من ستالين وتروتسكي وزينوفييف (أو كامينيف وبوخارين) . وقد أخبر أورجرنيكيدزه ستالين بذلك فأحبط المناورة . وفي عام ١٩٢٥ كان للحزب ٢٥ ألف عامل متفرغ ، كان ٧٦٧ منهم ملحقين بمقر اللجنة المركزية . وكان قسم اللجنة المركزية لتعيين الكادر يسيطر على تعيين القادة ، فمثلاً ، كانت تعيينات قدرها ١٣,٢٧٧ قد تمت بين المؤتمرين الثالث عشر والرابع عشر . وفي ١٩٢٤ اندمج القسمان المتعلقان بتنظيم الكادر وتعيينه ليشكلا قسماً واحداً . وبالتدريج فقدت المعارضة ـ التي ضمت علاوة على ذلك أعضاء

متقلبين ـ كل وسائل التعبير ومواقع المسؤولية . ومعاقلها ـ للجيش الأحمر مع تروتسكي .والجامعات ، منظمة الحزب في لينينغراد مع زينوفييف ومنظمة موسكو مع كامينيف ـ جرى تطهيرها . وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥ فقد تروتسكي منصبه كمفوض الشعب لشؤون الحرب ، ولكنه لم يفقد منصبه كعضو في المكتب السياسي . واستمر زينوفييف وكامينيف اللذان ابتعدا بعض الشيء عن ستالين ، يعارضان حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٥ تروتسكي الذي كانا يريدان ازاحته من المكتب السياسي في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥ .

وفي المؤتمر الرابع عشر بدأ كامينيف يتلوه زينوفييف في نقد ستالين . فقد كامينيف منصبه كعضو كامل في المكتب السياسي ، الا انه بقي عضواً احتياطياً ، وحل مكانه في موسكو اوغلافوف (الذي أعدم فيما بعد بأمر من ستالين) ، بينما أزيح زينوفييف من قيادة الحزب في لينينغراد وحل محله كيروف . وقد عزلت المعارضة داخل الحزب وفي البلاد . ولم تكن تستطيع الاعتماد الا على تأييد عدة الاف من الشيوعيين . وعلى الرغم من القرارات التي أخذت في المؤتمر العاشر ، فانهم حاولوا تنظيم كتلة . واستطاع ستالين ان يلف نفسه براية وحدة الحزب والاشتراكية في بلد واحد وان يقضي عليهم .

وفي اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢٥ كان تروتسكي قد أزيح من المكتب السياسي وفقد زينوفييف منصبه كرئيس للأممية الشيوعية . وبعد محاولات لتنظيم مظاهرات منفصلة بمناسبة الذكرى العاشرة لثورة اكتوبر ، طرد من الحزب كل من تروتسكي ، كامينيف ، سميلغا ، راديك ، بياتاكوف ، لاشيفتش وراكوفسكي . وانتحر يوغه احتجاجاً على طرد تروتسكي .(١٥) وقلبت صفحة في تأريخ الحزب الشيوعي السوفيتي . وكانت سلطة ستالين

١٥ـ كان السفير السوفييتي في برلين في ١٩١٨ بعد ان ساهم في مفاوضات السلام في بريست ـ ليتوفسك ، ومن ثم كان سفيراً في فيينا وطوكيو .

ونفوذه قد نموا بفضل هذه الأحداث ، وأرسيت قاعدتهما السياسية والايديولوجية بثبات كبير من جوانب عديدة .

ولم تظهر الديمقراطية داخل الحزب وفي البلاد قوية من هذه الأحداث ، ومما يزيد في ذلك أن المديرية السياسية للدولة (وهي المنظمة الأمنية التي حلت محل اللجنة الاستثنائية ـ المترجم) أصبحت تضطلع بدور متزايد باطراد فيها . ان قانون العقوبات في جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية الذي نشر في ايار (مايو) ١٩٢٢ ، نص على مبدأ « الجرائم ضد الدولة » . باعطاء (المواد ٥٧ ,٥٨ ,٥٩) تعريفاً لهذا المفهوم كان واسعاً بما فيه الكفاية بحيث يشمل أي نقد مكتوب أو شفوي لنظام الحكم السوفيتي أو الطريقة التي يعمل بموجبها . ومنذ عام ١٩٢٢ ، قرر السماح بترحيل الناس دونما محاكمة لمدة تصل ثلاث سنوات اذاشاركوا في نشاط مضاد للثورة ، ومنحت صلاحية القرار لـ « لجنة خاصة » في « مفوضية الشعب للشؤون الداخلية » ، التي اضطلعت المديرية السياسية للدولة بدور حاسم فيها .

وامتد اشراف المديرية السياسية للدولة ، بالتدريج الى معسكرات العمل ، والصحافة ، والأدب ، والسينما ، والمسرح ،وجميع الأماكن العامةوحتى الحزب نفسه . وهذه المديرية ذاتها اعتقلت سلطان ـ غالييف في حزيران (يونيو) ١٩٢٣ ، وكان بلشفياً تترياً أراد ان يخلق جمهورية تترية اشتراكية سوفيتية عظمى من الشعبين التركي والمغولي لاسيا الوسطى وجنوب اوكرانيا . وهي المديرية التي اعتقلت قادة اضرابات ١٩٢٣ وكذلك مجموعة « حقيقة العمال » ومجموعة « حقيقة الطبقة العاملة » . وفي اكتوبر (تشرين الأول) قررالمكتب السياسي اجبار أعضاء الحزب على ابلاغ المديرية السياسية للدولة بأية نشاطات معادية للحزب كانوا على علم بها . كان هذا طريقاً خطراً جداً ـ لانه ، أين كانت تبدأ النشاطات المعادية للحزب ؟ ومن يستطيع أن يقرر ذلك ؟ ـ فتح الباب أمام الكثير من التطرفات والأخطاء والجرائم .

وكانت هذه المنظمة (المديرية السياسية للدولة) هي التي أغارت في ايلول (سبتمبر) ١٩٢٧ على الصحافة التي كانت المعارضة تطبع فيها بيانها(١٦) الى المؤتمر الخامس عشر . وكانت قد «اخترعت» الحرس الأبيض ، الذي قاتل تحت قيادة رانغل ، لتوفر دليلاً مصطنعاً على التواطؤ بين البيض والمعارضة . وكان على ستالين ان يعترف فيما بعد ان هذه كانت «غلطة اقترفتها «المديرية السياسية للدولة» . وفي الوقت نفسه ، شن حملة من الافتراء ضد أعدائه في الداخل . وهكذا ، أعلن في ١٩٢٧ ان «جبهة موحدة من تشامبرلن الى تروتسكي» قد تشكلت . وفي ١٩٢٣ ذكر كريلينكو للمرة الأولى التهديدات الاجتماعية وجريمة «التهديدات للمجتمع» . وفي تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٤ شددت مبادئ قوانين العقوبات للجمهورية السوفييتية على الحاجة الى «اجراءات للدفاع عن المجتمع» ضد المجرمين المذنبين بالعمل ضد أسس النظام السوفيتي . وكما نصت المادة ٢٢ فان أي امرئ يشخص على انه «تهديد للمجتمع» يمكن ان يحرم من العيش في مكان معين ويرحل من مكان الى آخر ؛ ويشكل هذا تأسيس العقوبة الوقائية ، وكان اجراءاً اعتباطياً جداً ـ فأي امرئ يمكن ان يعلن عنه باعتباره تهديداً للمجتمع . وكريلنيكو المدعي العام لجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية (وأحد ضحايا ستالين في المستقبل) ، كان قد أسس نظام «المعزولين» لـ «الأعداء الطبقيين» .وفي تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٤ شرّعت اللجنة التنفيذية لسوفيت جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية قانون العمل الاجباري . واستناداً الى الأرقام الرسمية ، التي كانت دون شك أوطأ من الأرقام الحقيقية ، كان هناك ١٨٥ ألف مرحل في عام ١٩٢٧ . وتقول مذكرة من كراسين الى تروتسكي (تسلمها في ٢ حزيران (يونيو) ١٩٢٤ في أثناء

---

١٦ ـ لقد منعت اللجنة المركزية نشره انسجاماً مع القرارات حول الكتل ، تلك القرارات التي اتخذت في المؤتمر العاشر .

اجتماع للجنة المركزية واحتفظ بها في أرشيف تروتسكي ويقتبس منها كار)(١٧) ان السجناء استخدموا في بناء السكك الحديد . وهكذا ، فان المديرية السياسية للدولة (التي أصبحت المديرية السياسية الموحدة للدولة بعد تأسيس الاتحاد السوفيتي) أصبحت بالتدريج تستخدم ضد الشيوعيين أكثر مما تستخدم كسلاح في النضال ضد الخصوم المباشرين للسلطة السوفيتية . وفي عام ١٩٢٧ ، وجد هذا الاتجاه بوضوح تام ، ولكن عواقبه كانت ولا تزال محدودة . وعلى الرغم من ذلك ، شكل خطراًجدياً كامناً ، ومما يزيد في ذلك ان الناس الذين جُنّدوا في المديرية السياسية للدولة خلفوا الكثير مما يرغب فيه من وجهة النظر الثورية ان البلاشفة القدامى (الذين شاركوا في الثورة والحرب الأهلية) قد استعيض عنهم بعناصر ذات قيمة ملتبسة في أغلب الأحيان .

وهذا الوضع لم يسهل النضال ضد مظاهر البيروقراطية . ولم تكن ماكنة الدولة قد تغيرت بدرجة هامة ، وقد كثر عدد الموظفين المدنيين . وقد ازداد سوءاً التنافس بين الحزب والدولة . ففي ١٩٢٨ كان ٣, ٣٨ في المئة من أعضاء الحزب يعملون في الحزب أو في الجهاز الاداري للدولة . ومن الجهة الأخرى ، كان في المناطق الريفية (٢٠٠) ألف شيوعي فقط ، وكان نصفهم فقط فلاحين حقيقيين . والزيادة في عضوية الحزب ـ ارتفعت من ٤٧٢ الى ٣٠٤, ٧١ ,١ في فترة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٧ ـ وجعلت من الممكن تحقيق زيادة هامة في نسبة الأعضاء المنحدرين من الطبقة العاملة ، ولكن نتيجة لذلك كان ثمة تغير نوعي في تركيب الحزب . وانحسرت أهمية البلاشفة القدامى . وكانت الأغلبية العظمى من الأعضاء الجدد من العمال الفتيان ذوي الأصل الفلاحي . وبذل الحزب جهده لامداد هؤلاء بتدريب أساسي في الماركسية . وكان هذا هو هدف المحاضرات التي ألقاها ستالين في أكاديمية سفيردلون ونشرت فيما

١٧ـ الاشتراكية في بلد واحد ، المجلد ٢ ص ٤٤٧ .

بعد بطبعات من ملايين النسخ : «أسس اللينينية» . وبرهن ستالين على انه كاتب شعبي موهوب استطاع ان يقدم الأفكار الرئيسة للبلاشفة التي كانت سليمة من الناحية التعليمية وجعلها في متناول الكثيرين من الناس . وفي الوقت نفسه ، كانت «أسس اللينينية» أساساً مغرياً بصورة مرعبة للجمود العقائدي اذا ما عوملت على انها عمل من أعمال البحث النظري . وفي خلال العشرينيات ، نجح الحزب ـ ضمن الحدود التي فرضتها دكتاتوريته ـ في ان يقوم في الوقت ذاته بكل من الدعاية الجماهيرية المطلوبة لتعليم الجماهير التي لاتزال غير مثقفة مبادئ أولية قليلة والبحث النظري العالي المستوى .

فعلى سبيل المثال ، في الفلسفة كانت مجلة «تحت راية الماركسية» ، وفي التأريخ كان هناك تأريخ روسيا لبروكوفسكي ؛ وفي هذه الحقول وكذلك في الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع ، أظهر علماء الاجتماع السوفيت قدرة حقيقية .

ان رفض الحزب ان يتدخل في المناقشات حول الأدب ، وهو درجة من الحرية للخلق الأدبي ، وكذلك في السينما والمسرح ، مع النهوض الثوري والتسهيلات المعطاة للفنانين المبدعين سمحت بازدهار العديد من الأعمال المتنوعة الموهوبة التي ترمز لها السينما في العشرينيات(١٨) .

ينبغي ان لا يضفى على هذه الفترة طابع مثالي حتى من هذه الزاوية . اذ لم تكن أمام الكتاب غير الشيوعيين سوى فرصة ضئيلة للتعبير عن أنفسهم ، وكان ولا يزال بعضهم يعيش في المنفى . وجرى النضال ضد الدين بطرق ، اذا أردنا قول الحقيقة ، غير مقبولة ، لانها هددت حرية الضمير والعبادة . والماركسية ، التي أصبحت فلسفة الدولة الرسمية ، جرى تعليمها بطريقة جامدة عقائدياً أكثر فأكثر . وهكذا ، فان أسس الستالينية وجدت بالفعل في زمن النيب ، وان لم تكن عواقبها الأكثر درامية وأشكالها الأكثر شراً .

١٨ـ مدرعة بوتمكين لايزنشتاين انتاجها الأكثر بروزاً .

وعلى الرغم من بعض الجهود لاعادة تنشيط السوفيتات في المستوى المحلي ، فان الحياة الديمقراطية تطورت بضعف ولم تحقق سوى تقدم بسيط في ١٩٢٧ . وعلى أية حال ، فان الوضع تردى ، مع ان الحرب الأهلية كانت قد انتهت منذ خمس سنوات . انه لحقيقة كما قال تروتسكي وفيما بعد ستالين ، كان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية «قلعةمحاصرة» . فالاتحادالسوفيتي كان لا يزال محاصراً ، وكان خطر الحرب ضده لا يزال قائماً ، وكان التآمر عليه مستمراً ،ولكن هذا لم يبررما كان يحدث ، وقبل كل شيء ، الافتقار المستمر والمتزايد للديمقراطية داخل الحزب ، وكان البلد يخلق وضعاً خطراً ، وقد جعلت البنى الاستبدادية اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية أكثر عرضة لشكل من السلطة أكثر دكتاتورية ودموية وفردية .

وسرعان ما ازدهرت ظاهرة ستالين .

- ٣ -

قضايا التصنيع والتجميع الزراعي

في ١٩٢٨ كان عدد من عناصر ظاهرة ستالين موجوداً بالفعل ؛ وبعضها كان موجوداً منذ الثورة أو الحرب الأهلية ، وظهر بعضها الآخر في أثناء فترة النيب . فالتقاليد (لروسيا القديمة المقدسة) ، والمؤسسات (الاقتصادية والاجتماعية والسياسية) ، والظروف التأريخية والرجال (دور ستالين وهزيمة المعارضة) ، اجتمعت كلها لتعميق التربة التي تغذت عليها ظاهرة ستالين . وكانت أحداث فترة ١٩٢٨ ـ ١٩٣٤ قد سمحت له ان يجعل حضوره محسوساً بطريقة ساطعة وان لم تكن كاملة ، وأسفرت عن معضلات ١٩٣٤ . وقد أقلقت الفلاحين القرارات حول النضال ضد الكولاك المتخذة في المؤتمر الخامس عشر . وشعر عدد كبير من الفلاحين المتوسطين ان هذه الاجراءات كانت موجهة ضدهم . والاجراءات من الناحية النظرية انطوت على زيادة في الضريبة على الأغنياء والغاء للضريبة على الفقراء ، وتكثيف المساعدة للمزارع الجماعية ومزارع الدولة ، ولم تعد تساعد الكولاك . وقد ذكّر ريكوف ، رئيس مجلس مفوضي الشعب ، شأنه في ذلك شأن مولوتوف ، الناس بالحاجة الى الحذر ، ولكن هذه السياسة نُفّذت بحيوية كبيرة . ولم يكن حصاد ١٩٢٧ جيداً جداً . وقام بالبقية القلق الذي ذكرناه ، والذي شجعه وحفزه أعداء نظام الحكم السوفيتي الكثيرون الذين كانوا لا يزالون موجودين في البلاد وكذلك

الكولاك . وكانت حصائل الانتاج فقيرة ، وفي الحقيقة كانت غير كافية بالمرة (٣٠٠) مليون بود جمعت في نهاية كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٧ (كان الرقم في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٦ هو ٤٢٨ مليوناً) . ان وثائق الأرشيف المركزية للحزب ، والتي استخدمها المؤرخ السوفيتي كونيوخوف (في «الحزب الشيوعي والنضال ضد المعضلات في المؤونة من الحنطة» موسكو ١٩٦٠) ، تظهر انه بسبب النقص المتنامي في الحبوب في بداية ١٩٢٨ تملك الرعب الحزب والقيادة . واعترف قرار اتخذه اجتماع اللجنة المركزية في نيسان (ابريل) ١٩٢٨ ان « أزمة اقتصادية عامة على النطاق الوطني » تهدد بالانفجار . وكان لديهم خيار واضح جداً ؛ اما التراجع في المستقبل القريب واما الاندفاع الى الامام ، والذي عنى اتخاذ اجراءات أكثر قسوة باطراد ضد الكولاك ، ولكن تضمن أيضاً ان الكولاك كانوا قد عزلوا عن الفلاحين المتوسطين جميعهم . وفي هذا المجال بالذات كان على عدم كفاءة الحزب ووجود البيروقراطية وضعف الحزب من الناحية العددية في المناطق الريفية ان تضطلع بدور هام . وأخذت الاجراءات القمعية والادارية الأسبقية تدريجياً على الحوافز الايديولوجية . وكان الحزب لبعض الوقت متردداً . وتراجع في بعض الأماكن ، واندفع الى الأمام في أماكن أخرى . وفي بداية ١٩٢٧ استخدمت المادة ١٠٧ من قانون العقوبات بوتيرة أكثر تكرراً ؛ وتنص هذه المادة على ان كل امرئ يحاول المضاربة يمكن معاقبته بالترحيل لمدة ثلاث أو خمس سنوات (ومصادرة ملكيته كذلك) . وقد أصابت هذه الاجراءات الفلاحين المتوسطين ، كما ورد في تصريح من مجلس مفوضي الشعب في ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٢٨ . واعترف باومان ، الموظف الحزبي المسؤول عن الشؤون الزراعية ان «الفلاحين المتوسطين انحازوا الى جانب الكولاك وتحولوا ضدنا» . ومن ثم حدثت تمردات الفلاحين . ودعا الحزب الى ايقاف السياسة التي كان يتبعها (اللجنة المركزية في تموز/ يوليو ١٩٢٨) ، ورفع سعر الحنطة ، وأدان الانتهاكات واشترى الحنطة من الخارج .

كان ستالين ، في الوقت نفسه ينتظر فرصة ملائمة . وفي خطاب القاه في اللجنة المركزية في ٩ تموز (يوليو) ١٩٢٨ ، تبنى موضوعة بريوبراجنيسكي لما دعاه «التراكم الداخلي» . وبما انهم لا يستطيعون نهب المستعمرات ولا اللجوء الى القروض الأجنبية ، فان التطور الصناعي لا يمكن أن يأتي الا من «التراكم الداخلي» . وكان على الفلاحين ان يدفعوا ثمن التصنيع . ومع وضع هذا الهدف نصب العينين «يدفع الفلاحون أسعاراً عالية للبضائع المصنعة . . . وتدفع لهم أسعار واطئة الى هذا الحد أو ذاك لقاء المنتوج الزراعي» . واذا استثنينا الضرائب (المباشرة وغير المباشرة) التي يدفعها كل امرئ ، فان الفلاحين خاضعون الى «أتاوة» . . . ضريبة اضافية ، نحن مضطرون الى جبايتها في الوقت الحاضر . «وأيد ستالين صورة المقص» (استخدمها تروتسكي في المؤتمر الثاني عشر) وهي صورة زيادة في أسعار المنتجات الصناعية ، وانخفاض في أسعار المنتجات الزراعية ، واعترف ان «المقص» لا يمكن ان يزال مرة واحدة (ستالين ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ١١ ، ص١٦٧) . وفي الحقيقة ان ستالين بما تميز به من عجلة ووحشية ، وفي الأغلب حتى دون استشارة الأجهزة الحزبية القائدة ، بذل جهوده لتبني اجراءات جديدة بالكامل والتي يمكن تلخيصها فيما يلي : تصنيع معجل باطراد وتخطيط ، وتجميع للأرض ـ ثلاثة جوانب لخطة واحدة . وكيما يجري التصنيع بسرعة أكبر ، كانت ثمة حاجة الى تخطيط مركزي شامل يفرض التركيز الضروري للموارد المنتجة (الرجال ، رأس المال ، المكائن) في قطاعات اقتصادية وجغرافية معينة . ومن ثم كان من الضروري تحويل الأرياف لتبعد نهائياً عن النفوذ الرأسمالي لتحقيق جبايات متزايدة من رأس المال . وهكذا كان على التجميع الزراعي ان يحدث . وكان على ظاهرة ستالين ان توسع القاعدة الأولية في أثناء العملية التاريخية نفسها . وان التأريخ يولّد التأريخ من الوضع الفعلي .

ويمكن أن نلاحظ أيضاً الى حد كبير ان ظاهرة ستالين انطلقت دائماً من

تحليل صحيح كثيراً ، ولكن أدت الى استنتاج متطرف نتيجة للوسيلة التي استخدمتها في تحقيق غاياتها . فمن كان يستطيع الجدال حول الحاجة الى التصنيع في عام ١٩٢٨ ؟ ومن كان يستطيع انتقاد مبدأ التجميع الزراعي في اقتصاد ومجتمع اشتراكيين ؟

والمناظرة التي حدثت في الحزب في ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ لم تكن ديمقراطية . وقد فرضت القرارات على الحزب والدولة ، وقد حدث ذلك لانه كان ممكناً ان يحدث . لقد وضع ستالين خصومه في مأزق قاسٍ : اما ان تدعموني واما انكم أعداء الحزب ، وأصدقاء الكولاك ، وضد تصنيع البلاد والتخطيط ، ولذلك ضد الاشتراكية . ووقع ما سمي المعارضة «اليمنية» في المصيدة بهذه الطريقة . وكان بوخارين أسرع من أدرك في ١٩٢٨ بوضوح الخط السياسي الذي كان ستالين ينوي اتباعه وعواقب هذا الخط . ونحن لا نقول ان طريقة بوخارين من ١٩٢٣ الى ١٩٢٧ في النظر الى النيب وتطبيقها كانت صحيحة دائماً . فبعد ان تخلص من أخطاء «الشيوعية اليسارية» التي اقترفها في ١٩١٨ بمعارضته معاهدة بريست ـ ليتوفسك ، نشأ لديه اتجاه للجنوح نحو اليمين ،ولكن يظهر ان مساعدة لينين الرفاقية سمحت له بان يتمثل ما قصد لينين ان ينجزه في السنوات التالية . ومما لا شك فيه انه لم يكن يمينياً تماماً في ١٩٢٩ ، غير انه أدرك جانباً حاسماً من القضية .

ان التصنيع المفرط العجلة ، وتجميع الأرض القسري ، والمركزة المفرطة في استبداديتها هددت تحالف العمال والفلاحين ،ووضعت الفلاحين المتوسطين ضد نظام الحكم وأجبرت الأخير على استعمال الارهاب ضد الشعب وضد الحزب نفسه . وكان هذا ممكناً بسبب غياب الديمقراطية ودرجة اضفاء البيروقراطية . وهذا هو السبب في ان بوخارين وأصدقاءه ريكوف (رئيس مجلس مفوضي الشعب) . وتومسكي (رئيس المجلس المركزي للنقابات) واوغلانوف (السكرتير المنطقي لموسكو) جادلوا ضد موضوعة بريوبراجنسكي حول التراكم الاشتراكي البدائي ، والتي أيدها تروتسكي .

وفي مقالات عديدة ظهرت في برافدا ، لخص بوخارين آراءه . والمقالات المعنية هي «ملاحظات اقتصادي» (٣٠ ايلول / سبتمبر ١٩٢٨) . «وصية لينين» (٢٤ كانون الثاني / يناير ١٩٢٩) ـ التي كانت نص الخطاب الذي ألقاه في موسكو بمناسبة الذكرى الخامسة لوفاة لينين ، و «لينين ومهمات العلم في بناء الاشتراكية» (٢٠ كانون الثاني / يناير ١٩٢٩) . واذا اتخذ بوخارين نقطة انطلاق له خمس مقالات نشرها لينين قبيل وفاته («صفحات من المذكرات» ، «ثورتنا» ، «كيف يجب ان نعيد تنظيم التفتيش العمالي والفلاحي» ، «حول التعاون» ، و «أفضل أقل شرط أن يكون أفضل») بيّن بشكل صحيح ان ما كان معنياً كان خطة شاملة وليس ملاحظات متفرقة ، وأضاف «الموضوعة الأساس للرفيق لينين لا تزال صحيحة بعمق ، ويجب ان تستمر في ان تكون الأساس النظري لتحديد خطنا التكتيكي الرئيس .»(١) وعلى أية حال ، ان بوخارين (الذي كان آنذاك رئيساً للأممية الشيوعية) اقترف خطأ كبيراً عندما نظر الى «استقرار الرأسمالية باعتباره دائماً» ، ومن وجهة النظر هذه كان تقييم ستالين للوضع أكثر دقة ، لان الأزمة الاقتصادية كانت ستنفجر في ١٩٢٩ . والاستنتاج الذي استخلصه ستالين من هذا كان يقول بان ثمة مخاطرة متزايدة في حرب ضد اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ،وهذا ما كان يزيد في تبرير التصنيع بـ «القوة الكاملة الى الامام» ، وان الأزمة الثورية يمكن ان تبرز في البلدان الرأسمالية المتطورة ، مما برر وضع نهاية لمحاولات المصالحة بين الاشتراكيين (أو الاشتراكيين ـ الديمقراطيين) والشيوعيين . تلك المصالحة التي دعا لها بوخارين . ويفسر هذا التوجه السياسي المواقف الانعزالية التي تبنتها الأممية الشيوعية والحزب الشيوعي الألماني في السنوات التالية . والحقيقة القائلة بأن الأممية الثانية والحزب الاشتراكي الديمقراطي يتحملان المسؤولية العظمى عن الوضع الذي

١ـ «وصية لينين السياسية» .

نشأت منه النازية والحرب العالمية الثانية لا يبرئ بأي طريقة الأممية الشيوعية وستالين . والاستنتاجات التي استخلصها ستالين من تحليله في أواخر١٩٢٨ حول كيف ستتطور الرأسمالية كانت زائفة ، ولكن مسلماته كانت صحيحة . وكانت لا تزال حقيقة ، كما قال بوخارين ، ان الاتحاد السوفيتي بقي ضعيفاً ، «وبالمقارنة مع أوربا وامريكا يبدو مستوى تطورنا واطئاً جداً ، نصف همجي .» ولكي يطور الاتحاد السوفيتي صناعته ينبغي ان يدعم «تحالف العمال والفلاحين» . وقد ذكّرت كروبسكايا الشعب بهذا بطريقة قوية في مقالة ظهرت في برافدا في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٩ بعنوان «لينين وبناء الكولخوزات» : «واعادة بناء حتى القاعدة الزراعية مهمة طويلة الأمد . فمن المستحيل تنفيذ اعادة تنظيم جذرية للزراعة من فوق .» وأضافت انه «كان جنوناً ولم يكن ثمة شيء أكثر غباء من العمل بتلك الطريقة» .

واذا كانت الحال هذه ، كان يجب تمويل التصنيع ؟ وكان جواب بوخارين : «قبل كل شيء بالحد من نفقاتنا غير الاستهلاكية الى الحد الأقصى ، وهي في الحقيقة ضخمة في بلدنا ، وبرفع انجازاتنا في مؤشرات النوعية ، وأولاً الانتاجية» ؛ ولذا يجب ان لا يكون «اصدار للأوراق النقدية ، ولا تصفية الموجودات ، ولا افراط في الضريبة على الفلاحين» . وكانت هذه الطريقة بطيئة ، وستالين متعجل ، ولكن كان على المستقبل ان يظهر ، اذا تكلمنا من الناحية التأريخية ـ إن أقصر الطرق بين نقطتين ليس بالضرورة الخط المستقيم ، آخذين في الاعتبار النتائج التي أسفرت عنها هذه الطريقة السريعة .

وأشار بوخارين الى ان الطريق الذي اقترحه كان الطريق الوحيد «الذي يكون بوساطته التطور الاقتصادي والتراكم الاشتراكي قاعدة متينة ومعافاة حقاً ، من وجهتي النظر الاقتصادية والطبقية . . . ولذا فان على سياسة التصنيع ليس ان لا تؤدي الى القطيعة مع الفلاحين حسب ، بل وعلى النقيض ان تعزز التحالف معهم .» وليس ثمة شيء ، لا الأزمة الاقتصادية ولا خطر الحرب ، ولا

آمال الثورة في اوربا ، يمكن ان يغير أساس هذه السياسة ، لان تغييره كان يعني النضال ضد الفلاحين الذين كانوا يمثلون ٨٥ في المئة من السكان ، والانحدار على الطريق المؤدي الى الارهاب الواسع ضد الشعب . وهذا ، بالطبع ، كان أحد العناصر المكونة الرئيسة لظاهرة ستالين ـ وأعاد بوخارين باستمرار الى الأذهان ملاحظات لينين حول التعاون والثورة الثقافية : « الثورة الثقافية ضرورة لانجاز خطة العمل التعاوني . . . ولينين يعلمنا انه يجب ان نجعل الفلاح يتبع مصلحته الخاصة ، وعلى هذا الأساس يجب ان يقاد الى الاشتراكية عبر التعاون ، ولكي يقود التعاون الى الاشتراكية يجب ان يكون متحضراً . « وأشار بوخارين الى ان « على الطبقة العاملة مهمة تحويل طبقة الفلاحين باستمرار ، مهمة اعادة تكوينها على صورتها هي ، بدون ان تصبح منفصلة عنها » . « ان الجيش الأحمر المتكون الى حد كبير من الفلاحين هو أحد أكبر الأجهزة الثقافية الممكنة لتحويل الفلاح الذي سوف يترك صفوفه بعقلية جديدة . » « ان الثورة الثقافية عنت تحويل عقلية الفلاح . ذلك التحويل الذي لم يكن ممكناً الا بالتعليم وتقديم القدوة . وكل هذه المهمات تفترض مسبقاً تقليصاً في حجم ماكنة الدولة وتحسيناً لعملها يقوم على « الاشتراك الحقيقي للجماهير الفعالة »(٢) وأصر بوخارين في مقالته « لينين ومهمات العلم » على الحاجة الى الادارة العلمية للاقتصاد . التي كان يفتقدها بحدة ،وعلى الحقيقة الماثلة في انه لانجاز هذا كان عليهم ان يتعلموا من الغرب . وفي « ملاحظات اقتصادي » انتقد مشروع « التصنيع المفرط » من دون احتياطيات « ان سياسة كانت مقرونة باستمرار بنقص الاحتياطيات سوف تكون قريبة من المغامرة » وشجب كل محاولة لـ « استعمال القوة ضد الفلاحين » .

٢ـ جميع هذه الاقتباسات من مقالة بوخارين « وصية لينين السياسية » .

كان ستالين يستطيع الاعتماد على تأييد واسع في معركته مع بوخارين . ففي المكتب السياسي واللجنة المركزية كان يتمتع بالأغلبية ، شرط ان لا يذهب بعيداً ، وهذا بالضبط ما نوى فعله . وعدم كفاية تطور الديمقراطية داخل الحزب والبلاد اضطلع بدور هام في النضال الذي كان يبدأ ، لأن المناظرة ـ في أحسن أحوالها ـ شقت طريقتها في مستوى القيادة . ومن ثم بحث ستالين ، شأنه شأن بوخارين ، عن تأييد المعارضة التي سحقها كلاهما منذ أشهر قليلة حسب . واتصل بوخارين بسوكولينكوف ومن ثم بكامينيف . وحسبما يقول دويتشر (تروتسكي ، المجلد ٢ ، ص٤٤) ان محاضر هذه المحادثات موجودة في أرشيف تروتسكي . وأعرب بوخارين عن قلقه حول الطريقة التي كان نظام الحكم يتطور بموجبها . والموضوعة التي عبر عنها في ٩ تموز (يوليو) ١٩٢٩ . والتي تقول « كلما تقدمنا ازدادت مقاومة العناصر الرأسمالية ، وأصبح الصراع الطبقي أشد مرارة . . . » بدت له انها تحمل معها خطر القمع الواسع ، خطر ارهاب جديد . وفي البيان الذي تقدم به بوخارين (مع ريكوف وتومسكي) الى المكتب السياسي في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٩ ، شجب الافتقار الى القيادة الجماعية والحقيقة القائلة بان « الحزب لا يساهم في حل هذه القضايا . » و « أضاف كل شيء تقوم به القمة » . « اننا نعارض ان تحل محل السيطرة الجماعية سيطرة شخص واحد مهما كان النفوذ الذي يتمتع به » (اقتباس أورده رودزوتاك في المؤتمر السادس عشر ، الصفحتان (٢٠ ـ ٢١ ؛ وأورجونيكيدزه ص٥ ـ ٣٢) . واستناداً الى كامينيف استمر بوخارين : « لن يتوقف ستالين عند شيء . . . وسوف يكون مضطراً لاغراق التمرد بالدم . . . سوف يذبحنا ، سوف يخنقنا . . . وجذر الشر ان الحزب والدولة اندمجا اندماجاً كاملاً . . . انه متآمر لا مبدئي يخضع كل شيء لشهوته الى السلطة . . . وهو يعرف فقط الانتقام والطعن في الظهر . . . انه جنكيز خان الجديد » (تروتسكي بقلم دويتشر ، المجلد ٢ ، الصفحتان ٤٤١ ـ ٤٤٢) .

وإذا تركنا جانباً دوافع ستالين ـ ينبغي ان تقوم حولها مناظرة ـ فقد أكد

التأريخ بصورة درامية هذه الكلمات . وبالنسبة لستالين ، تقدم أيضاً باقتراحات متكررة الى المعارضة . وحتى سمح بأن يعرف انه يعتقد ان تروتسكي لم يغادر «ميدان الايديولوجية البلشفية» ، وكان هو ستالين ، ينتظر فقط الفرصة الى موسكو(٣) (تصريح تقدم به ستالين الى شيوعي آسيوي ، واقتبسه دويتشر في المصدر السابق ، المجلد ٢ ، ص٤٤٣) . وبدت سياسة ستالين بالنسبة لأغلب التروتسكيين ، انها تمثل حركة نحو اليسار . وهكذا ، حسب رأي بريوبراجنيسكي ، بياتاكوف ، وراديك ، انهم ينبغي ان يدعموا ستالين ضد بوخارين وكان هذا الأخير قد تنبأ بهذه الرجعية . فقد قال لكامينيف : «إن الأشياء التي تفرق بيننا أقل جدية من تلك التي تفصلنا عن ستالين . وما هو مطلوب ، قبل كل شيء ، هو استعادة تأسيس الديمقراطية داخل الحزب .» ولكن هذه لم تكن الطريقة التي رأت فيها المعارضة الأشياء .

وتروتسكي وحده رفض أن يؤيد ستالين . ونتيجة لذلك ، فقد طرد من الاتحاد السوفيتي في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٩ ، لانه جعل اعادة تأسيس الديمقراطية الحزبية الداخلية شرطاً لتأييده . ولم يكن ستالين يميل الى ذلك . وفي الوقت نفسه استمر تروتسكي على القول «ان البوخارينيين اليمينيين بقوا أعداءه الرئيسين» .

وبينما كانت الأحداث تسيء الى سمعة المعارضة التي تزداد انقساماً ، قلصتها من حيث وجودها الى طوائف ، غير متسقة في تحليلاتها في أغلب الأحيان . فمثلاً ، شجب تروتسكي انتصار الخط الحزبي الرسمي باعتباره «ثيرميدور جديد» .(*) حسناً ، كان ستالين في هذه اللحظة يتحدث عن

٣ـ كان تروتسكي آنذاك في المنفى في الما ـ آتا .

* ثيرميدور وفق التقويم الثوري (الثورة الفرنسية) هو شهر الحرارة الذي يبدأ في ١٩ تموز / يوليو وينتهي في ١٧ آب (اغسطس) .

سحق الكولاك ورجال النيب ، وكان هذا هو الشيء المعاكس تماماً لثيرميدور . واستمرت المناظرة في اللجنة السياسية واللجنة المركزية من ١٩٢٨ إلى شباط (فبراير) ١٩٢٩ . وفي هذا التأريخ أخرج بوخارين من منصبه في الكومنتيرن وبرافدا ، وتومسكي من عمله في النقابات السوفيتية ، ولكنهما بقيا عضوين في المكتب السياسي . كما بقي ريكوف (الذي كان لايزال رئيساً لمجلس مفوضي الشعب) . وفي شباط (فبراير) ١٩٢٩ قررت أغلبية أعضاء اللجنة المركزية أن تتحرك ضد الكولاك ، وان تفرض تخطيطاً حقيقياً وان تعجل التصنيع . ولم تشك بما كانت تنطوي عليه هذه القرارات من عواقب مأساوية بالنسبة للاتحاد السوفييتي . وبالنسبة للحزب ولها ، بما ان عدداً من أعضائها ترتب عليه ان يهلك مأساوياً في الثلاثينيات ـ أربعة أعضاء في المكتب السياسي من بين تسعة أعضاء (بوخارين ريكوف ، تومسكي ورودزوداك) . وأربعة من بين ثمانية مرشحين للعضوية (كيروف ، كوسيور ، اوغلاتوف وتشوبار) ، أي ثمانية من سبعة عشر .

وعلى أساس القرارات المتخذة في شباط (فبراير) ١٩٢٩ ، قام الاتحاد السوفيتي بتغيير جذري في سياسته الاقتصادية ، ذهب أبعد مما ذهبت اليه قرارات المؤتمر الخامس عشر واللجنة المركزية . وكانت حصيلة الحبوب في شتاء ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ سيئة جداً بسبب التخريب الذي قام به الكولاك ، والمضاربة ومخاوف الفلاحين المتوسطين . وهكذا أصبح من الضروري البدء بتخصيص المؤن من المنتوج الزراعي . وتبنى الكونفرنس السادس عشر المنعقد في نيسان (ابريل) ١٩٢٩ الخطة الخمسية الأولى . وكانت قد وضعتها الدوائر التابعة الى لجنة التخطيط (Gosplan) التي كانت تضم عدداً من الاقتصاديين ذوي المؤهلات العالية ، وأغلبهم من المناشفة أو الاشتراكيين الثوريين[٤] (مثلاً ، كوندراتييف ، بازاروف وغرومان) ، وجرى الدفاع عن

٤ـ أصر المجلس الأعلى للاقتصاد الوطني على تبني أهداف أعلى من الأهداف التي نصت عليها لجنة التخطيط . وأخذ الكونفرنس السادس عشر هذه الزيادات في الاعتبار .

صيغتين في الأصل ، واحدة متفائلة وأخرى متشائمة . وبمبادرة من المكتب السياسي قرر تبني الصيغة المتفائلة (١٨١ في المئة زيادة في الانتاج الصناعي . و١٨٣ في المائة زيادة في الدخل الوطني) . وتتنبأ الخطة بنمو القطاع التعاوني وقطاع الدولة في الزراعة . وفي الشكل الأكثر أولية من التعاونيات (tozy) (مجموعات من الناس للعمل في الأرض حيث يكون جزء فقط من الأرض والمعدات الثقيلة مشتركاً ، ولكن الملكية الخاصة تستمر) كانت المزارع الجماعية تمثل ٢٣ مليون هكتار ، أي ما مجموعه ١٧,٥ في المئة من الأرض المبذورة بالحنطة في ١٩٣٣ (٤٣ في المئة من الحنطة يعرض في السوق) . حسناً ، على الرغم من قرارات الكونفرنس السادس عشر والوعود الرزينة التي قدمها ستالين ومولوتوف ، فان التعجيل المطرد في رفع أهداف التصنيع وتجميع الأرض يمكن ملاحظتهما في سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٠ . وارتفع عدد المزارع الجماعية منذ منتصف ١٩٢٩ . ففي بداية تشرين الثاني (نوفمبر) كان هناك (٧٠) ألفاً من هذه المزارع تضم حوالي مليوني أسرة وتمثل حوالي ٧,٦ في المئة من الأرض المزروعة . وهذا أكثر بكثير من عام ١٩٢٨ (أكثر بمقدار ٤ في المئة) ولكنه لا يزال رقماً غير كبير جداً ، خصوصاً اذا وضعنا في الاعتبار انها كولخوزات صغيرة وأن ٦٢,٤ في المئة منها كانت (Tozy) . و ٣٠,٨في المئة فقط كانت (ertls) حيث كانت ملكية الأرض جماعية حقاً (ولكن في شكل تعاونية) و ٦,٩ في المئة كومونات (Kom-muna) (٥) (حيث تكون الملكية كلها عائدة الى المزرعة الجماعية) وكان الانضمام الى المزارع الجماعية طوعياً من حيث النظرية .

وسعت قيادة الحزب الى خلق كولخوزات كبيرة ، وفي بعض المناطق تم تحقيق درجة عالية من التجميع الزراعي (١٩ في المئة في القفقاس الشمالية و ١٤ في المئة في اوكرانيا) ، وحتى تشرين الثاني (نوفمبر) بقيت الضغوط

---

٥ ـ كانت هذه «الكومونات» هي البشائر بالكومونات الشعبية الصينية .

للتأثير التي قامت بها السلطات غير مباشرة في أغلب الحالات ، وواجه الكولاك بناء الكولخوزات بمقاومة مسلحة بعض الأحيان .

إن المعلومة التالية توجد في أرشيف سمولينسك : المنطقة الغربية تقرير المديرية السياسية العامة للدولة لسنة ١٩٢٩ : منطقة اوكراغ التابعة لبريانسك في ليلة الأول على الثاني من تشرين الأول (اكتوبر) في ناحية ترايتشيفك جرح جرحاً بالغاً رئيس سوفييت قرية خيلفيفسك بطلق ناري . . » وفي اليوم السابق ، كان سكرتير السيلوسوفيت قد تعرض لهجوم . وفي منطقة اوكراغ من فيليكي لوكي ، في قرية سموروودوفنيك ، في ناحية تسيفيلسك ، اغتيل سكرتير سيلسوفييت في ٢٩ آب (اغسطس) الخ . وهذه الهجمات ضد أنصار التجميع بلغت الآلاف في سنة ١٩٢٩ . وفي المنطقة الغربية ، وقع ٣٤ عملاً ارهابياً في تموز (يوليو) وآب (اغسطس) ، و٤٧ عملاً في تشرين الأول اكتوبر (١٨ ضحية من الضحايا كانوا رؤساء سيلسوفييت و ٨ سكرتيرين) . وفي تشرين الأول (اكتوبر) اعتقل ١٢٢ شخصاً عن هذه الجرائم ، نصفهم من الكولاك ، والنصف الآخر من الفلاحين المتوسطين أو الفقراء .

ومع انه قد قدمت التقارير حول الصعوبات التي واجهتها الكولخوزات ، منذ حزيران (يونيو) ١٩٢٩ فان المركز الكولخوزي (المركز الاداري للكولخوزات) اقترح ان تتوصل الكولخوزات الى زراعة ٨ ملايين هكتار في عام ١٩٣٠ . (بين آب / اغسطس وتشرين الثاني / نوفمبر قرر في دفعات متتالية زيادة هذه الأرقام الى ثلاثين مليون هكتار .) ودونما انتظار لاجتماع اللجنة المركزية في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ، الذي كان عليه ان يواجه الأمر الواقع ، نشر ستالين مقالة مصحوبة ببرنامج أعلن تجميعاً زراعياً واسعاً : «سنة التغيير العظيم» . ولنشر بصورة عابرة الى ان المقالة كانت قد نشرت بعد أسبوعين من تحطيم وول ستريت الذي كان علامة البداية على الأزمة الاقتصادية الرأسمالية الكبرى لعام ١٩٢٩ . واعتقد ستالين انهم في خلال ١٩٢٩ كانوا شهوداً على تغيير حاسم لان الصناعة تقدمت كما لم تتقدم مطلقاً

في السابق . ولم يكن هذا حقيقة . لقد حدث تقدم حقيقي ولكن ليس حاسماً . آخذين في الاعتبار انه لم يكن أكبر من التقدم الذي تحقق في السنوات السابقة . وفيما يتعلق بـ «اعادة الاصطفاف الجذرية بين الفلاحين» ، التي كان ستالين فخوراً بها ، لم تكن موجودة الا في ذهنه ، كما تؤكد بوضوح الأعمال الكاملة التي حررها دانيلوف ،والتي ظهرت في الاتحاد السوفيتي في ١٩٦٣ (النصوص الكاملة حول تأريخ تجميع الأرض في الجمهوريات السوفيتية)(٦) . وبدءا بتشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٩ فصاعداً ، جرى التجميع في الحقيقة بطريقة استبدادية وبيروقراطية ، باستخدام الاجراءات الادارية ، والعنف غالباً . وأعرب مولوتوف في تقريره الى اللجنة المركزية في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٩ عن رضاه عن النتائج ، واقترح انه ينبغي ان يكتمل التجميع في بعض المناطق بنهاية ١٩٣٠ . ولم تكن اللجنة المركزية متحمسة ، ولكنها لم تجرؤ على التراجع عن قراراتها ، لان هذا الفعل كان سيعني اعترافاً بان بوخارين كان على صواب وان ستالين كان على خطأ . وأقنعت نفسها بتأليف لجنة دائمة لابقاء المسألة قيد المراجعة والدرس ، وكانت هذه طريقة للحد من الضرر .وأعلن مولوتوف ، الذي اعتبر رغائبه واقعاً : «ان الريف ينقلب رأساً على عقب ، وفي الحقيقة تحول الى بحر يغلي» ، ولكن هذا الهياج كان نتيجة لارادة الحزب أكثر منه لارادة الفلاحين . ولم يكن الحزب يتحدى الكولاك وحدهم ، الذين ردوا بضراوة ،ولكن كما تنبأ بوخارين ، كان عليه ان يحارب الفلاحين المتوسطين . وكلما مرت الأشهر ،

٦ـ كان قد تحدى هذا الرأي ، وان كان هذا التحدي على أساس علمي ضعيف ، كاتبان سوفيتيان هما : فوغانوف (في مجلة كومونست ـ العدد ٢ ، ١٩٦٦ ، وفي «قضايا تتعلق بتاريخ الحزب الشيوعي السوفيتي ، شباط /فبراير ١٩٦٨) وترابيزنيكوف (في «تجربة تأريخية للحزب الشيوعي السوفيتي : انجاز الخطة اللينينية للتعاونيات» موسكو ، ١٩٦٥) .

فرضت قيادة الحزب وتائر للتغيير مطردة السرعة ، وقذف ستالين في خطاب له في ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٩ . فكرة «تصفية الكولاك كطبقة» ، ومرة أخرى واجه المنظمات الحزبية بالأمر الواقع . وكان يعتمد على تأييد فقراء الفلاحين والفلاحين المعدمين . وكان تعريف الكولاك غامضاً ، وقد وضع قسم من الفلاحين المتوسطين ضمن هذه الفئة . وهكذا ، أجبر معظم الفلاحين على دخول الكولخوزات . وفي الأشهر الثلاثة الأولى من ١٩٣٠ اكتسحت موجة من الارهاب الريف السوفيتي .

وبفضل ارشيف سملوينسك ندرك حالة فيليكي لوكي اوكراغ . ففي ٢٨ كانون الثاني (يناير) صوتت لجنة الحزب المحلية تأييداً لترحيل الكولاك . وكما كانت الحال في الأقاليم السوفيتية ، قسم هؤلاء الى ثلاث فئات : أولئك الكولاك الذين كانوا مذنبين بالقيام بنشاط مضاد للثورة كان يجب ترحيلهم ، وكذلك الكولاك الأكثر غنى ؛ أما الآخرون فسوف تصادر أملاكهم ، ولكنهم يبقون في اوكراغ وتعطى لهم أرض لتطهيرها .» وحذرت النشرة الصادرة في ٢١ شباط (فبراير)عن لجنة الحزب من خطر اتخاذ مثل هذه الاجراءات ضد الفلاحين الآخرين ، ولكنها اعترفت ان الحال كانت هذه في أغلب الأحيان . وفي الأيام التالية ، وردت التقارير عن الكثير من الأعمال الاجرامية .وحدث هذا لان ستالين ، شأنه شأن ماو في تأريخ متأخر في أثناء الثورة الثقافية ، قد أطلق قوى لم يستطع السيطرة عليها الا نادراً . وقد ازداد الصراع الطبقي في القرى سوءاً ، بسبب الخصومات الشخصية . «ان الهياج العظيم في الريف» الذي فخر به مولوتوف كان يخلق وضعاً بائساً . وكان الفلاحون الذين أصابهم الرعب يقتلون مواشيهم . وكان العمل الزراعي لا ينفذ الا جزئياً ويتخلف عن المواعيد المحددة . وسادت الفوضى كل مكان وكانت تجري مصادرة الفلاحين المتوسطين باعتبارهم من الكولاك (dekulaked) . وكانت الشاحنات محملة بالكولاك المرحلين . وأجبر الملايين من الفلاحين على الدخول في الكولخوزات ، ومن ثم أعلن نجاح خطة التجميع الكاملة .

كانت فرق العمال التي أتت من المدن ، والتي لم تعرف الريف أحياناً تصرفت بصورة عشوائية . ولاحظ تقرير من المديرية السياسية الموحدة للدولة في المناطق الغربية مؤرخ في ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٣٠ ان الكولاك والفلاحين المتوسطين قد جردوا حتى من ملابسهم . وكانت أعمال الاعتقال المتزايدة باطراد تحدث بتحريض من كل أنواع الموظفين ، كما أكد ذلك تقرير من المديرية المذكورة مؤرخ في ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٣٠ ، ومنذ ٢٠ شباط (فبراير) حذر سكرتير الحزب لمنطقته ، عضو اللجنة المركزية رومانسييف (الذي أعدم في ١٩٣٨) جميع سكرتيري الحزب في أوكراغ من «الانحرافات» العديدة التي ظهرت في الفترة الأخيرة . وكان بين الفلاحين الذين اعتقلتهم المديرية المذكورة ، كولاك دون شك ، ليس ثمة شك أيضاً في ان موقفهم كان معادياً للسوفييت .ولكن كان يجري ـ على أساس محاربة الكولاك ـ تنفيذ ثورة في الريف بطريقة بيروقراطية وقمعية ، لم تفشل بتحويل الفلاحين جميعاً ضد نظام الحكم السوفيتي .

وهنا تبرز ظاهرة ستالين بكل تناقضاتها . لقد انتجها الصراع الطبقي الذي جرت مواصلته بطريقة بحيث ان القمع وحده كان قادراً على حل القضايا التي واجهها . وكانت القضايا حقيقية ، غير انها تطلبت حلولاً اخرى ، وكانت الأهداف اشتراكية ، الا ان الوسائل لم تكن في مصلحة الاشتراكية . ان ظهور الزراعة المجمعة الاشتراكية وتصفية الكولاك كانا بحد ذاتهما هدفين اشتراكيين ايجابيين ـ ولكن كان على الاتحاد السوفيتي والحركة العمالية العالمية أيضاً ، ان يدفعا ثمناً غالياً للطريقة التي أنجزت فيها هذه «الثورة» لقد ولد اقتصاد ومجتمع اشتراكيان من الثورة السوفيتية وسياسات ستالين ـ ومن دون أن يأخذ المرء هذه الحقيقة في الحسبان فانه يسيء تفسير العالم المعاصر . وفي الوقت نفسه استخدمت طرائق استبدادية . وبدت وكأنها تجعل السير بسرعة أكبر ممكناً ، بتخطي مراحل معينة ـ ولكن اذا تفحص المرء عواقبها ، يدرك كم كانت هذه الطرائق ضارة ،وكذلك درجة الخراب الذي

لا يزال الاتحاد السوفيتي يعانيه ، بصورة غير مباشرة في الأقل . وبسبب فقدان الحياة الانسانية ، والخراب المادي والمعضلات السياسية والايديولوجية التي أسفرت عنها ، كانت الطريق الأطول الى بناء الاشتراكية ، وليست الطريق الأقصر كما تراءى .

ان صعوبة فهم تناقضات ظاهرة ستالين قد برهنت على انها عقبة بالنسبة لكثير من المحللين . فمن جهة ، كانت مؤدية الى بناء الاشتراكية ، وهي حقيقة ينكرها كثير من الكتاب . ومن جهة أخرى ، بنتها بطريقة كانت في الأغلب بربرية واستبدادية ، تجعل الاشتراكية كريهة لكل الناس الذين اما ينكرون ان التغييرات التي جرت كانت اشتراكية في طابعها ، أو يماثلون بين الاشتراكية والطرائق الستالينية كما لو ان الجمع بينهما كان ضرورة حتمية بغض النظر عن الزمان والمكان . ومع ذلك اذا ما تفحصنا هذه التناقضات بعناية ، فسوف نكون أكثر قدرة على الحكم على الطابع التأريخي وبالتالي الخاص لظاهرة ستالين ، التي هي نتاج زمان ومكان معينين .

في الأول من آذار (مارس) ١٩٣٠ «قررت» ١٤,٢٤٦,٠٠٠ مزرعة فلاحية الانضمام الى كولخوز . وفي الثاني من آذار (مارس) ١٩٣٠ نشرت برافدا مقالة طويلة لستالين قصد بها وقف الثورة الريفية . وذكر ستالين قراءه ان الفلاحين يجب ان ينضموا الى الكولخوزات «بمحض ارادتهم الحرة» ، وأدان هذه التشويهات ، هذه الآمرية البيروقراطية لحركة زراعية جماعية ، هذه التهديدات غير الملائمة ضد الفلاحين» (مسائل اللينينية ، ص٣٢٩) . وجادل ضد «التطرفات» ، على سبيل المثال ، تلك التي اقترفها أناس بدأوا بانزال اجراس الكنيسة كيما ينظموا جمعية حرفية تعاونية . «أزيلوا أجراس الكنيسة - أي ثورية حقاً!» (المصدر السابق ص٣٣١) . واذ ووجه بالكارثة ، حاول ان يكبح القوى التي كان قد أطلقها . وفي أسابيع قليلة تضاءل عدد التطرفات . وفي ايار (مايو) ١٩٣٠ ضمت الكولخوزات ما يقل على ٦ ملايين أسرة (٥,٩٩٩,٠٠٠) . أي بانخفاض (٨,٢٤٧,٠٠٠) بالمقارنة مع آذار (مارس)

من السنة نفسها ، وهذا يعني ان هذا العدد في الأقل كان قد أجبر على الدخول في الكولخوزات . وهذا يمنحنا فكرة ما عن القسر الذي أخضع الفلاحون له . وعلى الرغم من ذلك ، فان السياسة الزراعية للحزب لم تتغير خلال الأشهر التالية . أصبحت الضغوط أكثر حصافة ، ولكنها استمرت . وازداد بسرعة عدد المزارع التابعة للكولخوزات :

الأسر الكولخوزية

١ أيار مايو ١٩٣٠	٥,٩٩٩,٠٠٠	
٢ شباط (فبراير) ١٩٣١	٨,٢٥٠,٠٠٠	
١٠ تموز (يوليو) ١٩٣١	١٣,٨٣٩,٠٠٠	(٢٣٠
١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣١	١٥,٠٠٠,٠٠٠	ألف كولخوز)
ـ ١٩٣٣	١٥,٢٥٨,٠٠٠	
ـ ١٩٣٤	١٥,٧١٧,٠٠٠	

ـ وهذا يعني ٧١,٤ في المئة من الأسر الفلاحية . وكانت تربية الماشية في وضع كارثي لان الفلاحين ذبحوا كميات هائلة من المواشي .

الماشية (بملايين الرؤوس)

	١٩٢٩	١٩٣٣
الماشية	٦٧,١	٣٨,٦
الأحصنة	٣٠,٧	١٦,٦
الخراف والماعز	١٤٦,٩	٥٠,٦
الخنازير	٢٠,٣	١٢,٢

ومع ان حصاد ١٩٣٠ لم يكن سيئاً ، فان حصاد ١٩٣١ لم يكن جيداً ، وكان حصاد ١٩٣٢ كارثياً تماماً على نحو واضح . واستمرت تصفية الكولاك بعد آذار (مارس) ١٩٣٠ .

في روسلاف من منطقة سمولينسك كانت التحضيرات قد بدأت في ١٥ شباط (فبراير) ١٩٣١ لترحيل الكولاك الى سيبيريا : لقد رحلت ٣٣ أسرة ، ولكن هذه الترحيلات أقلقت الفلاحين جميعاً ، الذين كانوا خائفين من تصنيفهم ككولاك . ففي ٢٧ آذار (مارس) ١٩٣١ تجمع ٢,٢٠٢ أشخاص (٤٣٧ أسرة) في مركز اعادة الاستيطان في روسلاف . انه لمفهوم ان الاتحاد السوفيتي في شتاء ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ كان على حافة كارثة اقتصادية مماثلة لكارثة ١٩٢٢ ، وكانت مناطق معينة حتى تعاني المجاعة . وكان هذا بلاشك بعيداً جداً عن العشرة ملايين ميت الذين يتحدث عنهم ليوين في (الفلاحون الروس والسلطة السوفيتية ، ١٩٦١) ، ولكن بسبب معضلة الغذاء حيث حدث هبوط جديد في الولادات وزيادة في نسبة الوفيات .(٧) وأخيراً ، كان يجب الاحتفاظ بنظام للتموين دقيق في المدن لسنوات عديدة .

وعلى الرغم من الظروف التي تشكلت في ظلها الكولخوزات فقد أصبحت مراكز للتدريب التقني والتحفيز الذي شجع الثورة الثقافية في الأرياف . واضطلع تكوين محطات المكائن والآلات الزراعية بدور كبير في الريف . ونموذج الدستور للكولخوز ، الذي أقر في ١٩٣٠ ، جعل الجمعية الحرفية التعاونية نموذجاً تنظيمياً له ـ وانتخب كل كولخوز رئيسه (ولكن منظمة الحزب رشحته) . ودفع لاعضاء الكولخوز بموجب نظام «العمل اليومي» .(٨) ولم

٧ـ كان سكان الاتحاد السوفيتي (١٦٥,٧٠٠,٠٠٠) نسمة في ١٩٣٣ ، و (١٧٠,٥٠٠,٠٠٠) في ١٩٣٩ . وكان يجب أن تكون الزيادة ٣ ملايين في السنة ، أي ما مجموعه ١٨ مليون نسمة . ولكن الزيادة كانت ٥ ملايين فقط . وكان العجز ١٣ مليون نتيجة الانخفاض في نسبة المواليد ، ويعود ذلك الى مختلف أنواع النقص في ١٩٣٣ وارهاب ستالين . وكما تبدو الأشياء ، انه من الصعب تقديم أرقام عن هذه العوامل المختلفة .

٨ـ «عمل يوم» : كان قيمة عمل يوم قياسي في وظيفة زراعية معينة .

يكن مبدأ التجميع الزراعي موضع شك ، بينما كان القسر الذي استعمل لاقامته ـ خلافاً للمبادئ ذاتها للنظام السوفييتي ـ موضع مثل هذا الشك . وتطلب الأمر سنوات لكي تتغلب الزراعة السوفيتية على هذه القضايا . وقد فرض ستالين أفكاره الخاصة في الزراعة ، كما في ميادين أخرى كثيرة غيرها . ان التطور السريع لقوى الانتاج كان ينبغي تحقيقه بطريقة مخططة ، وكان يجب أن يبدأ من الصناعة الثقيلة . وكان هذا ما دعاه ستالين بـ «خط المعدن» ، في معارضة للقطاعات الصناعية المتزايدة المنتجة للبضائع الاستهلاكية ، والذي دعاه «خط النسيج» . ولكن ستالين لم يكن مقتنعاً بهذا . وفرض بأسلوب استبدادي أهدافاً لم يكن ثمة فرصة لتحقيقها .

وطرح شيوعيون مثل سابسوفتش («الاتحاد السوفيتي في عشرين سنة : الاتحاد السوفيتي في عشر سنوات») حتى أفكاراً مخبولة أثرت بلا شك في ستالين والقادة الاخرين . وكانت نية سابسوفتش اللحاق بالولايات المتحدة في عام ١٩٣٦! والأرقام المستهدفة في الصناعة في نهاية الخطة الخمسية التي تقدم بها ستالين كانت تزداد كل شهر . وفي المؤتمر السادس عشر وضع هدف ١٧ مليون طن من الفولاذ و ٤٥ مليون طن من النفط . وتحقق تقدم فعلي بفضل التضحيات التي بذلها العمال . وبفضل المستوى الأعلى من التوظيفات ، الذي كان ممكناً بسبب الاستغلال الأشد للفلاحين ، وبفضل نمو المباراة الاشتراكية والتخطيط المركزي . وقد ازداد الناتج الصناعي بمقدار ١٩,٢ في المئة استناداً الى الاحصاءات السوفيتية (لاشك في المبالغة بالوقائع الحقيقية) . وبمقدار ١٣,٣ في المئة استناداً الى ياسني ، المؤرخ الأمريكي الروسي الأصل .

السنة	الفحم	الكهرباء	الفولاذ	النفط
١٩٢٨	٣٥,٥	٥	٤,٥	١١,٦
١٩٣٢	٦٤,٤	١٣,٥	٤,٥	٢٨,٦

(بملايين الأطنان ، باستثناء الكهرباء المحسوبة بعشرات ملايين الكيلو واط) .

دعونا نضع هذه الزيادة في حدود ١٥ ـ ١٦ في المئة في السنة . وهي زيادة ليست سيئة . اذ انبثقت المراكز الكبيرة للحديد والفولاذ والسدود في الاورال (ماغنيتوغورسك) واوكرانيا ، وبنيت القنوات وخطوط السكك الحديد الأساس . وافتتحت حقول للنفط والفحم (دنيبروستروي ، تيركيب ، قناة البحر الأبيض الخ) وبنيت مدن جديدة مثل كوزنيتسك ، وازداد سكان بعض المدن القديمة بقفزات واندفاعات . وأصبح الاتحاد السوفيتي مغطى بمواقع البناء ـ البداية وضعت لبناء ١,٥٠٠ مصنع كبير جديد ، معظمها دخل حيز الانتاج في أثناء الخطة الخمسية الثانية . ومع ذلك ، بقي كل هذا أوطأ كثيراً من الأهداف التي حددها ستالين واقتصاديوه .

ان رقم ١٧ مليون طن من الفولاذ لم يتحقق الا في ١٩٣٩ . والنزعة الطوباوية والتفكير المستند الى الأماني يحطمان أنفسهما على جدران الواقع ، كما تفعل الوعود المضللة والأهداف التي لا يمكن نيلها . وبذل ستالين كل جهد ليخفي الحقيقة بتزييف الأرقام . وبصرف النظر عن بعض الأرقام العامة المحسوبة بطريقة لا تكشف عن شيء وبالتالي تثير الشك ، فان ستالين لم ينشر من الآن فصاعداً سوى الاحصاءات المقارنة . ومع ان نظام التخطيط المركز كان نافعاً من وجوه عديدة ، الا انه جرى تناوله بطريقة شجعت البيروقراطية ، الى حد كبير وغير منتج . وفي الأغلب تمتع العمال والكوادر الحزبية المتفرغة في ماكنة الدولة بأفضليات مادية وسياسية وفكرية أعطتهم امتيازات معينة بالمقارنة مع الناس الآخرين . وعلى أية حال ، وبما انه مغاير للوقائع ، فان المرء لا يمكن أن يتحدث الا بصعوبة عن طبقة جديدة من البيروقراطيين وذوي الامتيازات ، كما فعل بعض التروتسكيين في الثلاثينات وفيما بعد .(٩) وتنامى نفوذ ستالين بمرور الزمن . فبحلول عام ١٩٢٨ كانت

٩ـ ينبغي ان لا تخلط ظاهرة البيروقراطية بوجود الطبقة البيروقراطية ـ لم تكن المراكز الادارية وراثية ولا كان اشغالها مدى الحياة . ولا يجد المرء مجموعة من الناس تحتل الموقع نفسه في عملية الانتاج ودورة رأس المال ، ولم تكن ثمة اعادة انتاج اجتماعية لمجموعات من القادة .

المؤسسات والآليات التي كان عليها أن تعطي ظاهرة ستالين بعدها التراجيدي قد وجدت بالفعل ، ولكنها كانت تفتقر الى الحافز الذي كان عليه ان يطلقها . ومن ١٩٢٩ فصاعداً ، قرر ستالين كل شيء دونما استشارة . وجنح ستالين الى ان يواجه الهيئات القيادية بالأمر الواقع ، ليجعلها أجهزة للتسجيل وتنفيذ سياساته ، وحتى نهاية ١٩٣٤ ، أي حتى اغتيال كيروف ، يبدو التأريخ السياسي للاتحاد السوفيتي ليس سوى سلسلة طويلة من المحاولات ، التي لم تنهض مطلقاً عن الأرض مع الأسف لاعادة تأسيس قيادة جماعية في الحزب بالحد من سلطات السكرتير العام » .(١٠)

وتطورت بالتدريج عبادة ستالين عبر الاتحاد السوفيتي ، وكان يمكن أن توجد صوره الفوتوغرافية في كل مكان خارج وداخل المباني العامة . وبدأت الصحافة تمجد فضائله . وبمناسبة الذكرى الخمسين لميلاد ستالين ١٩٢٩ أصدرت دار نشر الدولة مختارات من المقالات عنه بأقلام أعضاء قياديين في الحزب . وفي ٢١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٩ كرست الصحافة السوفيتية كلها صفحات عديدة لستالين ، محتفلة بذكرى ميلاده بمقالات من المدح المثير للاشمئزاز المدعم بالصور الفوتوغرافية .

ووزعت ملايين النسخ من تمثال نصفي فخاري وكذلك الصور الفوتوغرافية . وملأ « رفاقه في السلاح » مقالاتهم وخطبهم بمقتبسات منه . وأغلب قادة المعارضة اليسارية وقفوا الى جانبه لكي يكافحوا الكولاك ويساعدوا على بناء الاشتراكية . ان تروتسكي المنفي واصل وحده النضال ضده ، ولكنه كان وحيداً وغير فعال . والمعارضة اليمينية نفسها ساندته . وفي المؤتمر السادس عشر في حزيران ـ تموز (يونيو ـ يوليو) ١٩٣٠ ، لم يرتفع أي صوت من النقد له ، بينما كانت مأساة التجميع الزراعي مستمرة .

١٠ـ السكرتير العام . في هذا الوقت كان هذا اللقب الاعتيادي الذي يطلق على ستالين الذي كان سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي السوفيتي .

وكان يستخدم باطراد متزايد المديرية السياسية الموحدة للدولة . وعلى سبيل المثال ، لقد فرضت رقابة على نشاطات بوخارين في أثناء أحداث ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ ، وكانت تدير « الحملة ضد الكولاك » (dekulakisation) والترحيل الواسع لمئات آلاف الفلاحين ، وأخيراً ، كان عليها أن تنظم محاكمات موسكو الكبيرة الأولى ، محاكمات « الهدّامين » . وعلى الضد من محاكمات ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ ، كان الهدف مهاجمة الخبراء غير الشيوعيين والبرهنة على وجود مؤامرة أجنبية ضخمة يقصد بها « تخريب » الاقتصاد السوفيتي . ان ستالين ، وهو ينطلق من الحقيقة القائلة بوجود مؤامرات ضد الاتحاد السوفيتي ، قصد دون شك الى تفسير المصاعب الاقتصادية باعتبارها من صنع « الامبريالية الأجنبية والأعداء الداخليين للنظام » . لقد وجدت المؤامرات بالطبع ، غير ان الطريقة التي نظمت بموجبها سلسلة المحاكمات من ١٩٢٨ فصاعداً ، تنذر بتلك المحاكمات التي نظمت ضد القادة الشيوعيين في فترة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ أيضاً بالضبط لكي لا يميل المرء لاغراء وضعها ضد الفئة نفسها ، ويزيد في ذلك ان رجال الشرطة ذاتهم والمحامين أنفسهم اشتركوا في كلتيهما . وثمة قدر كبير من الشهادات يظهر انه كان هناك النوع نفسه من التركيب .(١١) لقد حدثت المحاكمة الأولى ، محاكمة مهندسي شاختي ، في عام ١٩٢٨ . كانوا مهندسي تعدين ، وكان يفترض فيهم حسب أقوال الادعاء ، انهم خربوا انتاج الفحم في منطقة دونباس . واستخدمت طرائق التحقيق ذاتها التي استخدمت في محاكمات موسكو الكبرى بالفعل . واستعملت المديرية السياسية الموحدة للدولة التعذيب الجسدي والسيكولوجي والمعنوي . وهذه المحاكمة كانت البداية لارهاب ضد الخبراء البرجوازيين . وفي ١٩٣٠ كانت هناك محاكمة حزب الفلاح الكادح . وكان المتهمون الرئيسون هم الاقتصادي البارز كوندراتيف ومجموعة من

١١ـ بشكل خاص ما اقتبسه ميدفيديف في « لندع التأريخ يحكم » .

الاقتصاديين الآخرين والمهندسين الزراعيين الذين حوكموا بطريقة سرية .وجرت في نهاية العام المحاكمة العلنية للحزب الصناعي ، وشملت ثمانية من المديرين العلميين ذوي المقام الرفيع ، الذين اتهموا بتخريب الاقتصاد السوفيتي بارتباط مع الحرس الأبيض والحكومة الفرنسية .وكان رئيس المحكمة اندريه فيشنسكي والمدعي العام كريلينكو (أعدم بأمر من ستالين بعد سنوات قليلة) . وكانت التهم تستند الى الفقرات ٣ ,٤ ,٦ من القانون الجنائي لسنة ١٩٢٦ لجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية . وفي انسجام رائع أعلن المتهمون انهم كانوا مذنبين وقدموا جملة من المعلومات المفصلة حول أعمالهم في التخريب وصلاتهم الدولية . انه مؤكد عملياً ان هذه الاعترافات كانت نتيجة للضغوط وأعمال التعذيب العديدة والمتنوعة التي عانوها ، ولكن الناس في ميادين عديدة صدقوها ـ وبخاصة في الحركة الشيوعية العالمية ـ بسبب العداء المجنون للسوفييت الذي أظهرته البلدان الرأسمالية . وقدم المتهم الرئيس رامزين ، مدير معهد الديناميكات الحرارية ، نقداً ذاتياً مجلجلاً . والدليل الوحيد الذي قدم في أثناء المحاكمة كان في الحقيقة اعترافات المتهمين . واتهم المؤرخ السوفيتي الكبير تارله بكونه وزير الخارجية مستقبلاً لحكومة البيض . وكان قد اعتقل وطرد من أكاديمية العلوم ، ومن ثم أطلق سراحه بعد فترة وجيزة . وحكم على خمسة من المتهمين ، من بينهم رامزين ، بالموت ولكن أعفي عنهم بما انهم كانوا « مجرمين لم يعودوا ذوي ضرر لانهم اعترفوا بأعمالهم وأسفوا عليها »(١٢)

١٢ـ كانت اعترافات المتهمين أكثر مصداقية لان الحكومة الفرنسية والقيادة العليا كانتا تتخذان موقفاً معادياً للسوفيت لسنوات طويلة . في ١٩١٩ تدخلتا في أوديسا . ومن ١٩١٩ الى ١٩٢١ ساعدتا رانغل وكولتشاك بولندا . وفي ١٩٤٠ ، استعدتا لتدخل عسكري في بيتاسامو (في فنلندا) ، والى هجوم جوي على ابار النفط في القفقاس . وقد نظم ستالين محاكماته دائماً بذكاء سياسي كبير هَدِفَ الى جعل اعترافات المتهمين جديرة بالثقة .

(محاكمة الحزب الصناعي ، ص ٢٣٢) . وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٣١ ، حدثت محاكمة المكتب الاتحادي للمناشفة . ومن بين من اتهموا غرومان أحد مديري لجنة التخطيط (Gosplan) ـ وهو اقتصادي من أعلى نوعية ـ سوخانوف ، منشق سابق كان قد عقد في بيته اجتماع اللجنة المركزية البلشفية في عشية ثورة اكتوبر ، وعدد كبير من الاقتصاديين . وكلهم اعترف ليس فقط بانه حاول اعادة تشكيل الحزب المنشفي في الاتحاد السوفيتي ، بل وأيضاً تآمر مع «الحزب الصناعي» و «حزب الفلاح الكادح» اللذين كانا موضوع القضيتين السابقتين . وحتى اعترفوابانهم كانوا على صلة بالمعارضة الشيوعية في الاتحادالسوفيتي . ونتيجة لهذا ، أرتيب بريازانوف ، مدير معهد ماركس ـ انجلز ـ لينين واستطاع ستالين ان يطرده من عمله وان ينفيه بعيداً عن موسكو .

كل هذه المحاكمات جعلت الكثير من الناس يرتابون في المثقفين ، بالمديرين والخبراء ذوي المراتب العليا . وقام ستالين بتقليص كبير في مجالات عديدة لنشاط الدولة وبذل جهداً لاركاع المثقفين الشيوعيين أنفسهم . وأصابهم القمع الواسع منذ ١٩٣٠ ، ومن ذلك الوقت فصاعداً قامت السلطات بفرض رقابة شديدة على جميع الباحثين العلميين . وخنقت كل حرية للقيام ببحث أو عمل خلاق . وفي الحقل التأريخي ، كان ياروسلافسكي قد انتقد لتأريخه للحزب الشيوعي السوفيتي ، وكان الهدف الرئيس بوكروفسكي الذي كان «مذنباً» بالاساءة الى ماضي روسيا باظهاره أصول الامبريالية الروسية .

وفي ١٩٣١ ، كتب ستالين نفسه رسالة الى مجلة «الثورة البروليتارية» التي انتقد فيها الاتجاه الذي يسير فيه البحث التأريخي ، لان المجلة كانت قد نشرت مقالة مفرطة في تملقها حول روزا لوكسمبورغ . «اعتقد انهم كانوا قد حثوا على السير في ذلك الطريق بوساطة النزعة الليبرالية المتعفنة التي انتشرت الى درجة ما بين قسم من البلاشفة . وبعض البلاشفة يعتقد ان

التروتسكية كتلة من الشيوعية . . . وكحقيقة ، ان التروتسكية البروجوازية المضادة للثورة والتي تحارب الشيوعية . . . ان التروتسكية طليعة البرجوازية المضادة للثورة . وهذا ما يفسر لماذا يعتبر الموقف الليبرالي ازاء التروتسكية غباء يصل حافة الجريمة ، حافة الخيانة للطبقة العاملة . »

ان هذا النص الأكثر كشفاً وتمييزاً للطريقة التي جادل بها ستالين(١٣) فالبرجوازية المضادة للثورة كانت تكافح ضد الاتحاد السوفيتي الذي أرادت ان تدمره . كان ستالين غالباً ما ينطلق من مواقع صحيحة . وهذا أحد الأسباب التي تفسر لماذا كان قادراً لمثل هذا الوقت الطويل على خدع الكثيرين جداً من الناس ذوي الارادة الطيبة ، وبخاصة في الخارج . وأضاف ستالين : ان التروتسكية تنتقد الاتحاد السوفيتي ، والحزب الشيوعي السوفيتي ، وكان هذا يصدق جزئياً فقط ، لان تروتسكي كتب في شباط (فبراير) ١٩٣٠ : «ان نجاح الاتحاد السوفيتي بمعيار التطور يكتسب مغزى تأريخياً شاملاً . والاشتراكيون الديمقراطيون الذين حتى لا يحاولون تقدير سرعة النمو التي يبرهن الاقتصاد السوفيتي على انه قادر على انجازها لا يستحقون سوى الاحتقار . ونسبة التقدم ليست مستقرة ولا مضمونة . ولكنها توفر دليلاً عملياً على الطاقة الهائلة الكامنة في الأساليب الاقتصادية التي تتبناها الاشتراكية » (« حول الحماقة الاقتصادية ومخاطرها » ، نشرة المعارضة ، العدد ٩) . انه لحقيقة ان تروتسكي ، وقد أعمته مشاعره الشخصية الخاصة لم ير التناقضات الأساسية داخل ظاهرة ستالين . كان تروتسكي قد ثبت عينيه على تأريخ الثورة الفرنسية ، وكان لا يزال يفكر بثيرميدور ـ ولكنه لم يدرك ان ثيرميدور كان اطالة للثورة البرجوازية بأشكال أخرى ، بطرائق أخرى ، وحتى رجال آخرين . وقد وطد بونابيرت الثورة البرجوازية ، تماماً كما كان

١٣ـ يجب أن ندرك النزعة التروتسكية في عام ١٩٣١ ، لم تكن هي النزعة ذاتها لعام ١٩٧٥ التي تتميز بالعداء للسوفيت واستراتيجية متخلفة وجامدة عقائدياً .

ستالين يواصل الثورة الاشتراكية . ولان معظم رفاق تروتسكي فهموا هذا ، ليس بسبب النزعة الوصولية أو الخوف ، فقد تبنوا سياسة الحزب . وهكذا فان بريوبراجنسكي ، وموررالوف ، وسياتاكوف ، وسميلغا ، وسوسنوفسكي ، وسميرنوف ، وانطونوف ، أوفسينكو ، ورراديك ، شأنهم شأن زينوفييف وكامينيف وعدة آلاف من المرحلين قبلهم ، عادوا الى موسكو وأعطوا مهمات هامة في الحزب وأجهزة الدولة .

وهذا لم يمنع ستالين من مواصلة محاجته :

١ـ البرجوازية تريد أن تدمر الاتحاد السوفيتي .

٢ـ تروتسكي ينتقد الاتحاد السوفيتي .

٣ـ تروتسكي رأس رمح البرجوازية .

٤ ـ ان أولئك الذين يبدون اللطف لتروتسكي يساعدون تروتسكي ، ولذا فهم يساعدون البرجوازية . . . هنا نرى ظهور المواضيع المختلفة التي كانت ستستخدم في القمع الواسع ابتداء من ١٩٣٥ فصاعداً ، والتي كان ستالين قد أعلنها منذ ١٩٢٨ حين صرح : « كلما تقدمنا اشتدت مقاومة العناصر الرأسمالية وأصبح الصراع الطبقي أكثر حدة » (خطاب ٩ تموز / يوليو ١٩٢٨ ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ١١ ، ص١٧٩) .

وفي الفلسفة انتقد ستالين « معهد الأساتذة الحمر » ومجلة « تحت راية الماركسية » ، وكذلك عمل الفيلسوفين ستيرن وديبورين . وبحلول ١٩٣٠ ، بدأ يتدخل بصورة غير مباشرة في حقل الأدب ، موزعاً المديح والانتقاد . والغى كل الجمعيات الأدبية المستقلة ، التي كانت لا تزال موجودة ، وجميع دور النشر التعاونية . وفي ١٩٢٩ ، شكّل له « اتحاد الكتاب السوفيت » لكي يشرف بطريقة أفضل على الحياة الأدبية ، وفي ١٩٣٢ أعطى الاتحاد حق احتكار تنظيم الكتاب .

وعلى أية حال ، سيكون من الخطأ لو اعتقدنا ان ستالين لم يواجه مقاومة داخل الحزب وقيادته . بالطبع كان نفوذه كبيراً . ولم يعد بوخارين وتومسكي

عضوين في المكتب الساسي منذ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٩ ، وقد أجل طرد ريكوف حسب . وفي نهاية ١٩٣٠ أزيح ريكوف من المكتب السياسي وحل مولوتوف محله رئيساً لمجلس مفوضي الشعب ، ولكن على الرغم من هذا ـ فان المكتب السياسي واللجنة المركزية كانا أبعد من ان يمنحا ستالين سلطة غير محدودة . وكان ستالين لايزال غير حر في التصرف كما يرغب . كان مولوتوف وكاغانوفيتش مؤيدين غير مشروطين بالطبع ، الا ان جميع القادة الآخرين كانوا لا يزالون يشكلون تهديداً له . وان عدداً من قادة الحزب ، وربما حتى الأغلبية ،(١٤) كانت تعتقد دون شك ان من المرغوب فيه ازاحته عن منصبه ، غير انه أصبح القيام بذلك صعباً حينذاك بسبب السلطة الاستبدادية التي امتلكها . واذا أخذنا الحال التي كان فيها الحزب ، عرفنا انه كان من الصعب استعمال الاجراءات الديمقراطية ، وبكل الأحوال كان ستالين لا ينوي الانحناء لهم . لقد مسك السلطة وكان على استعداد لتوسيع قاعدة ديكتاتوريته ـ وهذا ما ظهر من موقفه ابتداءاً من ١٩٣٥ فصاعداً . وحاول بعض الرفاق القياديين ان يقاوموا الارهاب الستاليني عند بدايته ، الا ان ستالين والمديرية السياسية الموحدة للدولة كانا حذرين وتتبعا المعلومات حول أي من الاجتماعات السرية التي مثلت خطراً على السكرتير العام . وهكذا ، في كانون الأول (ديسمبر) طرد كل من ستيرتسوف (مرشح لعضوية المكتب السياسي ورئيس مجلس مفوضي الشعب لجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية) ولوميnadze (عضو اللجنة المركزية وسكرتير اللجنة الحزبية لما وراء القفقاس) من اللجنة المركزية لانهما أجريا محادثات خاصة يفترض انهما قصدا خلالها اعداد مؤامرة ضد ستالين . واتخذ القرار ـ انتهاكاً للنظام الداخلي للحزب ـ المكتب السياسي وضباط لجنة الرقابة . وكانت حالة ربوتين أكثر جدية . كان سكرتيراً لمنطقة من مناطق موسكو وموظفاً سابقاً

١٤ـ هذا هو السبب في انه أعدم أغلبهم في أثناء القمع الواسع لفترة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ .

في اللجنة المركزية ويبدو حقاً انه كان يعد مؤامرة لتصفية ستالين . ففي ١٩٣٢ أقام منظمة سرية ضمت بين أعضائها أوغلانوف ، سكرتير سابق لمنظمة الحزب في موسكو ، وعضو في المكتب السياسي حتى ١٩٢٩ . ومن الواضح ان صلة أقيمت مع زينوفييف وكامينيف . وكتب ربوتين بياناً دعا فيه الى الابطاء في سياسة التصنيع وانهاء التجميع الزراعي القسري ، وكذلك اعادة تأسيس القيادة الجماعية في الحزب . واعتقل ربوتين وعدد آخر من القادة وطردوا من الحزب ونفوا من موسكو . والمصير نفسه واجه ، مرة أخرى ، زينوفييف وكامينيف ، وكذلك سيمرنوف وبريوبراجنسكي ورفاقاً قادة آخرين كذلك .

وعلى أية حال ، لم يسمح لستالين في ان يعزز الارهاب كما كان يرغب . واذ واجهته المعضلات الاقتصادية التي كان الاتحادالسوفيتي يختبرها في ١٩٣٢ ، اعتقد ان الارهاب الواسع كان الأسلوب الوحيد لانقاذ سياسته . ومن الواضح لأول مرة انه نجح في عام ١٩٢٩ ان يعدم بلشفياً . وكان الرجل المعني شخصية غريبة تدعى بولمكين ، وهو اشتراكي ـ ثوري يساري سابق ، كان قد اشترك في اغتيال السفير الألماني في موسكو ، الكونت فون ميرباخ ، في تموز (يوليو) ١٩١٨ . ومن ثم انضم الى البلاشفة وأصبح عميلاً للجنة الاستثنائية (فيما بعد المديرية السياسية الموحدة للدولة) . وفي ١٩٢٩ ، كان قد ذهب الى القسطنطينية حيث تكلم مع تروتسكي الذي أعطاه رسالة ليحملها الى الاتحاد السوفيتي . وأبلغ عنه راديك فاعتقل بلومكين وأعدم . وفي عام ١٩٣٢ أراد ستالين أن يتوغل أبعد وان يغرق أي معارضة لسلطته وسياسته بالدم . ورفض المكتب السياسي واللجنة المركزية الاستسلام الى الارهاب وكانت المديرية السياسية الموحدة للدولة نفسها مترددة . واعترف ستالين بذلك فيما بعد في برقيته الشهيرة التي أرسلها الى المكتب السياسي في ٢٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٣٦ ، «قدم يهودا دليلاً محدداً على انه غير قادر على كشف القناع عن مجموعة تروتسكي ـ زينوفييف . والمديرية السياسية

الموحدة للدولة متخلفة أربع سنوات في هذه الحالة . «لقد سنحت الفرصة لنيقولايفسكي ، وهو منشفي كان قد هاجر الى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو نسيب لريكوف ، ان يدخل في مناقشات طويلة مع بوخارين عندما جاء الأخير الى باريس من شباط (فبراير) الى نيسان (ابريل) ١٩٣٦ . وقدم خلاصة عنها في مقالة نشرت في لندن في ١٩٣٩ . «رسالة بلشفي قديم» . حسب هذا المصدر ، أثبت صدقه رسمياً حول عدد من النقط في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي ، وفيما بعد ، كانت أقلية مع ستالين في المكتب السياسي عندما اقترح محاكمة علنية كبرى لريوتين الذي أراد اعدامه . وعارض كيروف وردزادوك بحيوية المزيد من اجراءات القمع ، التي كانت ستوجه الآن ضد البلاشفة . وأيدهما أوردجونيكيدزه ، وكوسيور ، وكالينين ، وتردد كل من كويبشيف وفوروشيلوف . وكان مولوتوف وكاغانوفيتش وحدهما في اتفاق تام مع ستالين . وعندما اجتمعت اللجنة المركزية من ٢٨ ايلول (سبتمبر) الى ٢ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٢ ، اتهمت ريوتين وأنصاره بالرغبة في استعادة الرأسمالية وبمساعدة البرجوازية والكولاك .

واكتشفت مجموعة «معارضة» أخرى في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣ واعتقل أعضاؤها . وأولئك الذين شملتهم الاعتقالات سميرنوف ، وايسمونت (مفوض التموين) ، وتولماتشيف (مفوض النقل) وعدد من الموظفين المدنيين الكبار في مفوضية الزراعة .واتهم ريكوف ، وشميت . وتومسكي ، وهم قادة «المعارضة اليمينية» بكونهم يشجعونهم في نشاطاتهم التخريبية» . وفي ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٢ انتحرت ناديجيدا ألياوييفا الزوجة الثانية لستالين في لحظة يأس سببها ، كما يقول كثير من الشهود ، قرفها من الطرائق التي استعملها زوجها .

وفي ١٩٣٢ وبداية ١٩٣٣ اتخذت أيضاً خطوات ضد قادة الأحزاب الشيوعية في الجمهوريات الاتحادية : أطلق عليهم ستالين صفة «القوميين

البرجوازيين » لانهم عارضوا سياسته في المركزة والقومية الروسية . ولذا حدثت محاكمة في اوكرانيا شملت «اتحاد تحرير اوكرانيا » المزعوم . وكان الهدف الحقيقي لهذه المحاكمة هو مهاجمة سكريبنيك ، وهو قائد بلشفي اوكراني دعم لينين في مناظرته في ١٩٢١ ـ ١٩٢٣ حول قضايا القوميات . وكان عدد كبير من الناس قد اعتقل في الجامعات وانتحر سكريبنيك في ١٩٣٣ . وفي أرمينيا أزيح الكثير من القادة من مناصبهم ومن بينهم ن . ستيبانيان مفوض التعليم في جمهورية ارمينيا الاشراكية السوفيتية . وحدثت تطهيرات مماثلة في جمهوريات آسيا الوسطى . وكانت ممارسة الارهاب تجري فعلاً ضد عدد كبير من الفلاحين الذين كانوا بعيدين عن ان يكونوا من الكولاك . وقد أضيفت قوانين جديدة الى ترسانة القمع . وفي آب (اغسطس) ١٩٣٢ قرر ان العقوبة في المستقبل لقاء نهب ملكية الكولخوز ستكون عشر سنوات من الأعمال الشاقة في الأقل ، والعقوبة لقاء مجرد تهديد مزارع جماعي ـ جعله يترك الكولخوز ـ ستكون من خمس الى عشر سنوات من الأعمال الشاقة . وكانت العقوبة لقاء الذبح غير الشرعي للماشية سنتين من الحبس . ونتيجة لذلك بدأت معسكرات العمل الاجباري والمناطق في سيبيريا تمتلئ بمئات الآلاف من الأشخاص . وثمة نصّان يظهران مدى هذا القمع الواسع الموجه ضد الفلاحين . وهما في أرشيف سمولينسك . وأحدهما رسالة وقعها مولوتوف وستالين مؤرخة في ٨ آيار (مايو) ١٩٣٣ ، والآخرنشرة من اللجنة المركزية ولجنة الرقابة المركزية مؤرخة في ٢٥ آيار (مايو) ١٩٣٣ . ويقرأ المرء مثلاً : «لقد أبلغت لجنة الرقابة المركزية ان عدداً كبيراً من الناس لا يزال يجري اعتقالهم ، وان القمع القانوني يتم تنفيذه على مستوى استثنائي . . . » انه لحقيقة ان اللجنة المركزية كانت قد قررت في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٣ ان تنهي القمع ، لا ان تشدده . وعاد من جديد زينوفييف ، كامينف ، وبريوبراجنسكي وقادة آخرون من أماكن ترحيلهم ، واختزل قمع الفلاحين . وقررت اللجنة المركزية التراجع قليلاً ، وهي تواجه

أزمة غذائية وسخطاً شعبياً ، من دون الذهاب الى حد وقف التجميع القسري للأرض ، أو التخلي عن هدف التصنيع السريع . وسار ستالين في أثر ذلك ، كما كانت ممارسته في مثل هذه الحالات ، وغيّر الاتجاه بنوع من الحماسة بحيث بدا وكأنه استحث ، هو نفسه ، التغيير .

وفي بداية ١٩٣٣ كان لديه سبب أكبر للتواضع لان نتائج سياسته لم تكن رائعة .وعلى الرغم من البيان الذي أعلن أن الأهداف العالية التي وضعها ستالين قد أنجزت ، فان نتائج الخطة الخمسية الأولى كانت هزيلة . ففي الزراعة كانت أزمة الغذاء جدية . وفي الخارج ، كان هتلر قد تسلم السلطة في المانيا للتو (٣٠ كانون الثاني / يناير ١٩٣٣) . ولا يمكن أن يكون ثمة شك في ان ستالين تحمل في هذا الميدان مسؤولية ثقيلة . فمن ١٩٢٨ فصاعداً ، كانت الكومنتيرن ، التي كانت تحت حماية الحزب الشيوعي السوفيتي ، ركزت هجماتها على الأممية الثانية ، وفي المانيا ناضل الحزب الشيوعي الألماني ضد الاشتراكية ـ الديمقراطية بالقدر ذاته الذي ناضل فيه ضد هتلر . ولم يدرك الطبيعة الجديدة والاجرامية للنازية . وبالطبع ، ان السياسات التي تبنتها الاشتراكية ـ الديمقراطية الألمانية ساعدت على تعمية هذه الوقائع الجديدة .وكان الشيوعيون الألمان لا يزالون يستطيعون التذكر كيف ان الثورة الألمانية سحقتها قوات بقيادة نوسكه وزير الداخلية الاشتراكي ـ الديمقراطي . وتذكروا تأسيس جمهورية فيمار ، والسياسات المحافظة غالباً والمعادية للشيوعية للاشتراكيين الديمقراطيين في العشرينات . ولا يزالون يقرأون البيان الاشتراكي الذي وضع الشيوعيين والنازيين في الفئة ذاتها ، ولكن لم يكن الحزب الشيوعي الألماني والكومنتيرن قادرين على ادراك الخطر الحقيقي في الوقت الذي كان عليهما ان يفعلا ذلك .

لقد تمسك ستالين بالصيغة التي وضعها في عام ١٩٢٤ : «الفاشية منظمة جهادية للبرجوازية تستمد الدعم الفعال من الاشتراكية ـ الديمقراطية . والاشتراكية الديمقراطية من الناحية الموضوعية هي الجناح المعتدل من

الفاشية . . . وهاتان المنظمتان لا تتنازعان ، فهما متكاملتان . انهما ليسا قطبين ، بل هما توأمان . «وكان على الكومنتيرن ان ترفع في ١٩٣٥ ، استناداً الى ما حدث في فرنسا ١٩٣٤ ، الشعار الوحيد وان تصادق على الاستراتيجية الوحيدة التي يمكن ان تعيق طريق النازية وكل أنواع الفاشية الأخرى ـ «الديمقراطية أو الفاشية» . ان الوضع المرعب للاقتصاد السوفيتي في بداية ١٩٣٣ ، وانتصار هتلر في المانيا ، قادا الحزب الشيوعي السوفيتي الى ان يعدل بعض الشيء سياسته في ١٩٣٣ و ١٩٣٤ . وداخل البلاد ، كانت أهداف الخطة الخمسية الثانية أقل طموحاً بكثير من أهداف الخطة الخمسية الأولى ، وكانت التوظيفات أقل كثيراً .(١٥) وبالطبع لم يتغير أي شيء في الواقع جذرياً . وكان لا يزال على العمال ان يمتلكوا دفتر العمل (أدخل في ١٩٣١) ، ولا يستطيعون أن يتركوا مصنعهم دونما ترخيص . وكان العقاب قاسياً على التغيب والانتاج الضعيف ، ولكن في الوقت نفسه انبثقت مصانع جديدة في طول البلاد وعرضها ، وكان مئات الآلاف من العمال الصداميين لا يدخرون جهداً في تحسين نوعية العمل ، وبالتالي ، انتاجيته . وحصل أعضاء الكولخوز تدريجياً على حق زراعة قطعة الأرض الخاصة بهم وان يربوا ماشية تابعة لهم . وكان القادة السوفييت لا يزالون ، دون ان يتخلوا عن تجميع الأرض الذي كان قد أنجز ، لا يشجعون حقاً المزيد ، وشغلوا الآليات الموجودة بمرونة جديدة . وأنقذ البلاد من المجاعة حصاد عام ١٩٣٣ من الحبوب الذي كان ٨٩٨ مليون قنطار . وعاد زينوفييف وكامينيف والمرحلين الآخرين من المعارضة من سيبيريا مرة أخرى . وأفرغت جزئياً معسكرات التجميع ، كما أوضحت نشرة اللجنة المركزية في أيار (مايو) ١٩٣٣ والرسالة التي وقعها

١٥ـ كانت النسبة المقررة للنمو السنوي المخطط لفترة السنوات الخمس الثانية هي ١٦ في المئة بالمقارنة مع ٢١ في المئة في خلال السنوات الخمس الأولى . وكانت التوظيفات أوطأ أيضاً (١٩,٥ في المئة من الدخل الوطني بالمقارنة مع ٢٤ في المئة) .

ستالين ومولوتوف . وهذا لم يمنع المزيد من الاعتقالات بين موظفي الحزب والدولة . فمثلاً ، جرى اعتقال ٣٥ موظفاً (كاتباً) في وزارة الداخلية وأعدموا في ١٩٣٣ . وفي حقل السياسة الخارجية ، شجب الاتحاد السوفيتي في تلك الفترة جميع الفقرات الاقتصادية والعسكرية في معاهدات رابالو مع المانيا .(١٦) وتقدم لطفينوف باسم الاتحاد السوفيتي بخطة جريئة لنزع السلاح ، وطالب بالانضمام الى عضوية عصبة الأمم ، التي منحت للاتحاد السوفيتي في ايلول (سبتمبر) ١٩٣٤ . وحتى الأدب بدا أكثر حرية في بداية عام ١٩٣٤ .

إن المؤسسات الأساس التي تسببت بنشوء ظاهرة ستالين كانت لا تزال موجودة ، على أية حال ، من دون أن يطرأ عليها تغيير . وكان الوضع ببساطة لا يفضي الى ازدهارها الكامل ، وبما انه لم تكن نامية نمواً كاملاً ، فقد كان من الممكن تدميرها ـ وهي حقيقة كان ستالين واعياً لها ، ولذا تراجع وانتظر فرصة ملائمة واستعد لها . وتميز المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي السوفيتي في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٤ بالغموض ، اغتيال كيروف . ومن ثم انفجرت ظاهرة ستالين دونما أي نوع من القيود .

١٦ـ من ١٩٢٢ الى ١٩٢٤ كانت القواعد العسكرية الألمانية وحتى مصانع السلاح (كروب) موجودة في الاتحاد السوفيتي . وكان الألمان قد استعملوا هذه الطريقة للالتفاف على بنود معاهدة فرساي التي تمنع من ان يكون لهم جيش يزيد قوامه على مئة ألف رجل (انظر دراسة ج . كاستيلان ، اعادة تسليح الرايخ الثالث سراً ، (Le Réarmement clandestin du 3' Reich)

ـ ٤ ـ

انتصار الستالينية (١٩٣٤ ـ ١٩٣٩)

اذا حكمنا بالظواهر ، أي بالاستناد الى الخطب الرسمية ، سوف نجد أن المؤتمر السابع عشر للحزب الشيوعي السوفيتي سار على طريق ستالين . فجميع المتكلمين رفعوه الى السماء بمديحهم . ومع ذلك كان من المقدر لـ ١,٢٠٨ من أصل ١,٩٦٦ مندوباً حضروا هذا المؤتمر الذي افتتح في القاعة الكبرى للكرملين في ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٤ ، ان يموتوا في السنوات التالية بأوامر من ستالين ، وضم هذا العدد ٩٨ عضواً من أصل ١٣٩ عضواً في اللجنة المركزية الذين انتخبوا في اليوم الأخير . دعونا نحاول تخيّل هذه القاعة بجدرانها المكسوة بالستائر الحمر ، والمزينة بالصور الشخصية والمنصة التي تسيطر عليها . وفي ذلك اليوم كان التأريخ على موعد مع التأريخ .

ويرينا التقرير المكتوب بطريقة الاختزال ان «دخول الرفيق ستالين تميز بتصفيق حاد » ووقف المندوبون يهتفون « هورا » « ليعش الرفيق ستالين » . وتحدث ستالين لعدة دقائق ، ومن ثم تخلى عن الكلام الى خروشوف ، العضو الفتي في القيادة ، والسكرتير الثاني في منطقة موسكو ، وذلك الرجل الذي كان عليه ، بعد عشرين سنة ، ان يضع نهاية لعبادة ستالين .

وقدم خروشوف هيئة الرئاسة . وتقدم ستالين الى المنبر وقرأ تقريراً طويلاً مجّد فيه نتائج الخطة الخمسية الأولى ورسم الهياكل الرئيسة للخطة الثانية . وعلى المنصة كان الأشخاص التالية أسماؤهم :

كيروف (اغتيل في نهاية العام) ، أوردجونيكيدزه (كان عليه أن ينتحر في ١٩٣٥) ، كويبيشيف (مات في ظروف غامضة في ١٩٣٥) ، رودزوتاك (رئيس لجنة الرقابة المركزية ، أعدم في ١٩٣٨) . كالينين (رئيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية) ، فورشيلوف ، قائد الجيش الأحمر ، كوسيور (أعدم في ١٩٣٧) ، تشوبار (أعدم في ١٩٣٨) روستيشيف (أعدم في ١٩٣٨) ، ايخه (أعدم في ١٩٤٠) ، بيتروفيسكي (كان عليه أن يفقد منصبه) ، جرانوف ، ميكويان ، ورفيقا ستالين المخلصان كاغانوفيتش ومولوتوف .

وفي جسم القاعة أصغى المندوبون بانتباه . ويستطيع المرء ان يميز يهودا ، مدير المديرية السياسية الموحدة للدولة (أعدم في ١٩٣٦) وتلاه يجوف (أعدم في ١٩٣٨) . وبيريا الذي حل محله (أعدم في ١٩٥٣ كأول عمل من أعمال ازالة الظاهرة الستالينية) . ويجلس الى جوارهم البلاشفة القدامى الذين شابت رؤوسهم في السجون لسنوات طويلة ، والهجرة والترحيل ، وهم رفاق لينين : زينوفييف ، كامينيف ، بوخارين ، تومسكي ، بريوبراجنسكي ، راديك ، ريكوف ، وسياتاكوف ، وكان المندوبون الأكثر شباباً يراقبون الحرس القديم بشوق واهتمام . وكان الغائب الوحيد هو تروتسكي الذي كان لا يزال في منفاه . واجتمعت سبعون سنة من التأريخ هناك في هذا اليوم البارد من ايام كانون الثاني (يناير) ١٩٣٤ . وكان الجو منجمداً خارج القاعة . وكان جسد لينين المحنط في ضريحه لا يزال يحميه الحرس وفق طقوس تم تأسيسها جيداً بالفعل . وجاء عشرات من المندوبين الأجانب : قادة الكومنتيرن وسكرتيرو الأحزاب (السرية في الأغلب) . لقد بدأ «مؤتمر المنتصرين» . وانه لمن المستحيل تفادي الشعور بعاطفة عميقة عند التفكير

بالمصير المأساوي لهؤلاء المندوبين الممثلين لشعب وعصر بكامليهما . وكان عليهم بالفعل ان يواجهوا محناً عديدة ، ولكنها لم تكن شيئاً يذكر بالمقارنة مع ما كان المستقبل يخبئه لهم : الارهاب الستاليني ، الحرب العالمية الثانية ، اعادة البناء .

والحقيقة الماثلة في ان جميع الأعضاء السابقين للمعارضة باستثناء تروتسكي كانوا حاضرين في المؤتمر انما هي علامة مميزة للتناقضات الحقيقية في الوضع في عام ١٩٣٤ . وما هو حتى أكثر هو ان المندوبين أصغوا الى هؤلاء المعارضين السابقين بانتباه . لقد شجب ستالين في تقريره بعنف حقاً التروتسكية ، ولكنه لم يهاجم أولئك الحاضرين ، الذين رجع بعضهم للتو من فترة الترحيل الثانية . ويشعر المرء أنه كان في الواقع مؤتمر وحدة الحزب ، وان ثمة مساومة قد أقرت لتفادي مناظرة كانت ستهدد وحدة الحزب من كلا الطرفين . ومن المستغرب حقاً ، ان اسحاق دويتشر نادراً ما يذكر المؤتمر السابع عشر ، مع انه كان مؤرخاً واعياً في موضوع تروتسكي وستالين ، وميدفيديف وحده يكرس صفحات قليلة له في «لندع التأريخ يحكم» .

يضاف الى ذلك ، ان خطابات الأعضاء السابقين في المعارضة ، الذين قدر لهم ان يبادروا في فترة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ ، لم تكن تفتقر الى ما يثير الاهتمام . ويبدأ بوخارين كلامه بتبجيل ستالين وباعتراف رسمي بعيوبه وأخطائه التي يمكن أن تثير الابتسام لو لم تكن مأساوية . «أولاً ، كانت الشروط لانتصار حزبنا ، هي اعداد اللجنة المركزية والرفيق ستالين لخط سياسي صحيح بطريقة رائعة ، ثانياً ، التنفيذ الشجاع والمتقن لهذا الخط ، وثالثاً ، السحق دونما شفقة لتجمعات المعارضة والمعارضة اليمينية باعتبارها الخطر الرئيس ، أي لذات التجمع الذي كنت أنتمي اليه . وقال بوخارين عن ستالين انه كان «أفضل ممثل لخط الحزب والحافز له ، والذي حقق الانتصار في الصراعات الحزبية الداخلية باتخاذ سياسة لينينية مرشدة له» . وكان ستالين

حسب قول بوخارين ، « تجسيداً لروح الحزب وارادته ـ وقائده ، والمرشد العملي والنظري له . » وتلا ذلك تشديد بوخارين على التغييرات التكنولوجية التي حققتها منجزات الخطة الخمسية الأولى . وأعطى دليلاً ذكياً جداً عن الدور الجديد للعلم في الانتاج . ومن ثم ، أكد بقوة نادرة ، خطر الحرب من مصدرين : المانيا الفاشية واليابان الامبراطورية . واقتبس كثيراً من كتاب هتلر « كفاحي » ، بينما اقنع ستالين نفسه باشارة موجزة في خطابه . واكتفى ستالين بالقول « اننا أبعد ما نكون عن الحماسة لنظام الحكم الفاشي في المانيا » (مسائل اللينينية ص٤٦٧) ، ووصف الصراع بين « السياسة القديمة ، التي انعكست في معاهدات شهيرة بين الاتحاد السوفيتي والمانيا » (معاهدات رابالو) ، والسياسة « الجديدة » التي تذكر بصورة رئيسة « بسياسة القيصر الألماني السابق . . . وهذه السياسة « الجديدة » تحوز بوضوح اليد العليا على السياسة القديمة . . . » .

ومع انه انتقد سياسة التفوق العرقي الألماني في مواجهة السلافيين (المصدر السابق ص٤٦٣) . لم يذكر هتلر بالاسم ، واذ انطلق ستالين من فكرة ان الفاشية علامة الضعف في البرجوازية ، وهذه حقيقة تماماً ، قلل من شأن صفتها التدميرية وخصائصها الجديدة . وفي المقابل ، استعمل بوخارين المقتبسات ليظهر الخطر المخيم على الاتحاد السوفيتي ، وأنهى خطابه على النحو التالي : « هذا هو الوجه الوحشي للعدو الطبقي . وهذا ما يواجهنا ، وهذا ما سوف يتوجب علينا أن نفعله في أكثر المعارك ضخامة على الاطلاق فيما سيفرضه التأريخ علينا . ونحن نعرف حق المعرفة ان جانبنا هو الذي يحارب من أجل الاشتراكية ، ونتيجة لذلك فانه الجانب الذي يناضل في سبيل التكنولوجيا والعلم والثقافة وسعادة الانسان . » وبينما مدح ستالين ختم خطابه بتأكيد الحاجة الى الوحدة : « سوف نقاتل ، سوف نذهب الى المعركة بالنيابة عن الانسانية . » وفي هذا الكفاح ، فان الوحدة والوحدة ثم الوحدة ضرورية مهما كانت الكلفة . . » ويُزْعَمُ ان الكثيرين من القيادة الحزبية أرادوا

ان يحلوا كيروف محل ستالين ، وذلك استناداً الى شهادات متنوعة أكدها السوفيت أنفسهم فيما بعد (تأريخ الاتحاد السوفيتي ،موسكو ، ١٩٦٤ ، الجزء ٢ ، الصفحتان ٢٧٠ــ ٢٧١) ، وكانت وصية لينين لا تزال حاضرة في أذهان أغلبيتهم . وبالطبع ، لم تنشر الوصية ، في الاتحاد السوفيتي(١) ـ مع ان المؤتمر الخامس عشر للحزب كان قد قرر وجوب نشرها ـ ولكن نصها طبع في تقرير المؤتمر السابع عشر ، وهذا ما يفسر معرفة الكثيرين من المندوبين الى ذلك المؤتمر بها(*) ان كيروف الذي كان سكرتير الحزب في منطقة لينيغراد ، مرشحاً للجنة المركزية منذ المؤتمر الحادي عشر (١٩٢٢) ، وعضواً في المكتب السياسي ، ومرشحاً لعضويته منذ المؤتمر الخامس عشر (١٩٢٧) ، وعضواً كاملاً فيه منذ المؤتمر السادس عشر (١٩٣٠) ، كان مساعداً مخلصاً لستالين حتى سنة ١٩٣٣ واضطلع بدور هام في المعارك ضد «المعارضات في الحزب» . كيروف لم يسمح لنفسه ان يرشح ضد ستالين ، ولكن عندما حدثت الانتخابات للجنة المركزية أشر على اسمه ثلاث مرات فقط ، بينما أشر على اسم ستالين (٢٧٠) مرة . وكان على ستالين ان يتذكر كل هذا ، ولكن كان التوفيق في بداية ١٩٣٤ لا يزال أفضل نهج بالنسبة له .

١ـ كشف كاتب امريكي ، ماكس ايستمان ، وكان صديقاً لتروتسكي عن محتوياتها في ١٩٢٥ في كتابه «منذ وفاة لينين» .

* واضح ان الكاتب يشير الى رسالة لينين حول ستالين وفظاظته والعمل على ايجاد شخص آخر يشغل منصب السكرتير العام . هذا وقد نشر في الاتحاد السوفيتي في أواخر الثمانينات كتيب بعنوان «وصية لينين السياسية» بقلم بليماك ، تناول فيه الكاتب بالتحليل الرسائل والمقالات الأخيرة للينين والتي تعرف بوصية لينين السياسية . وظهرت الترجمة الانجليزية لهذا الكتيب في ١٩٨٨ عن دار التقدم ـ موسكو . أما الترجمة العربية فقد صدرت عن الدار نفسها في عام ١٩٨٩ مع ملحق برسائل ومقالات لينين الأخيرة . (المترجم)

وعكست هذا الوضع انتخابات اللجنة المركزية . وانتخب بعض الرفاق من الشبان : بيريا ، جدانوف ، خروشوف ، يجوف (واحد من الحائزين ثقة ستالين) ، بوسكريبيتشييف (السكرتير الخاص لستالين) ، وبولغانين ، من الذين قاموا بدور هام خلال الثلاثين سنة التالية : بينما أعيد انتخاب جميع القادة الذين انتخبوا في المؤتمر الخامس عشر (١٩٢٧) . والعضو الوحيد الذي لم يعد انتخابه ، كان أوغلانوف . وأعيد انتخاب عدد معين من قادة المعارضة السابقين ،الذين اعتذروا عن أخطائهم ، الى عضوية اللجنة المركزية : بياتاكوف كعضو كامل ، بوخارين ، ريكوف ، وتومسكي كمرشحين . وباختصار ، كان ستالين في حالة امتحان . والتغييرات في النظام الداخلي أكدت تأكيداً قوياً الديمقراطية داخل الحزب تماماً كتأكيدها الانضباط . ونصّ على وجوب عقد المؤتمرات الحزبية كل ثلاث سنوات ، واجتماعات اللجنة المركزية كل أربعة أشهر . وحددت العلاقة بين الهيئات القيادية المختلفة على النحو التالي : المادة ٣٣ ـ ان اللجنة المركزية هي التي تعين المكتب السياسي لمعالجة العمل السياسي ، والمكتب التنظيمي للادارة العامة التنظيمية والسكرتارية للقيام بالعمل التنظيمي اليومي والعمل التنفيذي . « وهذا لا يعني الا احالة السكرتارية (والسكرتير العام) الى دور ثانوي . وقال المؤتمر السابع عشر ان القيادة الحزبية هي اللجنة المركزية ، وحددت المادة ٣٣ ان عليها ان تحيط المنظمات الحزبية علماً بعملها . وبالطبع ، في الوضع السوفيتي الفعلي في ١٩٣٤ ، كان هذا تفكيراً قائماًعلى التمني ،ولكنه أظهر أن ستالين واجه قضايا حقيقية . يضاف الى ذلك ، ان كيروف الى جانب كاغانوفتش وجدانوف ، أصبح عضواً في السكرتارية وجهاز المكتب مع ستالين ، وكاغانوفيتش ، كويبيشيف ، وغامارنيك ، ويجوف ، وكوساريف ، وجدانوف .

وأخيراً ، لا يمكن ان يطرد أعضاء اللجنة المركزية الا اجتماع اللجنة المركزية ولجنة الرقابة المركزية ، الذي يدعى اجتماعاً كاملاً ، ويتطلب

موافقة ثلثي الحاضرين (المادة ٣٨) ، وهذه أبعد ما تكون الحال حتى ذلك الوقت . والتي لم تكن لتحدث حتى في السنوات التالية . ولو تفحص المرء الممارسة السياسية لستالين أكثر من خطبه ، لوجد انه لم يكن أياً من هذه الاجراءات يمكن أن يكون موضع ترحيبه ، لانها تقوي الشرعية الاشتراكية وبذلك تحد من قمع الشيوعيين . وتحت السطح كانت سنة ١٩٣٤ قد تميزت بنزاع بين هذين التناولين ، اللذين لم يشملا المعارضة السابقة والحزب ، بل الحزب وستالين ، بمعركة قدر لستالين ان يربحها في النهاية بلجوئه الى الاستفزاز والمكر والارهاب في سحق الحزب .

ان المساومة التي تحققت في المؤتمر السابع عشر أجبرت ستالين على تغيير موقفه حول نقط متنوعة . وأحرز مساعدة غوركي وحاول كسب الكتاب عن طريق استقبالهم شخصياً . وعيّن بوخارين رئيساً لتحرير ازفيستيا (الصحيفة الثانية الأكثر أممية بعد برافدا) وأجرى حديثاً مع كامينيف وأعطاه وظيفة كمدير لدار نشر الأكاديمية . وسمح بعقد المؤتمر الأول للكتاب السوفيت ، الذي حضره الكثير من الكتاب الأجانب ، ومن بينهم اندريه جيد ، ومارلو ، واراغون . وفي هذا المؤتمر تحدث ممثلو التيارات الأدبية المختلفة بحرية نسبية ، مع ان جدانوف وضع أهدافاً شمولية للأدب ، وعرّف الكاتب بكونه « مهندس الأرواح » . واحتج بوخارين على هذا التعريف المفرط في ضيقه لـ « الواقعية الاشتراكية » وهاجم النزعة اليسارية المتطرفة للأدب ، بينما انتقد راديك الأدب الجديد ، آخذاً مثالاً عليه ، جيمس جويس ، الذي دافع عنه آخرون بدعم من بوخارين . وقدم غوركي وباسترناك واهرنبورغ مساهمات هاجموا فيها الجمود العقائدي . وقدّر لأغلبية من شاركوا في هذا المؤتمر ، مهما كانت النزعة التي انتهوا اليها ، ان يهلكوا في القمع الواسع للسنوات التالية . وفي المجال الدولي تقدم الاتحاد السوفيتي ، وكان آنذاك عضواً في عصبة الأمم ، باقتراحات متكررة للبلدان الرأسمالية في صالح نزع السلاح والأمن الجماعي ، والوحدة ضد الفاشية .

وفي ١٠ تموز (يوليو) ١٩٣٤ ألغيت المديرية السياسية للدولة : ربما كانت هذه محاولة لتقليص سلطة الشرطة السياسية . وجعلت مفوضية الشعب للشؤون الداخلية مسؤولة عن المهمات التي كانت حتى ذلك الوقت في عهدة المديرية السياسية الموحدة للدولة ، التي أصبحت جزءاً من المفوضية الجديدة . وهكذا ، شكلت أقسام مركزية داخل مفوضية الشعب للشؤون الداخلية :

أمن الدولة ،
ميليشيا العمال والفلاحين ،
الدفاع عن الحدود والأقاليم ،
مديرية الاطفاء ،
معسكرات العمل الاصلاحية ومستعمرات العمل (الغولاغ) ،
دائرة التسجيل ،
قسم الاقتصاد والادارة .

وألغيت كذلك «الكلية القضائية» . وكان مانشيت برافدا «حماية النظام الثوري وأمن الدولة» . وفي الوقت نفسه شكلت «لجنة خاصة» ألحقت بمفوضية الشعب الداخلية : وكان لـ اللجنة الخاصة «حق أن تطبق بالأساليب الادارية ، النفي والترحيل والاحتجاز في معسكرات العمل الاصلاحية حتى خمس سنوات والطرد من الاقليم السوفيتي .» وهكذا ، ما أعطي بيد استرد باليد الأخرى ، وبقيت دون مساس قيادة الشرطة السياسية ، تركيبيا وصلاحيات . وكان الحزب والدولة عاجزين عن تغييرها واقعياً بالأساليب القانونية وحدها : لقد أصبحت دولة داخل الدولة وبقي ستالين مسيطراً عليها بصورة مباشرة عبر سكرتاريته الشخصية . وأي شخص كان «خطراً على المجتمع» كان يمكن ترحيله لمدة خمس سنوات . وتألفت «اللجنة الخاصة» من «نواب مفوض الشعب للشؤون الداخلية ، ومساعد مفوض الشعب لجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية ، والقائد العام للميليشيا ،

ومفوض الشعب للشؤون الداخلية للجمهورية المعنية » ، وشارك المدعي العام للاتحاد السوفيتي في اجتماعات اللجنة الخاصة وكان له حق الاحتجاج على القرارات لدى هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية . والبند الأخير كان يمكن ان يسمح ببعض الحد من السلطة الاعتباطية للجنة الخاصة ، ولكن فيشينسكي قد أشغل المنصب منذ عام ١٩٣٣(٢) وشكلت اللجنة الخاصة هيئة طوارئ اتخذت قرارات دونما اشراف ودونما مبرر حقيقي من الوضع الداخلي والخارجي للاتحاد السوفيتي . واذا قرأ المرء محتويات القانون المؤسس لمفوضية الشعب للشؤون الداخلية سوف يدرك المدى الواسع لعدم كفاية الديمقراطية الكامن في جذر نمو ظاهرة ستالين وانتصارها . فليس ثمة شيء أكثر غموضاً من تعريف الشخص « الخطر » ـ ومن يستطيع حقاً ان يقرر مثل هذا الشيء ؟ ان مبدأ اللجنة الخاصة ذاته كان ضاراً بشكل خاص ، متضمناً ، كما كانت الحال ، ترحيلاً وقائياً لـ « الشخص الذي كان خطراً على المجتمع » ، دونما امكان للدفاع ، وبلا محام ، ولا حق في معرفة تفاصيل القضية ضده . وكانت الأغلبية من قيادة الحزب تحفر قبورها بقبولها هذه البنود التي لم يكن لها مثيل في الصرامة والعسف ، حتى لو كان بامكان دائرة الادعاء العام التدخل والحد لمدى معين من القمع ، ذلك الأمر الذي لم يحدث بأي حال .

ومع انه كان على ستالين ان يظهر شيئاً من المكر ، فقد بقي يمسك بأوراق رابحة حقاً : الوضع الاقتصادي المتحسن وتجهيزات الغذاء عززت شعبيته ، ولكنها جعلت أيضاً اجراءات الطوارئ والارهاب أكثر اثارة للدهشة . وكان ستالين يعطي قيمة لهذه الاجراءات لانها كانت الطريق الوحيد لتصفية خصومه في الماضي والمستقبل ، أي أغلبية الشيوعيين . وفي نهاية تشرين

٢ـ فيشينسكي ، منشفي سابق انضم الى البلاشفة ، كان المدعي العام في محاكمات موسكو الكبرى .

الثاني (نوفمبر) ١٩٣٤ ، اجتمعت اللجنة المركزية مرة أخرى ، وأكدت سياسة الانفراج في الداخل والوحدة المعادية للفاشية في الخارج . وربما أخذ الوضع يصبح غير مريح نوعاً ما بالنسبة لستالين الذي كان لديه سبب للخوف من ان مزيداً من الحد من سلطته سوف يحدث في الأشهر القادمة . وقدم كيروف تقرير المكتب السياسي الى اللجنة المركزية ؛ كان سكرتير الحزب في لينينغراد ، وكان عليه ان يستقر في موسكو في بواكير ١٩٣٥ لكي يعمل في سكرتارية اللجنة المركزية . وقد عاد الى موسكو جميع أعضاء مجموعات المعارضة السابقة ، ومن بينهم راكوفسكي . كان تروتسكي وحده غائباً ، فالى أي وقت يستمر هذا ؟ اذا كانت هناك حرب ، ألم يكن ضرورياً تحقيق الوحدة الوطنية ضد العدو ، وكيف يمكن ان لا يستدعوا أبا الجيش الأحمر ، الرجل الذي ربح الحرب الأهلية ؟ واذ واجه ستالين تهديداً طويل المدى الى هذا الحد أو ذاك ، كان عليه ان يعمل وان يعمل بسرعة .

واذا نظرنا الى الأمور من هذه الزاوية سنجد من الأسهل فهم السبب الذي اغتيل من أجله كيروف . لقد عاد الى لينينغرادفي ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) واغتاله شخص يدعى نيقولاييف في ممر معهد سمولين في عصر الأول من كانون الأول (ديسمبر) . ان الظروف الدقيقة ، اذا لم تكن الدوافع ، للاغتيال معروفة الآن . وقدمت السلطات السوفيتية التفاصيل في المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي (في عام ١٩٦١) . كان نيقولاييف مختلاً عقلياً . فبعد الحرب الأهلية التي حارب في أثنائها في صفوف الجيش الأحمر ، أشغل مناصب ادارية متنوعة دون أي نجاح . وطرد من الحزب في آذار (مارس) ١٩٣٤ ، وكان عاطلاً وممروراً وفريسة سهلة لأية مغامرة . أكان قاتلاً مأجوراً أم كان متعصباً استخدم لهذا الغرض ؟ من المرجح أننا لن نعرف مطلقاً . وما هو مؤكد ، على أية حال ، ان القضية زاخرة ، بما هو غير قابل للتصديق ، وبخاصة اذا تذكرنا ان الموقع هو الاتحاد السوفييتي في وقت أصبحت فيه مفوضية الشعب للشؤون الداخلية كلية القدرة بالفعل . كان

نيقولاييف قد اعتقله حرس كيروف قبل شهر . وقد وجدوا في حوزته خطة لطريق كيروف الاعتيادي وحقيبة وثائق احتوت مسدساً محشواً . واستجوبه زابوروجيتس ، المسؤول الثاني في مفوضية الشعب للشؤون الداخلية في لينينغراد ، وأطلق سراحه بأمر من يهودا مفوض الشعب للشؤون الداخلية . وأوقف للمرة الثانية على جسر لينينغراد وأطلق سراحه مرة أخرى . وهاتان الحقيقتان كافيتان للكشف عن تورط مفوضية الشعب للشؤون الداخلية في اغتيال كيروف . وحسب ما يقوله ميدفيديف (لندع التأريخ يحكم) ، ان بوريسوف رئيس مجموعة حرس كيروف (أو « الغورلا » كما يعرف الآن) ، قد حذره من الخطر ، وذهب هذا التحذير سدى . وبعد الاغتيال مات بوريسوف في حادثة سيارة دبرها عملاء مفوضية الشعب للشؤون الداخلية الذين كانوا يأخذونه الى سمولين (خروشوف في محاضر المؤتمر الثاني والعشرين ص٥٠٥) . وأعدم هؤلاء العملاء جميعاً في وقت ما بعد ذلك . وجرت محاكمة نيقولاييف سرا بدون حضور محامين . وفي ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ، أعدم نيقولاييف وعدد آخر من الأشخاص اتهموا بالتواطؤ معه . وأعفي المسؤول عن مفوضية الشعب للشؤون الداخلية في لينينغراد وكذلك نائبه من منصبهما وهلكا في أثناء القمع الواسع . واعترف يهودا عندما حوكم في ١٩٣٨ انه حرّض على الاغتيال ولكن بأوامر من ريكوف وبنوكيدزه . وبالطبع ، هذا التفصيل الأخير غير دقيق . فمن ، غير ستالين ، أعطى الأوامر الى يهودا ؟ ولا يوجد ، بالطبع برهان خاص ، ومن المحتمل ان لا يوجد برهان مطلق على مسؤولية ستالين ، ولكن يمكن ملاحظة ان اغتيال كيروف كان لمصلحته بكل معنى من المعاني .

وتخلص ستالين من رجل ، كان يبدو بصورة متزايدة خليفة محتملاً ،لكونه أقل وحشية وأكثر تواضعاً ، وكان يستطيع أن يلقي بالمسؤولية على عاتق الشيوعيين الذين أراد تصفيتهم . وبفضل الاثارة التي سببها هذا الاغتيال في الرأي العام السوفيتي والحزب ، استطاع تصفية خصومه

المحتملين وتطبيق السياسة التي كان يطالب بها عبثاً لسنوات عديدة .
وباختصار ، سواء أكان ستالين مسؤولاً مباشراً عن اغتيال كيروف(٣) أم مجرد مستفيد منه ، فان هذا الاغتيال شكل انقلاباً حقيقياً ضد الحزب والدولة السوفيتية . وفي مساء الاغتيال ذاته ، شرع ستالين مرسوماً من دون استشارة زملائه في المكتب السياسي ، يقضي بوجوب التعجيل في محاكمات الارهابيين ، تلك المحاكمات التي كانت جارية بالفعل ، وتنفيذ أحكام الموت الصادرة بالفعل حالاً ، مع ان هذه المحاكمات لم تكن بأية حال مرتبطة مباشرة باغتيال كيروف . وأعدم واحد وثلاثون شخصاً في لينينغراد ، وواحد وعشرون في موسكو وعشرات آخرون في أوكرانيا . وأجبرت مفوضية الشعب للشؤون الداخلية نيقولاييف على الاعتراف بفرض مفاده ان مجموعة « زينوفييفيه » تعمل سراً في لينينغراد كانت قد أمرته باعدام كيروف . وزُعِمَ انه كان على القنصل اللاتيفي في لينينغراد ان يحقق اتصال المجرمين بتروتسكي . وزُعِمَ ان مجموعة سرية أخرى قررت ان تغتال ستالين أيضاً . ونحن نعرف الآن ان هذه كانت محض تلفيقات . وكانت هذه هي حال اللص الذي يصرخ « لص أمسكوه » . ولا يوجد سوى أمثلة قليلة بمثل هذه الفظاظة على النفاق والاستفزاز في التأريخ .

في ١٦ كانون الأول (ديسمبر) اعتقل كامينيف وزينوفييف وعدد من الأعضاء السابقين في قيادة الحزب . وبدأت المحاكمة الأولى الكبرى في ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٥ في لينينغراد . وحكم على زينوفييف بعشر سنوات من الحبس ، وعلى كامينيف بخمس سنوات . واعتقل المئات ، وكل

٣ـ ستالين الذي كان كما سنرى لاحقاً ، مسؤولا عن قتل مئات عديدة من آلاف الشيوعيين ، لم يكن يقلق اذا زاد أو نقص الضحايا واحداً . ان افتقاره الى الوازع والأخلاق السياسية سمح له باستعمال وسائل غير قانونية لابقاء نفسه في دست السلطة ولارساء دكتاتوريته .

من اعتقلوا كانوا شيوعيين ورحلوا مدة خمس سنوات كما أمرت اللجنة الخاصة التابعة لمفوضية الشعب للشؤون الداخلية . وطهّر الحزب في ١٩٣٣ و ١٩٣٤ وطرد منه (٨٠٠) ألف عضو في ١٩٣٣ و (٣٤٠) ألف عضو في ١٩٣٤ . وانخفضت عضوية الحزب قليلاً ، ولكنها بقيت كبيرة :

السنة	الأعضاء	المرشحون	المجموع
١٩٣٢	١,٧٦٩,٧٧٣	١,٣٤٧,٣٧٧	٣,١١٧,٢٥٠
١٩٣٣	٢,٢٠٣,٢٥١	١,٣٥١,٣٨٧	٣,٥٥٥,٩٣٨
١٩٣٤	١,٨٢٧,٧٥٦	٨٧٤,٢٥٢	٢,٧٠١,٠٠٨
١٩٣٥	١,٦٥٩,١٠٤	٦٩٩,٦٢٠	٢,٣٥٨,٧١٤

ان الاجراءات المتخذة في نهاية ١٩٣٤ وبداية ١٩٣٥ لم تطل سوى بضع مئات من الشيوعيين ، ولكن الجميع كانوا مهددين . ودعت نشرة اللجنة المركزية في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٤ «الدروس التي ينبغي تعلمها من الأحداث المرتبطة بالاغتيال المقيت للرفيق كيروف» الى تطهير الحزب من أعضاء المجموعات المعارضة السابقة . ووضعت قوائم بالمشبوهين في خلال الاجتماعات كان هناك طوفان من الاتهامات .وجرت في لينينغراد آلاف من أعمال الاعتقال . ووافق المكتب السياسي على جميع هذه الاجراءات لانه ووجه بالأمر الواقع ، وكان قلقاً حول الطريقة التي كان الوضع يتطور بموجبها ، وقد خدع فيما يتعلق بذنب المعارضة الداخلية . واللجنة المركزية لم تعقد اجتماعاً . وفي غضون أسابيع قليلة عاد ستالين الى نهجه ؛ ولكنه لم يستطع أن ينجز ما يريد مباشرة ، لأن أغلبية المكتب السياسي كانت لا تزال ضد اعدام قادة الحزب السابقين . وكانت المسألة بالنسبة لستالين هي انه عزم على ارساء دكتاتوريته الخاصة على أساس النظام السوفيتي النابع من ثورة اكتوبر والاشتراكية . وهكذا كان عليه أن يبدو على انه مواصل لعمل لينين وانه يحدث

قطيعة عنيفة مع الماضي . وكان عليه أن يتقدم مرحلة فمرحلة ، وبهذه الطريقة بدا ضحاياه وكأنهم أعداء الثورة والسلطة السوفيتية . وكان هذا ضرورياً في داخل الاتحاد السوفيتي والخارج على السواء ، وعكس حقيقة ربما كان من العسير ادراكها أو الاعتراف بها : في الواقع انه كان يبني الاشتراكية ، حتى وان كانت أساليبه استبدادية . وبالطبع ، يمكن للمرء ان يعتبر انه كان من الضروري والممكن معاً أن يتصرف بطريقة مختلفة . بيد أن هذه المسألة بالنسبة للمؤرخ نظرية محض مع الأسف ، لأن الأشياء حدثت كما حدثت وليس بطريقة أخرى ، ومن طبيعة التأريخ أن يأخذ مساراً لاشك في غرابته ، غير انه لا يمكن تغييره في أي جانب من جوانبه من اللحظة ذاتها التي يصبح فيها تأريخاً . والاقرار بهذا لا يتضمن بأي طريقة من الطرق الموافقة على ظاهرة ستالين ، وهذا الكتاب يقدم الدليل على مشاعر المؤلف ؛ وبالأحرى انه محاولة لتقديم تحليل موضوعي ، سوف يأخذ في الاعتبار ، بسبب ذلك ، كل الجوانب المتناقضة .(٤) وأغلب المؤرخين الذين كتبوا حول هذه الفترة ركزوا على جانب واحد فقط من الظاهرة . فالبعض شدّد على الجانب الاستبدادي ، وآخرون أكدوا السجل الايجابي للبناء الاشتراكي . وعندي ان كلتا المجموعتين خاطئة ، فالشيء المهم ادراكه هو الرابطة الجدية بين الجوانب المختلفة لظاهرة ستالين .

في بداية ١٩٣٥ كانت أغلبية المكتب السياسي ، بتأييد من أكثرية أعضاء الحزب والرأي العام ، لا تزال تعارض الارهاب ، الذي لم يكونوا يرون حاجة واضحة له ؛ غير ان المكتب السياسي لم يعد قادراً على الحد من نمو ظاهرة ستالين . وهذا هو السبب في ان اغتيال كيروف شكل نقطة انعطاف في التأريخ السياسي لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية .

٤ـ بعد المجلد الثاني من كتابي تأريخ الاتحاد السوفيتي (نشرته المطبوعات الاجتماعية) اتهمني ج . أوزوف في مقالة في «نوفيل أوبزرفاتور» بانني أبرر جرائم ستالين بتفسيرها .

والآن أصبح الحزب تحت رحمة ستالين ، وذلك بدعم من مفوضية الشعب للشؤون الداخلية . وكان من المحتمل ان يغير الوضع تدخل الجيش الأحمر فقط . ولكي يحدث هذا كان يجب أن تتوفر الارادة والقابلية كلتيهما . وكان قادة الجيش الأحمر غير راغبين في التدخل ، في الأقل حتى ١٩٣٦ ، وبعد ذلك لم يكونوا قادرين على هذا . وعزز الجيش الأحمر تقليد الخضوع لسلطة الحزب ، وهذا ما جعل من الصعب عليه التدخل في الشؤون الداخلية للحزب . والذكرى عن دور الجيش الفرنسي ونابليون في الثورة الفرنسية ، والخوف من دكتاتورية عسكرية ، منعت أي امرئ من استخدام الجيش لفرض حل بالقوة لمناظرة سياسية وأيديولوجية أو لنزاع بين القادة . والخطر الحقيقي يكمن في مكان آخر . وفي عام ١٩٧٥ نحن نعرف هذا ، ولكن قبل أربعين سنة خلت كان الانتباه مركزاً على الذكرى المرة لـ ١٨ برومير .

كان ستالين يبذل قصاراه للسيطرة على المكتب السياسي ، ولمنع أي معارضة لسياسته ، غير انه كان لا يزال أمامه معضلات . كان زينوفييف وكامينيف في السجن ، ولكنهما لم يعدما . والبرهان على انه كانت لا تزال أمام ستالين معضلات توفره الحقيقة الماثلة في انه عندما اجتمعت اللجنة المركزية في شباط (فبراير) ١٩٣٥ ، انتخب ميكويان وتشوبار عضوين كاملي العضوية في المكتب السياسي ، وانتخب كل من جدانوف وايخه مرشحين لعضوية المكتب السياسي . وكان قد مات بنوبة قلبية[٥] في ٢٦ كانون الثاني (يناير) وكان ينبغي ان يحل محله عضو جديد كما هو الشأن في حالة كيسروف . ولكن تشوبار وايخه كانا قد دعما كيروف وأعدما في الفترة

٥ـ النوبة القلبية ملائمة جداً ـ لانه كان خصماً للخط الستاليني «الارهابي» ـ وهذا يوحي أنه كان قد استفز . ونحن لا نستطيع في الواقع أن نؤكد أن الحالة كانت هذه ، بصرف النظر عن انها كانت مصادفة سعيدة جداً بالنسبة لستالين الذي تخلص من رفيق قيادي كان قادراً وشعبياً في الحزب ، وكانت آراؤه مشابهة جداً لآراء كيروف .

اللاحقة . وهكذا ، فان نتائج انتخابات المكتب السياسي احترمت ميزان القوى كماكان قائماً في المؤتمر السابع عشر .

ولم يمنع هذا ستالين من الشروع بعهد من الارهاب في داخل الحزب ، كما تظهر أرشيفات سمولينسك بكثير من الدقة والوضوح ، مع ان هذا الارهاب لا يمكن مقارنته ، بأي وجه من الوجوه ، بذلك الذي حدث منذ ١٩٣٦ فصاعداً . وفي الوقت نفسه ، أجبر خصومه المحتملين على التراجع بطرق حسبها بذكاء . كان على ينوكيدزه أن يعتذر علناً في برافدا في ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٥ ، وهوجم غوركي في مقالات عديدة في صحيفة الحزب في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٥) . وفي آذار (مارس) ١٩٣٥ فقد ينوكيدزه منصبه كسكرتير للجنة المركزية التنفيذية للسوفيتات ، وفي حزيران (يونيو) طرد من اللجنة المركزية . وفي هذه الأثناء ، كان ستالين قد حل جمعيتين ، مثلتا بطريقة ما الضمير الأخلاقي للنظام . وكانت هاتان الجمعيتان هما جمعية البلاشفة القدامى وجمعية السجناء السياسيين السابقين . كلتاهما وقعت ، آنذاك ، التماساً يعارض استخدام الموت ضد البلاشفة القدامى . وفي تموز (يوليو) ١٩٣٥ ، حوكم كامينيف سراً وحكم عليه بالحبس عشر سنوات بذريعة انه نظّم مؤآمرة ضد ستالين . وعلى الرغم من ذلك ، فان عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ تميزا بتوازن هش كان ملحوظاً في المؤتمر السابع عشر . وبدا الحزب الشيوعي لا يزال يمارس عمله ، غير أن ذلك لم يكن سوى واجهة . وعقدت اللجنة المركزية وكذلك الأجهزة القيادية في الحزب وجميع مستويات المنظمات القاعدية اجتماعاتها أحياناً . وكانت لجنة تضم بوخارين وراديك وآخرين ، تعد لدستور جديد . ونشر مشروع الدستور في ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٣٦ وأقره مؤتمرالسوفيتات نهاية العام . ونص على المساواة السياسية لجميع المواطنين ، مما جعله يمثل ،نظرياً ، خطوة كبيرة الى الأمام بالمقارنة مع دستوري ١٩١٨ و ١٩٢٤ . وبصرف النظر عن ذلك ، أعلنت الحقوق المدنية الأساس (الحق في العمل ، والاستجمام ، والراحة ، والتعليم

والتقاعد) ، واعترف بالمساواة بين القوميات والجنسين ، وحرية الضمير وحصانة الشخص والمسكن والمراسلة . أما ممارسة الحريات الأخرى فكانت لا تزال مربوطة بـ «مصالح الطبقة العاملة» وينبغي ان تمر من خلال وسيلة المنظمات الجماهيرية والحزب . ووصف الأخير بكونه «طليعة الطبقة العاملة» و «النواة القائدة لجميع منظمات الطبقة العاملة» . وعلى الرغم من هذه التحديدات ، فقد مثل دستور ١٩٣٦ في النظرية في الأقل ، اطاراً قانونياً ملائماً لازدهار الديمقراطية .

وبدا ذلك أكثر جدارة بالثقة لان الاقتصاد السوفيتي كان يسجل نجاحات لا ريب فيها . ففي الحقل الصناعي ، كانت الخطة السنوية الثانية تحصد ثمار التوظيفات والجهد الذي بذل في بداية الخطة الأولى . وكان ناتج الوقود (باستثناء النفط) يزداد بسرعة ، وكان ناتج الحديد وصناعة الفولاذ ينمو بصورة حتى أكثر وضوحاً . وعلى سبيل المثال ، نما ناتج الفولاذ على النحو التالي :

بملايين الأطنان

١٩٣٢	١٩٣٣	١٩٣٤	١٩٣٥	١٩٣٦
٥,٩	٦,٩	٩,٦٩	١٢,٥٩	١٦,٤٠

ولم يكن القطاع المنتج للبضائع الاستهلاكية لينمو بالسرعة نفسها ، ولكن هذا حدث بسبب الأولوية التي منحت عمداً للصناعة الثقيلة . وأنجزت الخطة الخمسية الثانية ، قبل الموعد ، كما حدث مع الخطة الأولى (في أربع سنوات و٣ أشهر) . وبالطبع ، يجب أن نضع في الاعتبار النزوات الاحصائية للفترة ، ولكن النجاحات كانت حقيقية . وكانت الزراعة أيضاً تمر في حالة من التحسن الذي لا مراء فيه . وكان ناتج الحبوب في ازدياد على الرغم من

الحصاد المتواضع لعام ١٩٣٦ .وارتفع مردود الحنطة في الهكتار الواحد من ٧ الى ٩ قناطير . وأخذ يجري التعويض عن الماشية التي فقدت ، وكان انتاج الفاكهة والخضروات في ازدياد بفضل الاستثمارة الخاصة للمزارعين الجماعيين . وشكّل هذا التقدم الاقتصادي ، حتى وان لم يكن بالمقدار الذي قال به ستالين ، الأسس الفعلية التي تطور الارهاب الستاليني استناداً لها ، على خلاف مع هذا التقدم ، والدستور والتقدم الثقافي الرائع الذي حققته الشعوب التي كانت محكومة سابقاً بالجهل .

واستمر القمع داخل الحزب والبلاد بمجموعها حتى آب (اغسطس) ١٩٣٦ مع انه كان لا يزال محدوداً . لقد طال تطهير ١٩٣٥ عشرات ألوف الشيوعيين ، وفي بداية ١٩٣٦ قرر ابدال البطاقة الحزبية الذي أسفر عن ازاحة عدة عشرات الألوف من الآخرين . وما كان جدياً هو الطريقة التي نفذت بموجبها هذه التطهيرات . وكانت قائمة على الاتهامات وتدقيقات مفوضية الشعب للشؤون الداخلية ، ولم يمنح الشيوعيون المبعدون سوى فرصة ضئيلة للدفاع عن أنفسهم . وهذه التطهيرات ، خلافاً للتطهيرات السابقة ، التي أزالت «عناصر وصولية» طالت بصورة رئيسة البلاشفة القدامى ؛ وعانى أولئك الذين طردوا مصاعب في حياتهم اليومية وفي الحصول على عمل . وكانت تجري اقامة أدوات الارهاب . ان وجود اللجنة الخاصة التابعة لمفوضية الشعب للشؤون الداخلية جعل من الممكن ترحيل أي شخص لمدة خمس سنوات بمجرد صدور قرار اداري . وفي ١٩٣٥ أضيفت الى ترسانة القمع قوانين جعلت الموت عقوبة للهرب الى الخارج . وكان أقرباء الجنود الفارين الى الخارج يواجهون النفي تلقائياً . وفي نيسان (ابريل) ١٩٣٥ صدر مرسوم قضى بأن جميع العقوبات ، ومن بينها عقوبة الموت ، سوف تطبق على المواطنين السوفيت ممن تجاوزوا الثانية عشرة . وشهدت مفوضية الشعب للشؤون الداخلية نمواً في دورها . فاضافة الى معالجتها لقضايا الأمن الداخلي والخارجي ، اكتسبت مهمات في الحقل الاقتصادي

أيضاً . وكان مبدأ معسكرات العمل «الاصلاحية» قد أسس أصلاً على الرغبة في اعادة تثقيف منتهكي القانون العام والمضادين للثورة بجعلهم يعملون لصالح المجتمع . ولم يكن حتى ١٩٢٩ الكثير من هذه المعسكرات ، أما عدد الموجودين فيها فلم يكن كبيراً . ومن ١٩٣٠ فصاعداً ، ازداد عدد المعسكرات والمرحلين اليها بسبب قمع الكولاك وجميع الفلاحين الذين عارضوا التجميع الزراعي . والافتقار الى المصادر يجعل من الصعب تماماً اعطاء أرقام دقيقة . ونحن نعرف أنه بحلول عام ١٩٣٣ كان قد رحل منذ عام ١٩٢٩ حوالي (٨٥٠) ألف شخص من الكولاك (أو من الناس الذين اعتبروا من الكولاك) ، ولكن هذا هو تقريباً الرقم الوحيد الدقيق الذي نمتلكه (في رسالة من مولوتوف الى ستالين في ايار / مايو ١٩٣٣) . ونعرف أيضاً انه من ١٩٣٠ فصاعداً ، أكملت عدة مشاريع بناء كبرى تحت اشراف المديرية السياسية الموحدة للدولة . فمثلاً ، كان هذا ينطبق على قناة البحر الأبيض ـ بحر البلطيق (قناة ستالين) التي استخدمت الى حد (٣٠٠) الف شخص من معسكرات العمل الاجباري التي أقيمت في الشمال . وكانت المعسكرات الأولى قد أقيمت منذ عام ١٩٢٣ في جزر سولوفيتسكي (وقد اعترف بها في كتاب سوفيتي نشر في ذلك الزمن) . واذا صرفنا النظر عن أرشيفات سمولينسك ، فان مصادر معلوماتنا حتى سنة ١٩٥٣ ، كانت من روايات وشهادات الفارين من السوفيت ، ومن الأجانب الذين كان قد جرى ترحيلهم ، أما بعد ١٩٥٣ ، فقد أعطت المطبوعات السوفيتية نفسها المرحلين الذين أطلق سراحهم وأعيد اعتبارهم فرصة للتعبير عن أنفسهم .

لقد بدأت محاكمة موسكو الكبرى الأولى في ١٩ آب (اغسطس) ١٩٣٦ . وهذا التأريخ هام لان ستالين كان لأول مرة ينفذ خطة لم يكن قادراً على وضعها في حيز التطبيق منذ عام ١٩٣٢ ؛ كان يوسع الارهاب المعادي للشيوعية . واحتمى بمهارة لا يمكن تصديقها تماماً وبجرأة لا مثيل لها براية

الثورة الاشتراكية . وأجبر القادة التأريخيين لثورة ١٩١٧ على الاعتراف بذنبهم . وفي عالم حيث كانت قعقعة السلاح تتعالى باطراد أبداً(٦) وحيث كانت النازية تزدهر وكانت النزعة المعادية للسوفيت أقوى منها في أي وقت مضى ، نجح في ان يجعل أكثر تلفيقات شرطة السياسة تفاهة تبدو قابلة للتصديق . وكان على المتهمين ان يكرروا اعترافاتهم في المحاكمات بفضل الأساليب المتبعة للتعذيب(٧) (التعذيب الجسدي ، استعمال المخدرات ، التهديدات لاسرهم ، والضغوط السياسية والايديولوجية) . وجعلت اعترافات المتهمين الارهاب والقمع الواسع يبدوان مبررين . وكانت قيادة الحزب والكومنتيرن قد ووجهتا بالأمر الواقع . فكيف كان يمكن للناس أن تساورهم الشكوك حول المؤامرة حينما سمعوا زينوفييف أو كامينيف يصرح بأنهم كانوا عملاء الغستابو وانهم كانوا قد تآمروا لاغتيال أعضاء المكتب السياسي ؟ والشيء الأكثر سوءاً كان في الواقع هو ان ستالين نفسه اغتال عدداً معيناً منهم . وبالتأكيد عضوين كاملين تشوبار وكوسيور ، وثلاثة مرشحين ايخه ، وبوستيشيف ، وورودزوتاك . وربما كان مسؤلاً عن موت كويبيشيف ، وبالتأكيد عن موت أورجونيكيدزه ، وربما عن موت كيروف . وهكذا ، جعل المتهمين يعترفون بجرائم اقترفها هو نفسه .

٦ـ بدأت الحرب الأهلية الاسبانية في ١٦ تموز (يوليو) ١٩٣٦ . عندما تمرد الجنرال فرانكو ، بمساعدة هتلر وموسيليني ، على الحكومة الديمقراطية المقامة قانونياً .

٧ ـ اننا لا نعتقد ان من الضروري ان نفصل في هذه الأساليب المعروفة جيداً الان ، لان هدفنا ليس ان نقدم وصفاً مفصلاً للارهاب الستاليني ، بل ان نعطي عرضاً عاماً لظاهرة ستالين وان نفسرها . وعندي ان كتاب آرثر لندن «حول المحنة» (ON TRIAL) يقدم فكرة دقيقة الى حد بعيد لما حدث عند عقد المحاكمات . وقد أجيز التعذيب في ١٩٣٧ (في برقية أرسلها ستالين في كانون الثاني / يناير ١٩٣٨ ، والتي أستشهد بها خروشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي) . ولكنه استخدم قبل ذلك بوقت طويل .

وكانت ثمة محاكمتان كبيرتان نظمتا وفق السيناريو ذاته . ففي عام ١٩٣٧ ، حوكم بياتاكوف ، وراديك وآخرون ، واعترفوا بذنبهم وأغلبهم أعدم . وفي ١٩٣٨ جاء دور بوخارين وريكوف وبضعة أخرين . وانتحر تومسكي في ١٩٣٦ ، وهلك اورجونيكيدزه في ١٩٣٧ . فاما انتحر وأما قتله ستالين . ويهودا الذي كان مسؤولاً عن مفوضية الشعب للشؤون الداخلية كان قد فصل من منصبه وأرسل الى السجن في ١٩٣٧ ، ثم حوكم وأعدم في ١٩٣٨ . وحل محله يجوف الذي اعتقل هو أيضاً وأعدم في ١٩٣٩ . وتقريباً جميع أولئك الذين كانوا في قيادة الحزب في فترة ١٩١٧ ـ ١٩٢٢ أعدموا على هذه الشاكلة ، بعد ان كانوا قد اعترفوا بانهم كانوا عملاء الغستابو أو عملاء الشرطة السرية اليابانية ، غير انه اذا استثنينا اعترافاتهم ، لم يقدم دليل مادي على ذنبهم مطلقاً .

وعلى الرغم من القواعد التي أقرها المؤتمر السابع عشر ، فإن الأجهزة القيادية للحزب لم تستشر ، وكان ثمة سبب وجيه جداً لهذا ـ ان الأغلبية كانت ضد هذه السياسة . وكان هذا هو السبب في ان ستالين عمل على اغتيالهم . دعونا نأخذ اللجنة المركزية التي انتخبت في المؤتمر الحادي عشر ، وهو آخر مؤتمر حضره لينين :

أندرييف	مات في ١٩٧٢
بوخارين(٨)	أعدم في ١٩٣٨
دزرجينسكي	مات في ١٩٢٧
ياروسلافسكي	اختفى في ١٩٣٨
كالينين	مات في ١٩٤٦
كامينيف	أعدم في ١٩٣٦
كورتكوف	أعدم في ١٩٣٧

٨ـ أولئك الذين وضع خط تحت أسمائهم ماتوا نتيجة الارهاب الستاليني .

كويبيشيف	مات في ١٩٣٥
لينين	مات في ١٩٢٤
مولوتوف	
اورجونيكيدزه	انتحر في ١٩٣٧
بيتروفسكي	حبس لمدة عشرين سنة
راديك	حبس في ١٩٣٧
راكوفسكي	أعدم في ١٩٣٧
زودزوتاك	أعدم في ١٩٣٨
ريكوف	أعدم في ١٩٣٨
سابرونوف	أعدم في ١٩٣٧
سيمرنوف أ .ب	اختفى في ١٩٣٨
سوكولينكوف	أعدم في ١٩٣٨
ستالين	مات في ١٩٥٣
تومسكي	انتحر في ١٩٣٦
تشوبار	أعدم في ١٩٣٨
تروتسكي	اغتيل في ١٩٤٠
فوروشيلوف	مات في ١٩٧٠
زلنسكي	أعدم في ١٩٣٧
زينوفييف	أعدم في ١٩٣٦

وهكذا ، فان ستالين أعدم أو اغتال (أو أجبر على الانتحار) أو رحّل ١٦ عضواً كاملاً في المكتب السياسي من أصل ٢٦ عضواً ؛ وحدث مصير مماثل لـ ٦ من عشرة أعضاء في المكتب السياسي لعام ١٩٢٢ ولـ ٨ من ١٣ عضواً في المكتب السياس لعام ١٩٢٤ ، ولـ ٩ أشخاص من أصل ١٧ رجلاً انتخبوا الى المكتب السياسي بعد المؤتمر الخامس عشر الذي عقد في ١٩٢٧ .

وهلك في ظروف مأساوية ٢٠ عضواً من أصل ٣١ عضواً انتخبوا الى المكتب السياسي في الفترة من ١٩١٩ الى ١٩٣٥ . والشيء نفسه انطبق على مستوى اللجنة المركزية وسكرتاريي المناطق والمحافظات والمحليات . وشملت محاكمات موسكو العلنية أقلية ضئيلة فقط من الشيوعيين . وأغلب الشيوعيين الذين اعتقلوا أعدموا أو رحلوا دون محاكمة علنية ، وفي أغلب الحالات دون محاكمة بتاتاً . وفي ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ أرسل يجوف الى ستالين ٣٨٣ قائمة بالرفاق القياديين الذين كانوا يجب أن يحاكموا في محكمة عسكرية ، ولم يكن بالنسبة لهم سوى حكم واحد ممكن (هو الموت) الذي كما قال خروشوف (في التقرير السري للمؤتمر العشرين) كان قد قرر سلفاً . وصادق ستالين ومولوتوف على هذه الأحكام (خطاب سفيرديوك ، النائب الأول لرئيس لجنة الرقابة الحزبية ، في المؤتمر الثاني والعشرين) .

ولا يمكن مقارنة هذا الارهاب بارهاب الثورة الفرنسية ولا بارهاب الحرب الأهلية ، ولهذا سببان . لم تكن الدوافع الثورية تبرره بأي حال ، وكان أكثر دموية بحيث لا تصح المقارنة . ففي أثناء ارهاب ١٧٩٣ ـ ١٧٩٤ مات حوالي (٣٠) ألف انسان . وفيما يتعلق بالارهاب الأحمر في أثناء الحرب الأهلية ، فان ضحاياه لم يصلوا أكثر من (١٥٠) ألف شخص ، حتى بالنسبة للمصادر الأكثر عداءاً للشيوعية . ولكن ضحايا الارهاب الستاليني في فترة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ . كانوا يعدون بعدة مئات الآلاف ، ونحن هنا نشير فقط الى أولئك الذين أعدموا وليس الى أولئك الذين هلكوا في معسكرات العمل الاجباري . وانضم الى الموظفين الحزبيين اقتصاديون ، ومثقفون ، شيوعيون أجانب ، وكثير من الشيوعيين في الجمهوريات الاتحادية والمستقلة ذاتياً الذين كانوا من قومية غير روسية ، وقادة الكومسومول والنقابات . ولسنا معنيين هنا أن نقدم تقريراً مفصلاً حول هذا القمع الواسع . وقد رأينا ما حصل على مستوى المكتب السياسي واللجنة المركزية . وانطبق الشيء نفسه على جميع مستويات الحياة السوفيتية . وهكذا دمّر هذا القمع الواسع الحزب .

وتحت ضغط مفوضية الشعب للشؤون الداخلية كان البلاشفة يتهم بعضهم بعضاً . وفي شباط (فبراير) ١٩٣٧ كان على اللجنة المركزية ان تصادق على هذه السياسة ، وهي التي لم تستطع ان تمنع مفوضية الشعب للشؤون الداخلية من ان تعتقل ثلثي أعضائها وان تعدمهم . إن أغلبية أعضاء قيادة الحزب في زمن ثورة اكتوبر أعدموا . ومعظم الرجال المسؤولين في لجنة التخطيط وعدد كبير من مفوضي الشعب والسفراء ماتوا في الغليان . فمثلاً ، ان اثنين من نواب رئيس مجلس مفوضي الشعب ، ورئيس مجلس مفوضي الشعب في جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية ، ونوابه الاثنين ، والعديد من مفوضي الشعب للاتحاد ، والكثير من رؤساء مجالس الجمهوريات الاتحادية الأخرى (من بينها اوكرانيا ، اذربيجان ، جورجيا ، طاجيسكتان ، أرمينيا) أو الجمهوريات المستقلة ذاتياً كانوا ضحايا القمع الستاليني . وهلك القسم الأعظم من قادة لجان الحزب المركزية في الجمهوريات الاتحادية (في أوكرانيا ، اوزبكستان ، طاجيكستان ، تركمانستان ، ارمينيا ، جورجيا) . وعانت المصير نفسه أغلبية اللجنة المركزية للكومسومول .

وتحرك ستالين أيضاً ضد الجيش الأحمر . ففي ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٣٧ . نشرت الصحافة السوفيتية أنباء زعمت ان مؤآمرة عسكرية كانت قد اكتشفت وأعدم المحرضون عليها . وكان أولئك الذين تورطوا فيها هم المارشال توخاتشيفسكي ، نائب مفوض الشعب للدفاع . والجنرال ياكار ، قائد منطقة كييف العسكرية ، والجنرال أوبوريفتش قائد منطقة روسيا البيضاء العسكرية ، وجنرالات آخرون كثيرون . وكان غامارنيك ، المفوض السياسي الرئيس للجيش ، قد انتحر قبل عدة أيام . وكان معظم الجيش الأحمر قد أُهلك حرفياً تماماً بالقمع . فقد خسر عشرات ألوف الضباط الجيدين ، كما رحّل عشرات ألوف الآخرين . ودعونا نشر ، من بين الضحايا ، الى المارشالين بلوتشر ويغوروف ، والجنرال فاتسيتس ، والكثير من الادميرالات ، ومعظم الضباط المسؤولين عن الاكاديميات العسكرية . وفي الجملة ، راح ضحية

القمع الستالينين ٣ من ٥ مارشالات ، و١٣ من ١٥ قائد جيش و٥٧ من ٨٥ قائد فيلق ، و ١١٠ من ١٩٥ قائد فرقة .

وكان القمع بالشدة نفسها في حقل الثقافة . لقد أزال ستالين جميع المؤسسات الجديدة التي ظهرت في أعقاب الحرب الأهلية ، مثل جامعة سفيردلوف حتى وان قد ألقى فيها محاضراته التي نشرت مجموعة في كتاب أصبح مشهوراً : أسس اللينينية . وهلك أو قضى سنوات طويلة في أماكن الأبعاد آلاف من المؤرخين والفلاسفة وعلماء الأحياء والرياضة والكتاب والفنانين . وعلى سبيل المثال ، هذا ما حدث لكنورين ، مدير معهد تأريخ الحزب ، وللفيلسوف ستيرن ، وعالم الأحياء فافيلوف ، والكاتبين ماندلستام وبيبل ، والمدير المسرحي مايرهولد .

وطال القمع الواسع أيضاً الشيوعيين الأجانب في موسكو . فقد أعدم السويسري بلاتين والبولندي غانيتسكي ، وهما رفيقان سابقان للينين . وحل الحزب الشيوعي البولندي في ١٩٣٩ . وحدث الشيء نفسه للأحزاب الشيوعية في أوكرانيا الغربية وروسيا البيضاء الغربية . وأصاب القمع قادة الأحزاب في لاتيفيا ، واستونيا ، وليتوانيا (لم تكن جمهوريات البلطيق جمهوريات سوفيتية آنذاك) . وهلك أيضاً أعضاء قياديون في الحزب الشيوعي اليوغوسلافي (من بينهم كوبك سكرتير اللجنة المركزية) . وفي الحزب الشيوعي البلغاري (ومن بينهم بوبوف وتانيف اللذان كانا مع ديمتروف في لايبزغ) . وفي الأحزاب الشيوعية : الصيني ، الكوري ، الايراني والهندي . وأعدم بيلاكون أحد قادة الثورة المجرية في ١٩١٩ . وراح ضحية القمع شيوعيون ألمان مثل ايبرلين ، سكرتير اللجنة المركزية ، الذي كان قد التجأ الى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية .

ولنضرب مثلاً بمنطقة سمولينسك التي تعطي فكرة عن القمع الواسع . ففي حزيران (يونيو) ١٩٣٧ صفيت القيادة الحزبية كلها ، بدءاً بروميانتسيف ، وهو بلشفي قديم كان سكرتيراً لأوبكم وعضواً في اللجنة

المركزية . وقد أزيح ألف من الكوادر الحزبية والسوفيتية في أسابيع قليلة . وامتد القمع ليشمل أسر الضحايا وغير الشيوعيين . ولم تكن أسبابه دائماً سياسية . ان نظام الاتهامات وحجمها كانا على شاكلة بحيث كان سهلاً جداً ان يصبح موجه الاتهام ضحية للقمع هو أيضاً . ورُحّل بهذه الطريقة الملايين من الناس . ونحن لا نعرف أعدادهم ؛ انها كانت عالية ، ولكن يبدو انه ليس من الممكن تقديم أرقام دقيقة . والمعطيات التي يقدمها بعض الكتاب الغربيين غالباً ما تكون قائمة على حسابات خيالية . وليس لدينا من الجانب السوفيتي سوى نتف من المعلومات ، نشرت في مكانات متنوعة بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي . وهي بالتأكيد تشكل عدة ملايين . ويقول ميدفيديف ان ٥ ملايين انسان اعتقلوا من ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ ، ويذكر انه قد أعدم بين (٤٠٠) ألف و (٥٠٠) ألف شخص . هذه هي الأرقام التي تبناها نعوم ياسني (كان على أية حال ، معادياً للسوفيت بشدة) واسحاق دويتشر . ولا يحتاج المرء الى أكثر من قراءة خطابات القادة السوفيت في المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي في ١٩٦١ . ان شيليبين (كان آنذاك رئيس لجنة أمن الدولة . وهو الآن رئيس المجلس المركزي للنقابات) يقيم الدليل على ان ستالين ومولوتوف وكاغانوفيتش كانوا مسؤولين عن هذه الاعدامات (التقرير الاختزالي المنشور في «دفاتر الشيوعية» الصفحتان ٢٩١ ـ ٢٩٢) ، ولكن من الصعب أن نتخيل ان الأعضاء الآخرين في المكتب السياسي لم يكونوا مدركين لما كان يحدث ؛ وهذا ما كان ينطبق على جدانوف وخروشوف (على أية حال ، لم يكد يستطيع القول بهذا في ١٩٦١ عندما كان سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي السوفيتي) ، وميكويان وكثيرين غيرهم .

وصرح سبيريدونوف (عضو اللجنة المركزية وسكرتير الحزب في لينينغراد) : «انفجرت موجة متواصلة من الاجراءات القمعية طيلة أربع سنوات فوق رجال لم يفعلوا شيئاً مشيناً . وأعدم الكثيرون من دون تحقيق مناسب

ومحاكمة استناداً الى قضايا لفقت على عجل . ولم يكن ضحايا القمع هؤلاء العمال حسب ، بل وأسرهم كذلك ، ومن بينهم الأطفال . . » (المصدر ص٣٥٨) . وأضاف د . لازوركينا (لينينغراد) : « وأي جو خلق في ١٩٣٧ ؟ وساد الخوف الذي لم نكن نحن اللينينيين مسؤولين عنه . ولم يكن الناس يستطيعون الاعتماد على شيء . وذهبنا حد الافتراء على بعضنا البعض (المصدر السابق ، ص٣٦٤) . وتحدث آخرون عن التطهيرات في جورجيا ، وارمينيا ، وروسيا البيضاء . لقد كانت الدراسات من هذا النوع قليلة في التأريخ . دعونا نفكر في مئات ألوف الشيوعيين الذين تعذبوا جسدياً وفكرياً ، وقد اضطهدهم أولئك الناس الذين كانوا يجب أن يحموهم ، اخوانهم في السلاح بالذات ، ضحايا نظام بنوه بأيديهم ورجل ضمنوا نجاحه . ان أعضاء المكتب السياسي نسبوا حتى الى مفوضية الشعب للشؤون الداخلية كل الجرائم التي برّأوا منها ستالين . وكتب ايخه الى ستالين : « ان الاعترافات التي وضعت في ملفي ليست تافهة حسب ، بل وتحتوي آراء افترائية حول اللجنة المركزية . . . والآن أرغب في الحديث عن الدور الأكثر خسة في حياتي وذنبي الجدي فيما يتعلق بالحزب ونفسي » ـ هذه هي الحقيقة في انها أعطيت تحت التعذيب ، واختتم : « لم أخنك أو أخن الحزب مطلقاً . . . » (٢٧ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٣٩) .

وهكذا ، كان جدانوف ، الذي أصبح سكرتير الحزب في لينينغراد في ١٩٣٤ . العضو الوحيد المتبقي في السكرتارية المنطقية . ان الأعضاء السبعة في اللجنة المركزية قد أعدموا . ولم يبق سوى ٩ من ٦٥ عضواً في اللجنة المنطقية . واضطلع خروشوف بدور هام في التطهير في موسكو واوكرانيا (وهذا لا ينقص من الفضائل التي كشف عنها في المستقبل) ، كما فعل ميكويان في ارمينيا . وتقدم ايخه بالتصريح المر التالي : « ليس ثمة شيء أكثر مرارة في ايلامه من ان يجد المرء نفسه في سجون حكومة ناضل دائماً من أجلها » (١ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٣٩) . وقال رودزوتاك : « توجد

في مفوضية الشعب للشؤون الداخلية كتلة لم تجر تصفيتها بعد ، تنتزع الاعترافات من الأبرياء وتنظم المحاكمات الصورية . . . وأساليب التحقيق هي على شاكلة بحيث تجبر الناس على الكذب ، والافتراء على ناس أبرياء تماماً خلافاً لأولئك الذين اتهموا سلفاً . . . »

ان بوخارين(٩) الذي عذّب وأجبر على الكذب على نفسه وعلى الآخرين ، كتب رسالة طويلة لزوجته قبل أيام من اعدامه : «ان حياتي تصل الى نهايتها ، وها أنا أحني رأسي تحت فأس الجلاد ، وهي ليست فأس البروليتاريا ؛ وهذه الأخيرة تنسب لنفسها عدم الرحمة ، ولكنها غير ملطخة أيضاً . وهكذا أستطيع أن أشعر كم أنا عاجز أمام هذه الماكنة الجهنمية التي اكتسبت بمساعدة الأساليب القروسطية من دون شك سلطة هائلة تنتج على نطاق واسع الافتراءات وتقوم بالأعمال بجرأة وثقة . واذا كنت قد اقترفت أخطاء أكثر من مرة حول أي الأساليب يجب ان يستخدم في بناء الاشتراكية ، فلتحكم الأجيال القادمة عليّ ليس أقسى مما حكم عليّ فلاديمير ايليتش . لقد كنا نسير نحو هدف واحد لأول مرة على الاطلاق ، ولم يكن الطريق مرسوماً من قبل . كيف تغيرت الأزمان ! آنذاك كرست برافدا صفحة كاملة للمناقشة ؛ وكل واحد ناقش أي الوسائل والأساليب كانت أفضل ، اختصمنا ثم اصطلحنا ، وكان كل واحد يسير في وحدة مع الآخرين . انني أتوجه اليكم بالنداء ، يا جيل المستقبل من قادة الحزب ، فسوف تكون احدى مهماتكم التأريخية ان تحققوا بعد الآوان في الجرائم البشعة العديدة ، والتي تتكاثر في أثناء الفترة الراهنة المرعبة ، والتي تشب مثل اللهب وتخنق الحزب . انني أناشد جميع أعضاء الحزب» .

٩- «ليس بوخارين المنظر الأكثر قيمة والأكبر في الحزب حسب ، بل ويعتبر أيضاً وبحق محبوب الحزب كله» . (ويواصل لينين نقد نظرياته ، المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٦ ، ص٥٩٥) .

وكلمات الرجل ، الذي دعاه لينين بـ «طفل الحزب المحبوب» ، ذات رنين خطير اليوم ، وتجبرنا ان نبذل جهداً عقلياً ضرورياً لفهم ظاهرة ستالين . وبحلول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٨ اتخذت أبعاداً بحيث جعلت نفسها محسوسة في كل ميدان اقتصادي واجتماعي من ميادين الحياة . وعلى الرغم من النزعة الشمولية الاستبدادية الستالينية ، فان الاقتصاد الاشتراكي توسع حتى ١٩٣٧ . وكان سبب هذا هو جوهره ذاته ، أي اضفاء الطابع الاجتماعي على وسائل الانتاج والتبادل ، والقدرة على النمو التي امتلكها باستقلال تام عن أي نظام سياسي أو أسلوب في الادارة . والأخير دون أي شك ألقى بثقله الى هذه الدرجة أو تلك على النمو الاقتصادي . وبهذا المعنى اضطلعت ظاهرة ستالين بدور سلبي من خلال كبحها هذا النهوض .

وبحلول عام ١٩٣٨ أصبح الارهاب من السعة بحيث استحال الى عقبة أمام النمو الاقتصادي نفسه . وكانت الخطة الخمسية الثالثة ، التي تم تبنيها في المؤتمرالثامن عشر في ١٩٣٩ فقط ، قد بدأ تنفيذها حقيقة في ١٩٣٨ . والانتقال الى اقتصاد الحرب بسبب التهديدات للسلم أشاع البطء في التوسع الاقتصادي . فقد توجب تخصيص مبالغ أكبر للجيش(١٠) . ولصناعة الأسلحة ولتطوير القسم الشرقي من البلاد الذي كان أقل عرضة لو حدث غزو . وهذا لا يفسر لماذا لم يكن ثمة نمو في ناتج الفولاذ بين ١٩٣٧ و ١٩٣٩ .(١١) ان اختفاء مئات الألوف من الملاك الاداري المؤهل وما ترتب عليه من فوضى في الانتاج هما السبب الوحيد لهذا الركود .

وادراك هذا كان السبب بلاشك في التخفيف من الارهاب . وفي ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٨ ، صوتت اللجنة المركزية ومجلس مفوضي

١٠ـ كانت الميزانية العسكرية تمثل ٣,٩ في المئة من الميزانية السوفيتية في ١٩٣٣ و ١٦,١ في المئة في ١٩٣٦ . و ٢٥,٦ في المئة في ١٩٣٩ .

١١ـ بملايين الأطنان ـ ١٩٣٧ = ١٧,٧ ، ١٩٣٨ = ١٨,١ ، ١٩٣٩ = ١٧,٦ .

الشعب لصالح خفض القمع (لم ينشر ذلك علناً) . وأعلن في ٨ كانون الأول (ديسمبر) ان يجوف الرجل المسؤول عن مفوضية الشعب للشؤون الداخلية كان يغادر منصبه . ويتحمل يجوف مسؤولية جسيمة فيما حدث . ان مصطلح «ايجوفشخينا» أو فترة يجوف يستخدم لتحديد هذه الفترة من الارهاب . انه حقيقة وزيف معاً . فيهودا ـ الذي كان مسؤولاً عن المفوضية هذه قبله ، وكذلك خلفه بيريا كانا بالدرجة ذاتها من القسوة والطغيان . يضاف الى ذلك ، ان مفوضية الشعب للشؤون الداخلية كانت سلطة ستالين العلمانية الوحيدة ، محكمة تفتيشية ، مع ان محكمة التفتيش هذه يمكن ان تكون الى هذه الدرجة أو تلك تعسفية واستبدادية . وعندما كان يجوف مسؤولاً عنها وصلت ذرى القسوة والارهاب . ولذا فان تصفية يجوف[١٢] مثلت درجة من الانفراج . وقد عذّب وأعدم هذه المرة عدة آلاف من ممارسي التعذيب الأكثر وحشية . وأطلق سراح بضعة آلاف . أمثال مارشالات المستقبل بوكوسوفسكي ومرتسكوف ، وغورباتوف جنرال المستقبل ، وعالم الطبيعة لانداو وباني الطائرة توبوليف . وهبط عدد الاعتقالات الجديدة . ولكنها لم تتوقف على أية حال . وقد أعدم ايخه في ١٩٤٠ ـ كما اعتقل الكثيرمن الضباط الذين خدموا في اسبانيا عندما عادوا الى الوطن وأعدموا . وهذا ما حدث لانطونوف ـ أوفسينكو (الذي استولى على قصر الشتاء في ١٩١٧) . وواجه المصير نفسه الجنرال ستيرن وغوريف وآخرون كثيرون غيرهم .

كانت هذه الظروف التي افتتح في ظلها المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي السوفيتي في نيسان (ابريل) ١٩٣٩ . ولم يقل أحد كلمة حول أولئك الذين هلكوا ، مع أنهم انتخبوا الى عضوية اللجنة المركزية في المؤتمر السابق . وقدم ستالين التقرير السياسي . والقى جدانوف التقرير حول

١٢ـ عيّن يجوف مفوضاً للنقل البحري والنهري الداخلي ، واختفى في نهاية كانون الثاني (يناير) واعدم في تأريخ غير معروف .

الحزب . وكانت العواصف تتجمع فوق الاتحاد السوفيتي . ففي الشرق كانت القوات السوفيتية واليابانية تخوض معارك طاحنة حول بحيرة خاسان ، وفي الغرب ، كان النازي الذي ابتلع النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، يهدد بمهاجمة الاتحاد السوفييتي ، بمباركة الفرنسيين والبريطانيين الذين وقعوا اتفاقيات ميونيخ مع هتلر في ايلول (سبتمبر) ١٩٣٨ . وفي اسبانيا ، كانت الحرب الأهلية تنتهي بانتصار لفرانكو . وكان الاتحاد السوفيتي الأضعف من ألمانيا الهتلرية اقتصادياً وعسكرياً ، قد ازداد ضعفاً بالارهاب الذي وجه ضربة شديدة الى الجيش الأحمر والاقتصاد . وقد سحق ستالين الحزب لكي يصبح سيده وليصفي خصوم سياسته ودكتاتوريته في الماضي والحاضر والمستقبل . وأصبحت دكتاتورية البروليتاريا متطابقة مع دكتاتورية الحزب بعد الحرب الأهلية . وفي ١٩٣٩ ، تطابقت مع دكتاتورية رجل واحد . وقال الأخير في تقريره : «لا يمكن أن يقال ان التطهير لم يقترن بأخطاء جدية . ومن المؤسف انه كان هناك من الأخطاء أكثر مما يمكن أن يكون متوقعاً . ومما لا شك فيه لن نكون بحاجة مرة أخرى الى اللجوء الى طريقة التطهيرات الواسعة» (مسائل اللينينية ص٦٢٥) .

وكان الملايين من المواطنين السوفيت لا يزالون مرحلين ، وكان ثلاثة أعضاء في المكتب السياسي هم تشوبار وايخه وبوستيشيف لا يزالون في السجن ، وسرعان ما سيعدمون . وأعدم ياكوفليف في أثناء المؤتمر . ولم يكن قد بقي من مندوبي المؤتمر السابع عشر سوى ١٧ مندوباً من أصل ١٨٢٧ مندوباً حضروا المؤتمر الثامن عشر . وفي الوقت نفسه مرّ الاقتصاد السوفيتي بتحويل مؤثر . لقد ولد مجتمع جديد . فقد انخفضت الأمية وحتى اختفت بين الجيل الفتي . وكانت الثقافة منتشرة على نطاق واسع بين الجماهير ، وحتى بين أولئك الذين كانوا سابقاً من أكثر الناس تخلفاً ، لقد برزت ظاهرة ستالين وازدهرت في تربة الاشتراكية . ليس نتيجة طبيعة لها ، بل بالأحرى نتاجاً للظروف المتحصلة في زمان ومكان معينين . ومنذ ١٩١٧ لم

يكن ثمة نقص في المحن التي كان على الثورة الاشتراكية الأولى في التأريخ ان تواجهها . وجلبت الحرب العالمية الثانية محناً أخرى بالصعوبة ذاتها في الأقل .

ـ ٥ ـ

محنة الحرب العالمية الثانية

لم يمر الاتحاد السوفيتي في فترة ١٩٣٤ ـ ١٩٤١ بنجاح كامل في الشؤون الخارجية . وعلى أية حال ، لم يكن ثمة نقص في الظروف المخففة . فالدول الرأسمالية الديمقراطية الكبيرة في الغرب لم تفهم الطابع الجديد للنازية والتهديد الذي مثلته للمدنية . وفي الأصل رأت فيه بعض الأحيان ترياقاً مقلقاً للشيوعية . ولكن سرعان ما أصبح هتلر تهديداً للغرب كما هو للشرق . ومنذ ١٩٣٣ ، لاحظ لطفينوف ، مفوض الشعب للشؤون الخارجية ، ان «مدفعاً يمكن ان يطلق نحو الشرق يستطيع ان يطلق النار نحو الغرب» . ولو ان تحالفاً واسعاً معادياً لهتلر أقيم قبل عدة سنوات مما أقيم ، لكان بقدرته ان يمنع الحرب العالمية الثانية ولجعل من الممكن سحق الهتلرية قبل أن تصبح خطرة . ومع ان روزفيلت كان معادياً للنازية ، فان الولايات المتحدة الأمريكية كانت محايدة وعزمت على البقاء كذلك . وكان لدى فرنسا حوافز معادية لهتلر ، ومن هنا جاء توقيع الحلف الفرنسي ـ السوفيتي في ١٩٣٥ ، ولكنها لم تواصل سياستها حتى نهايتها المنطقية . وني النهاية تبنت فرنسا السياسة البريطانية . التي كانت معادية للشيوعية والسوفيت أكثر من عدائها للنازية بكثير . وكان هذا واضحاً بسطوع في أثناء الحرب الأهلية الاسبانية عندما

اختارت حكومة الجبهة الشعبية التي رئسها ليون بلوم عدم التدخل في الحرب الأهلية (ولكن مع وخزات الضمير) لان هذا ما كانت انكلترا قررته . وفي الختام ، لم تبذل الولايات المتحدة ولا بريطانيا العظمى ولا حتى فرنسا أي جهد حقيقي لعقد تحالف مع الاتحاد السوفيتي ضد هتلر . وما هو أسوأ ، ان بريطانيا وفرنسا سلمتا ، بتوقيعهما اتفاقيات ميونيخ في ايلول (سبتمبر) ١٩٣٨ ، تشيكوسلوفاكيا الى هتلر ، ومن ثم حاولتا توجيه تهديد النازي نحو الشرق .(١)

ان الاتحاد السوفيتي حاول ، في مواجهة الخطر الهتلري ، ان يعزل هتلر وان يصل الى اتفاق مع الغرب . وتتحمل بريطانيا ، وبدرجة أقل فرنسا المسؤولية عن فشل كان له عواقب درامية لأنه أفضى الى الحرب العالمية الثانية . على أية حال . هل يعني هذا ان السياسة السوفيتية كانت كاملة ؟ هذا ليس رأينا . وضعفها ينبع من تقليل ستالين من شأن التهديد النازي وطابعه الجديد . وقد رأينا ان هذه كانت هي الحال في ١٩٣٣ ، واستمرت حتى ١٩٤١ . ان احدى عواقب السياسة التي تبناها الغرب كانت جعل ستالين أكثر شكوكية في بلدان الغرب الرأسمالية الكبيرة . ولم يستطع ستالين الا التقليل من أهمية الظواهر الديمقراطية وخطر الفاشية . وانه لمحض خطأ ان نخلط النازية بظاهرة ستالين ، كما تفعل الفيلسوفة الامريكية هناء آرندت في كتابها « أصول النزعة الشمولية » . فالنازية شكل سياسي وأيديولوجي للرأسمالية المعاصرة . وهو يقوم على أسس رأسمالية . ولكنه اتخذ أشكالاً تختلف جذرياً عن الأشكال التي وجدت آنذاك في فرنسا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة .

١ـ عقدت فرنسا معاهدة عدم اعتداء مع المانيا عندما جاء فون زينبنتروب ، وزير الخارجية الألماني ، الى باريس في ٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٨ (انظر مراسلات السفراء الفرنسيين في برلين في (Live jaune Français) .

ومن الجهة الأخرى ، نشأت ظاهرة ستالين من الثورة الاشتراكية وازدهرت في فترة البناء الاشتراكي . ولم تكن ظاهرة ستالين وليست هي الشكل الوحيد الذي يمكن للاشتراكية ان توجد فيه أكثر مما كانت النازية وتكون الشكل السياسي والايديولوجي الضروري الذي يجب ان توجد فيه الرأسمالية . فكلا الشكلين كان نتاجاً لتأريخ خاص ، نتاجاً لظروف تأريخية . لدور اضطلعت به شخصيات معينة ، لتأريخين خاصين واحد منهما الماني والآخر روسي والأهداف المبتغاة كانت مختلفة بالمرة ، وللسبب ذاته كان المحتوى الطبقي مختلفاً تماماً . وأوجه الشبه يمكن أن توجد . فمعسكر العمل هو معسكر العمل . والاتهام هو الاتهام ، والتعذيب هو التعذيب ، بصرف النظر عن الشكل الاقتصادي والسياسي . ان التجربة التأريخية السوفيتية لم تنطلق في طريق الديمقراطية السياسية . وهي بتوسيعها الاقتصاد وبتطورها التعليمي والثقافي ، قدمت بلا شك مساهمة في ضمان هو ان الديمقراطية سوف تتحقق في المستقبل البعيد ، بل انها بنت الأسس لتطورها في المستقبل ، ولكنها لم تجعل القادة السوفيت قادرين على ادراك أهمية البنى الديمقراطية ، ولا كيفية ارتباطها بالاشتراكية .

وحتى لينين ، الذي كان تناوله لهذه القضية ، قائماً على أية حال ، استناداً لفهم نظري سليم ، قلل دائماً من شأن أهميتها لأنه بدأ من تجربته الخاصة في روسيا ولم يتمثل التجارب الديمقراطية الا من الخارج وعبر أكثر جوانبها سلبية كما تجسدت بموقف الأممية الثانية في أثناء الحرب العالمية الأولى وفيما بعد خلال الثورتين الاشتراكيتين في المجر والمانيا . وهذا هو السبب في ان كتابات لينين بعد الثورة السوفيتية تحتوي على أحكام عديدة تنتقد البنى الديمقراطية ولا تستطيع أن ترى العمليات الثورية الا من خلال العدسة المشوّهة والمشوّهة لتجربته الخاصة . والتي ظهرت له أكثر قطعية لانه لم تكن هناك تجربة أخرى لثورة منتصرة . وعلى أساس هذه النظرة ، كان من السهل الاستنتاج في ذلك الوقت ، ان الطريق الوحيد الى الاشتراكية هو الطريق

الروسي ، وتبع ذلك الكومنتيرن . ومما جعل الأمر أكثر سهولة رد فعل على «افلاس الأممية الثانية» ، طبعاً ، سلّم لينين بانه يمكن للثورة ان تتخذ أشكالاً مختلفة . وكتب يقول : «لا تقلدوا الثورة الروسية بعبودية» ؛ ولكنه تصور انها (أي الثورات ـ المترجم) سوف تحدث ضمن نموذج دقيق الى حد بعيد يضطلع فيه العنف والقوة والحرب الأهلية بدور أكبر من صندوق الاقتراع أو أية عملية ديمقراطية أخرى . والحقيقة القائلة بأن تجربته الشخصية حددت نظرياته تقيم عليها الدليل الواقعة التالية هي انه بعد النظر في امكان الانتقال السلمي الى الاشتراكية بين نيسان (ابريل) وتموز (يوليو) ١٩١٧ ، لم يكد يأتي على ذكر هذا فيما بعد ، لانه ببساطة تامة كانت الظروف في روسيا قد تغيرت . وملاحظاته الحاسمة حول دور الحرب الأهلية والقوة ، التي يمكن ان توجد في «دكتاتورية البروليتاريا والمرتد كاوتسكي» أو في مؤلفه «ملاحظات حول تأريخ دكتاتورية» يمكن فهمها في ضوء الأزمة الثورية العظيمة التي ميزت نهاية الحرب العالمية الأولى والتي أعقبتها مباشرة . ان الاختلال في التوازن الذي سببته الحرب بدا على نحو وكأن طريق العنف والحرب الأهلية هو الطريق الوحيد الممكن في البلدان الرأسمالية في الغرب . ووجدت أزمة ثورية انطوت على طاقة غنية ، كما أظهرت الثورة الألمانية (على الرغم من انها فشلت) وبدت الأخيرة تظهر تماماً كيف كان البلاشفة على حق ، بما ان غياب الحزب الثوري المنضبط والمعد لفترة طويلة من أجل الثورة ، وانتهازية الاشتراكية الديمقراطية الألمانية وحتى عداءها للشيوعية ، هي التي مكنت في النهاية البرجوازية الألمانية من دحر الثورة الاشتراكية .

ويبدأ لينين في «دكتاتورية البروليتاريا والمرتد كاوتسكي» من الممارسة السياسية الفعلية لكاوتسكي والاشتراكيين الألمان . وليس ثمة شك في ان نقداته من وجهة النظر التأريخية مؤسسة جيداً لان الاشتراكيين ـ الديمقراطيين ساهموا في دحر الثورة الألمانية البروليتارية التي كان يمكن أن تتكلل بالنجاح بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة بوساطة عملية عنف مماثلة

لتلك التي حدثت في فرنسا عام ١٨٧١ أو روسيا في ١٩١٧ . وكانت الحرب والهزيمة قد أضعفت الدولة الرأسمالية ودمرتها . وكانت الأرض قد مهّدت لثورة عنيفة ، وانتزاع للسلطة فوري ووحشي . وكل خبرة لينين في التأريخ قادته الى تأكيد مايلي : «ان الدكتاتورية حكم قائم مباشرة على القوة وغير مقيد بأي قوانين .» «والدكتاتورية الثورية للبروليتاريا حكم يتحقق ويتعزز باستخدام البروليتاريا العنف ضد البرجوازية ، حكم غير مقيد بأي قوانين» (المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٨ ، ص٢٣٦) .

ان انتقاده للديمقراطية مبرر ، ولكنه أفضى به الى التقليل من شأن الدور التأريخي للديمقراطية نفسها . انه لحق ان ليس ثمة شيء مثل الديمقراطية «الصافية» ، وهو مفهوم انتقد كاوتسكي عليه ، ولكن الديمقراطية في مجتمع اشتراكي لا يمكن ان تحد بالميدانين الاقتصادي والاجتماعي . وربما لم يستطع لينين في ١٩١٨ ، وحتى في ١٩٢٣ ، ان يعرف انه بينما كانت الاشتراكية فترة انتقال من الرأسمالية الى الشيوعية ، فانها سوف تستمر لعقود وعقود من الزمن وان الدولة سوف تضطلع بدور متزايد باطراد .

وموضوعات لينين لعام ١٩١٨ تنطلق من وضع تأريخي محدد لم يتكرر ولن يتكرر («لا يقدم التأريخ وجبات ثانية») . ان نقده لكاوتسكي كان مؤسساً جيداً من الناحية التأريخية في ١٩١٨ . ولكن القضايا التي يجب حلهااليوم تختلف جذرياً . وطرح لينين في المؤلف نفسه في عام ١٩١٨ السؤال التالي :

«ان المسألة النظرية مختلفة تماماً : هل دكتاتورية البروليتاريا ممكنة من دون انتهاك الديمقراطية في العلاقة مع الطبقة المستغِلة (بكسر الغين) ؟ وأجاب :

«لا يتكلم (كاوتسكي) حول الشيء الرئيس ، وأعني حقيقة ان البروليتاريا لا يمكن ان تحقق انتصاراً من دون تحطيم مقاومة البرجوازية ، من دون كبح خصومها بالقوة ، وانه حيثما يكون

ثمة «كبح بالقوة» وحيثما لا توجد «حرية» لا توجد ديمقراطية بالطبع»

(المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٨ ، الصفحتان ٢٥٦ ـ ٢٥٧) .(٢)

والحقيقة هي ان متطلبات الثورة والحرب الأهلية قادت البلاشفة الى انتهاك «الديمقراطية» وفي النهاية مست «انتهاكات الديمقراطية» الطبقة العاملة والأحزاب الشيوعية نفسها . وكانت هذه نتيجة للافتقار الى الديمقراطية ذلك الافتقار الذي كانت روزا لوكسمبورغ على حق تماماً في تسليطها الأضواء عليه عند تحليلها للثورة الروسية .

ان الاستعاضة عن «الديمقراطية للأغنياء بالديمقراطية للفقراء» التي تحدث عنها لينين في نص آخر مكتوب في عام ١٩١٨ (حول الديمقراطية والدكتاتورية) (المجلد ٢٨ ، ص٣٧١) لا ينطوي بالضرورة على تحطيم البنى والقوانين الديمقراطية ، وحيثما لم تكن موجودة ـ كما كانت الحال في روسيا ـ فالأمر يستلزم خلقها ، والا فان ثمة مغامرة بسلطة استبدادية كما حدث في فترة ستالين . وما بدا قاعدة في ١٩١٩ كان يجب الكشف عنه باعتباره استثناء في خلال السنوات التالية ، ونتيجة لذلك فان الاستراتيجية التي تبنتها (في الأصل) الأممية الشيوعية برهنت على انها لا تتطابق مع الحقائق في الوضع الواقعي في البلدان الرأسمالية . ومن الجهة الأخرى ، كانت تتطابق بدرجة أكبر بكثير مع الوضع في البلدان المستعمرة (بالفتح) ، حيث كانت حركة التحرر الوطني قادرة على دفع الشعوب نحو الثورة الاشتراكية عبر طرق كانت مختلفة تأريخياً عن طريق الثورة الروسية ، ولكنها تماثلها بقدر ما اضطلعت فيه العمليات الديمقراطية بدور ضئيل . يضاف الى ذلك ، ان الأممية الشيوعية تأثرت بما حدث في الاتحاد السوفيتي ؛ لانه بسبب «تأخر الثورة في البلدان الرأسمالية الكبيرة» ، كان على السوفيت ان يبنوا «الاشتراكية في بلد

٢ـ التأكيد في النص الأصلي .

واحد » . ان الافتقار الى التمييز بين الحزب والدولة في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، وانتصار البيروقراطية والجمود العقائدي الذي حققته ظاهرة ستالين ، كان يضع معضلات هائلة أمام الكومنتيرن . كان مقرها في موسكو وأصبحت مرتبطة باطراد بالسياسة السوفيتية بسبب تأثير الحزب السوفيتي . ولان الحزب السوفيتي كان الحزب الوحيد الحاكم ، فقد أثر مباشرة في الخط العام الذي تبنته الكومنتيرن ، ولهذا السبب بالذات أثر أيضاً في الخط العام للأحزاب الشيوعية الأخرى ، فالكومنتيرن كانت هيئة ممركزة قراراتها ملزمة للأحزاب الأعضاء .

وقبل النكسة في المانيا ، عانت الكومنتيرن هزيمة مدوية في الصين ، حيث كانت قد مجدت التعاون بين الكومنتاغ التابع لشاي كاي شيك والحزب الشيوعي الصيني . ان هزيمة الحزب الشيوعي الألماني في ١٩٣٣ ، وتحطيم هتلر له واجها الأحزاب الشيوعية بقضايا جديدة . ومنعت النزعة العقائدية الجامدة الستالينية قيام مناقشة جدية حول الطرق والوسائل لانجاز ثورة اشتراكية ضد الرأسماليين الذين كانوا يعيدون التنظيم لمكافحة الأزمة الاقتصادية ومنع أية أزمة جديدة ، ولكنها لم تكن قادرة على منع الأحزاب الشيوعية الغربية من التأمل في سياسة جديدة على أساس الهزيمة في المانيا . وكانت ستظهر في فرنسا واسبانيا . في البدء كانت سياسة دفاعية فقط مصممة لتحقيق الوحدة المعادية للفاشية . كان هذا هو هدف الاتفاقية بين الاشتراكيين والشيوعيين الفرنسيين في تموز (يوليو) ١٩٣٤ . وعلى أية حال ، توسع التحالف تدريجياً وأصبح أكثر ايجابية تحت ضغط الحزب الشيوعي الفرنسي وسكرتيره العام موريس توريز . والخيار بين « الديمقراطية أو الفاشية » قاد الشيوعيين الفرنسيين الى ادراك أهمية العمليات الديمقراطية بحد ذاتها وبعلاقتها بالاشتراكية معاً . وقدر آنذاك لـ « الجبهة الشعبية » الفرنسية و « الجبهة الشعبية » الاسبانية أن تولدا . انه لحقيقة ان الشيوعيين الفرنسيين في هذا الوقت لم يسيروا في هذه السياسة حتى نهايتها المنطقية .

ورفضوا المشاركة في حكومة الجبهة الشعبية ، وهم اما لم يروا أو لم يجرأوا على القول الى أي مدى غيّر هذا التوجه الجديد الاستراتيجية الأساس للحركة الشيوعية ، وجعل من الممكن تطوير مفهوم جديد للثورة الاشتراكية في البلدان الرأسمالية الديمقراطية المتطورة في الغرب . وأظهر المؤتمر السابع للكومنتيرن (في ١٩٣٥) مساومة هذين الرأيين المختلفين .وحلل ديمتروف في تقريره المثال الفرنسي ، وبعبارات قوية وصحيحة طرح البديلين «الديمقراطية أوالفاشية» . وتجسدت البرودة السوفيتية في افتقار أكثر القادة بروزاً للحماسة في حضور المؤتمر ـ ولم يتحدث فيه ستالين ، ولا مولوتوف ، ولا كاغانوفيتش ، ولا أي عضو من أعضاء المكتب السياسي ، مع أن المؤتمر كان معقوداً في موسكو . وكان عداء ستالين لهتلر لا يزال معتدلاً . وهذا ما لاحظناه في سياق المؤتمر السابع عشر . ان عداءه لأي شكل من الديمقراطية السياسية وعدم ثقته بالدول الرأسمالية الديمقراطية ، ذلك الموقف الذي يبرره في النهاية الماضي والحاضر ، لم يعطياه أي حافز لادراك طبيعة الخطر الهتلري ، أو واقعه وأبعاده . وهذا لا يعني ان الاتحاد السوفيتي لم يبذل أي جهد لعقد تحالف ضد هتلر . ومع ان الاتحاد السوفيتي شعر بضعفه اقتصادياً وعسكرياً ، فقد بذل جهداً أكبر بكثير من الدول الرأسمالية المتطورة ، ولكن السؤال يتعلق فيما اذا بذل ما يكفي من الجهد ، آخذين في الاعتبار الخطر .
وفي مجرى المؤتمر السابع منحت الكومنتيرن الأحزاب الشيوعية حرية أكبر في العمل ، غير ان هذا كان كل شيء . هل كان حل الكومنتيرن ، الذي قرر في النهاية في عام ١٩٤٣ ، سيجعل الأحزاب الشيوعية قادرة في مواجهة الخطر ، على تطوير سياسات أكثر جرأة في الوحدة الوطنية باستقلال تام عن تقلبات السياسة السوفيتية ؟ يضاف الى ذلك ، ان الارهاب الستاليني لفترة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ أعطى خصوم التحالف مع الاتحاد السوفيتي الأعذار التي لم تفشل في التأثير في الأحزاب الاشتراكية التي كانت أعضاء في الأممية الثانية ، ولم تجعل الأمر أكثر سهولة عليها للمشاركة في التحالف المعادي لهتلر . وبالطبع ، ان

كل هذا لم يبرر سياسة عدم التدخل في اسبانيا أو توقيع اتفاقيات ميونيخ ، ولكن لا يمكن ان يكون ثمة شك في انه لو ان الاتحاد السوفيتي اتخذ في أوقات معينة مبادرات أكثر جرأة واثارة وتوحيداً ، لكان قد وضع الغربيين في موقع حرج في مواجهة الرأي العام في بلدانهم .

والحقيقة تبقى ، ان الاتحاد السوفيتي كان قد أجبر ، بسبب الموقف الفرنسي ـ البريطاني على توقيع اتفاق مع هتلر في ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٣٩ . وفي رأينا ، ان ستالين كان خاطئاً في توقيع اتفاق عدم الاعتداء الألماني ـ السوفيتي . والاتفاق من وجهة نظره مبرر تماماً لكي يكسب الوقت لتمكين الاتحاد السوفيتي من الاستعداد لنزاع حتمي ، في غياب اتفاقية واضحة مع فرنسا وبريطانيا العظمى . كان البلدان قد رفضاها . ومن الجهة الأخرى ، ان ما هو أكثر اشكالية هو الظروف التي تحقق في ظلها الاتفاق ، وما نجم عنه من زاوية السياسة السوفيتية والكومنتيرن . وقد احتوى اتفاق عدم الاعتداء على بنود سرية كانت موضع نقاش لمسألة مبدئية بما انها اتخذت ترتيبات لتغييرات اقليمية مست بولندا ، ورومانيا ، ودول البلطيق (استونيا ، ليتوانيا ، ولاتيفيا) وفنلندا بالاتفاق مع هتلر .[٣] وليس ثمة شك في ان أقاليم معينة ، مثلاً ، بولندا الشرقية ، كانت قد انتزعت من روسيا السوفيتية بالقوة بعد الحرب الأهلية (معاهدة ريغا ١٩٢١) ، كان سكانها من الاوكرانيين والبيلوروسيين .

لقد بقي الاتحاد السوفيتي ، انسجاماً مع الفقرات العامة في المعاهدة الألمانية ـ السوفيتية لـ ٢٣ آب (اغسطس) ، محايداً في بداية الحرب العالمية الثانية ، ولكن ستالين ومولوتوف صرحا ان فرنسا وبريطانيا أرادتا تدمير نظام الحكم الهتلري «بحجة زائفة هي النضال من أجل الديمقراطية»

٣ـ يمكن العثور على نصوص جميع هذه الاتفاقيات في ارشيفات ويلهمستراسه (المجلد ٨) . المحاضر السرية لـ ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٣٩ و ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٩ .

(خطاب مولوتوف في السوفيت الأعلى في ٣١ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٣٩) . وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٩ ذهبت برافدا حد تكريس ثلاثة أعمدة لاعادة نشر خطاب ألقاه هتلر في ميونيخ ، وقال ستالين في رده على برقيتي التهنئة بعيد ميلاده الستين من هتلر وفون رينبنتروب : «ان الصداقة بين شعوب الاتحاد السوفيتي والشعب الألماني ، تلك الصداقة التي قويت بالدم ، تمتلك كل الأسباب للبقاء متينة ودائمة . «وتبادل ستالين وهتلر المزاح بمناسبة الذكرى السنوية لثورة اكتوبر . ونما التبادل الاقتصادي ، وأرسل الاتحاد السوفيتي الحنطة الى هتلر ، والنفط وكميات كبيرة من المواد الخام الأخرى . وكفت الصحافة السوفيتية عن كل نقد لنظام الحكم الهتلري ، ومن الجهة الأخرى قامت بهجمات متكررة على الدول الرأسمالية الديمقراطية . وكان توقيع اتفاقية دبلوماسية مع هتلر شيئاً ، كان مأساة ان يضطر «اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية» الى فعل ذلك ، ولكن كان العمل بمثل هذه الطريقة شيئاً آخر تماماً . ولم يكد يساعد على اعداد الاتحاد السوفيتي لمواجهة النازية في النزاع المحتم في المستقبل القريب . فمثلاً ، أدت هذه السياسة الى الحرب ضد فنلندا . وبالطبع ، ان حكومة ذلك البلد كانت معادية للشيوعية بعنف ، ولكن هل كان هذا مبرراً للحرب ؟ ان الجيش الأحمر ، الذي كانت تطهيرات ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ قد أضعفته ، نجح بصعوبة في دحر الجيش الفنلندي بعد عدة أشهر من القتال (من ٢٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٩ الى ١٢ آذار / مارس ١٩٤٠) .

لقد زاد الاتحاد السوفيتي بين ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩ وحزيران (يونيو) ١٩٤٠ ما مجموعه ٢١,٢٨٥,٠٠٠ نسمة وأقيمت خمس جمهوريات سوفيتية جديدة (لاتيفيا ، ليتوانيا ، استونيا ، مولدافيا ، وجمهورية كاريليا الفنلندية) . وفي أثناء هذه الفترة اتبعت الكومنتيرن خطا سياسياً مطابقاً لخط الاتحاد السوفيتي . ولم تطلب الكومنتيرن من الأحزاب الشيوعية الموافقة على الميثاق الألماني ـ السوفيتي حسب ، بل وأيضاً

مكافحة السياسة الانكلو ـ فرنسية ، التي اعتبرت المسؤول الوحيد عن نشوب الحرب العالمية الثانية . انها لحقيقة ان هذه الأخيرة بقيت ملتبسة . ففرنسا وبريطانيا اللتان دخلتا الحرب للدفاع عن استقلال بولندا ووحدة اقليمها . تركت النازي يسحقها دونما حتى شن هجوم . ومن ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩ حتى ايار (مايو) ١٩٤٠ تأخرت المعارك على الجبهة الغربية . وكانت هذه فترة «الحرب الزائفة» . وكانت القيادة الفرنسية العليا في هذا الوقت مهتمة بدرجة رئيسة بتنظيم العمليات العسكرية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية في الشمال في فنلندا (كانت هناك خطة لإنزال في بيتاسمو) وفي الجنوب (كانت هناك خطة لهجوم قوات محمولة جواً على باكو) .(٤) وعلى الرغم من ذلك كانت الفاشية والديمقراطية في حرب من ايلول (سبتمبر) فصاعداً . وهكذا ، أجبر خط الكومنتيرن ، الذي كان على جميع الأحزاب الشيوعية اتباعه ، الحزب الشيوعي الفرنسي على معارضة الحرب على الرغم من الاجراءات القمعية الموجهة ضده(٥) . بينما كان الأعضاء الشيوعيون في البرلمان قد صوتوا في البداية على الميزانية العسكرية . ولو كانت الكومنتيرن قد حلت في ١٩٣٣ ، لكان بامكان الأحزاب الشيوعية ان تتصرف باستقلال دونما الكشف عن معاداة السوفيت بأية حال . وكان يكفي لها ان تظهر لماذا كان الميثاق الألماني ـ السوفيتي ضرورياً من وجهة النظر السوفيتية لان الدول الغربية رفضت ان تعقد حلفاً عسكرياً مع الاتحاد السوفيتي ، وفي الوقت نفسه كان يمكن للحزب الشيوعي الفرنسي ان يدعم المجهود الحربي ويناضل ضد البرجوازية الفرنسية التي كانت على الرغم من اعلانها الحرب تريد ان توجه ضرباتها

٤ـ مذكرات ويغاند ، المجلد ٣ ، الصفحتان ٧١ـ ٧٨ .

٥ـ فرض الحظر على صحف الحزب الشيوعي منذ ٢٩ آب (اغسطس) ١٩٣٩ ، وحرّم الحزب الشيوعي الفرنسي حالما أعلنت الحرب .

ضد الاتحاد السوفيتي أكثر مما توجهها ضد هتلر ، وكانت في الواقع تعد للخيانة العظمى لفيشي والتعاون .(٦)

وهكذا كانت ظاهرة ستالين تبين ، كما كان الأمر منذ العشرينات ، كم كانت ضارة في الحقل الدولي . فقد زادت في غموض سياسة خارجية كان من الصعب حتى على السياسيين المحنكين فهم أساسها . وقادت الكومنتيرن الى هزائم جدية في الممارسة والنظرية على حد سواء . انها لحقيقة ان الأحزاب الشيوعية كانت قد أسست أو أصبحت «بلشفية» في العديد من البلدان ، وبخاصة في البلدان المستعمرة (بالفتح) . ولذا فان نشاط الكومنتيرن لا يمكن اختزاله الى الأعمال الفاشلة هذه حسب ، مع انها كانت لا تزال كبيرة ، ولاسيما في البلدان الرأسمالية المتطورة .

ولم يستفد الاتحاد السوفيتي بما فيه الكفاية من فترة الراحة التي وفرها الميثاق الألماني ـ السوفيتي ليستعد عسكرياً ، أو سياسياً أو اقتصادياً للحرب . وكان الناتج الصناعي قد أصيب بالركود منذ ١٩٣٧ . وناتج الفولاذ لعام ١٩٤٠ ، وهو (١٨,٣٠٠,٠٠٠) طن لم يكن أعلى من ناتج ١٩٣٧ الا قليلاً . والاحصاءات السوفيتية التي نشرت في ذلك الوقت كانت أكثر تفاؤلاً حول الزيادة العامة في الناتج الصناعي ، ولكنها تضمنت الأرقام عن الأقاليم التي استولى عليها الاتحاد السوفيتي وزُوِّقتْ الى حد ما الحقيقة . وكانت صناعة الأسلحة في وضع كارثي . فانتاج النماذج القديمة التي كانت غير ملائمة لحرب حديثة قد أوقفت ، ووضعت في الاستخدام أنواع جديدة من الطائرات ، ولكن الانتاج الواسع لهذه المعدات لم يكد يبدأ في عام ١٩٤١ . وكان الانتاج الزراعي لا يزال فقيراً . وكان انتاج الحبوب أعلى بقليل من انتاج

٦ـ هذا ، مثلاً ، ماقام به الحزب الشيوعي الفرنسي في حزيران (يونيو) ١٩٤٠ ، حينما تقدم باجراءات لانقاذ الأمة من الغزو ، ولكن خط الكومنتيرن جعل من الصعب عليه حتى ١٩٤١ تنفيذ هذه السياسة الجديدة .

١٩١٣ ، وكانت المواشي أقل (فيما عدا الخنازير) . وكان الجيش لا يزال يستعيد نقاهته من التطهيرات الدموية لسنتي ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ . وكان هذا واضحاً في الحرب في فنلندا . ولم يتخرج من الأكاديمية العسكرية العليا سوى ٧ في المئة من الضباط . وضمت القيادة العليا بعض جنرالات المرتبة العليا ، وبخاصة جوكوف (الذي أصبح القائد الأعلى في شباط / فبراير ١٩٤١) ، ولكن كان ثمة عدد كبير أيضاً من القادة الذين لم يكونوا عالي التأهيل في المهنة . وهذا ما كان ينطبق على المارشال فوروشيلوف ، وكوليك (الذي قاد المدفعية) وميخليس (المفوض الرئيس للجيش) . وكانت الجهود تبذل منذ مؤتمرالحزب الثامن عشر لتحسين الوضعين الاقتصادي والعسكري ، غير انهما كانا لا يزالان متخلفين كثيراً بسبب عواقب الارهاب الستاليني ، الذي ينبغي ان لا يقلل من شأن أضراره .

ومنذ تموز (يوليو) ١٩٤٠ ، أي منذ هزيمة فرنسا ، كان هتلر قد استعد لغزو الاتحاد السوفيتي . كان السيد في القسم الأعظم من اوربا ، وكان يركز بمساعدة حلفائه الرومانيين والايطاليين والمجريين والفنلنديين ، قوى هائلة على طول الجبهة الشرقية . وكان ستالين مقتنعاً ان هتلر لن يهاجم حتى عام ١٩٤٢ ، ولذا لم يكن مستعداً لملاحظة الكثير من التحذيرات التي قدمها له جهازه السري الخاص (ريشارد سورغه في اليابان ، شبكة دورا في سويسرا ، وشبكة تريبر و« الاوركسترا الحمراء » في اوربا الغربية) ، وكذلك تشرتشل وروزفيلت . وظن ان التحذيرات الأخيرة كانت خدعا انكلو ـ سكسونية لتقديم معلومات زائفة له بغية اغراقه في حرب ضد هتلر في وقت أبكر . وفي ١٤ حزيران (يونيو) ١٩٤١ أنكرت وكالة أنباء تاس وجود أي برود في العلاقات الألمانية ـ السوفيتية .

وفي ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١ شنت الجيوش الألمانية هجوماً على طول الجبهة . ولم يكن الجيش السوفيتي في حالة يقظة ، وكان ستالين الرابط الجأش ، بعد عدة ساعات من بدء الغزو ، يظن ان ما يجري لم يكن سوى

مناوشات حدود لا أهمية لها . ولم يحدث في التأريخ الا نادراً ، خطأ وفرّ تصويراً أكثر قوة على خطر سلطة مطلقة في يدي رجل واحد . ويتحمل ستالين ونظام حكمه مسؤولية جسيمة في النقص السوفيتي للاستعداد في حزيران (يونيو) ١٩٤١ وفي الهزائم الأولية . والذريعة المستخدمة غالباً والتي عمل بموجبها ستالين من ١٩٢٩ الى ١٩٣٩ ـ وهي التجميع الزراعي القسري والارهاب ـ كانت ضرورية وجعلت انتصار الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية ممكناً ، تبدو مثيرة للسخرية اذا ما أخذ المرء في الاعتبار الضربات المرعبة التي وجهت الى الاقتصاد السوفيتي والجيش الأحمر ، واهمال السلطات السوفيتية عشية الحرب وفي أثناء الأسابيع الأولى القليلة من الغزو ، وأخطاء ستالين التأريخية التي برهنت تنبوءاته الاستراتيجية ، مرة أخرى ، على انها خاطئة تماماً .

ليس هذا هو المكان لتقديم تأريخ مفصل لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية في أثناء الحرب العالمية الثانية . ولا نرغب في انتخاب تلك العناصر المرتبطة مبشارة بظاهرة ستالين ، التي تسمح لنا ان نفهم كيف جعلت نفسها محسوسة ، لكي نحصل على فهم أفضل لخصائصها في خلال أزمة درامية . كانت الأسابيع الأولى من القتال كارثية . فقد حطمت الأغلبية من الطائرات السوفيتية وهي على الأرض في الساعات الأولى من القتال . وتقدمت الدبابات الألمانية ٢٥٠ كيلو متراً في ثلاثة أيام . وعلى الرغم من أعمال البطولة العظيمة ، التي لم تكن كافية لسد الثغرات ـ فقد تراجعت القوات السوفيتية بغير انتظام . وبحلول كانون الأول (ديسمبر) كانت القوات النازية قد استولت على جمهوريات البلطيق وروسيا البيضاء وقسم من اوكرانيا يتضمن منطقة دونباس ، والقرم (باستثناء سواستبول) ، وكييف وخاركوف وأوديسا . وكانت على أبواب لينينغراد ، وعلى بعد ٢٥ كيلومترا من موسكو . ولذا فان الهزيمة السوفيتية كانت ذات أبعاد كبيرة . وعلى أية حال ، فان هتلر لم يحقق أهدافه . وعلى الرغم من الحصار ، فقد واصلت لينينغراد المقاومة تحت ظروف

لا يمكن تصديقها (من غير طعام أو وقود) ، وقد أوقف الألمان أمام موسكو . وقد فشلت خطة هتلر في الحاق الهزيمة بالاتحاد السوفيتي قبل حلول الشتاء واجباره على الاستسلام . وقد خسر السوفيت معارك كثيرة ، ولكنهم ربحوا الحرب .

كان من الواضح ان ستالين قد تحطمت أعصابه حقيقة في الأيام القليلة التي أعقبت الغزو ، فقد أدرك ان سياسته كانت فاشلة تماماً ، وأغلق على نفسه باب الغرفة في شقته في الكرملين . ولم يتحدث الى الشعب السوفيتي حتى الثالث من تموز (يوليو) . وكان خطابه موزوناً ، ثابتاً وودياً ناشد فيه الاخلاص الى روح لينين والنظام السوفيتي وكذلك الى المشاعر الوطنية الروسية . ومن ذلك الوقت فصاعداً ، راقب شؤون الأمة . كان رئيساً للجنة الدولة للدفاع[7] التي مركزت السلطة المدنية والعسكرية ، وأصبح فيما بعد قائد الجيش الأعلى . وانه لمن غير الدقيق تصوير ستالين في قناع طاغية دموي فقط .

وفي أثناء هذه المحنة كان أيضاً قائداً عن جدارة وشجاعاً . وفي ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١ ، وكان الألمان على مبعدة ٢٥ كيلو متراً من موسكو ، نظم استعراضاً عسكرياً للاحتفال بالذكرى الرابعة والعشرين بثورة اكتوبر . وفي اليوم السابق تحدث في محطة مترو مایاکوفسكي . وفي ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) تحدث مرة أخرى ، رابط الجأش أمام العاصفة . وطلب من الشعوب السوفيتية أن تقاوم هتلر وطور موضوعات خطابه في٣ تموز (يوليو) . وموقفه في تشرين الثاني (نوفمبر) جعله قادراً على ان يكون رمزاً لارادة السوفيت في المقاومة . وهذا لم يمنعه من اقتراف أخطاء جدية في الاستراتيجية ، وكمثال ، حينما رفض في ايلول (سبتمبر) ١٩٤١ ان يخلي كييف ، مما أدى الى تطويق مئات الألوف من القوات السوفيتية التي أسرها النازيون .

٧ـ كان مولوتوف نائب الرئيس ، وكان بيريا وفورشيلوف ومالينكوف أعضاء فيها .

وألقت الحرب الأضواء على ، وربما أكدت ، الجوانب المتناقضة من ظاهرة ستالين ، التي سبق ذكرها مرات عديدة . وفي أثناء محن هذه الفترة ، كان ستالين موحداً مع الشعب . وفي الوقت نفسه كان النظام الستاليني لا يزال موجوداً ، وكانت عواقبه في بعض الأحيان تأخذ أقصى مداها . ففي السنوات السابقة للحرب كان التمركز قد جعل من الممكن تركيز الموارد البشرية المتاحة وكذلك رأس المال على الجبهة الاقتصادية . وفي الوقت نفسه ساهم في نمو بيروقراطية هائلة في ميدان ادارة المؤسسات المفردة ، والعلاقات بين الادارة المركزية والمؤسسات الخ . . ، ولكن هذه البيروقراطية وجدت على أساس الملكية الاشتراكية لوسائل الانتاج والتوزيع . ولم تعد ثمة ملكية خاصة لوسائل الانتاج والتوزيع ، ولذا لم يعد هناك رأسماليون . وهكذا ، لم يكن ثمة استحواذ خاص على فائض القيمة أو الربح ، حتى ولو ان عدداً معيناً من البيروقراطيين يمكن أن يستفيدوا من الوضع . وهذه المركزة ، القائمة على الملكية الاشتراكية ، كانت حاسمة في الميدان الاقتصادي في الأشهر الأولى من الحرب . وجعلت من الممكن في غضون أسابيع قليلة تفكيك ١,٥٢٣ مصنعاً كبيراً واقعة في الغرب ونقلها الى المناطق الشرقية (سيبيريا ، منطقة الأورال ، منطقة الفولغا) ، واعادتها بسرعة الى الانتاج على الرغم من القصف الألماني ، وسرعة التقدم النازي ، والبرد القارس لشتاء روسيا وحقيقة أن أغلبية الرجال الأصحاء كانت قد استدعيت للتجنيد . ولم تختف البيروقراطية كلياً ، ولكنها اضمحلت الى حد بعيد في مواجهة الحاجات الحيوية للفترة ، مخلفة وراءها نظاماً كان عقلانياً ، لم يكن فيه مكان للربح الرأسمالي . وبفضل هذه الاجراءات ، وعلى الرغم من الهبوط الوحشي في الناتج نتيجة للغزو(٨) ،

٨ـ في نهاية عام ١٩٤١ كانت المنطقة التي احتلها الألمان تمثل ٤٠ في المئة من السكان السوفيت . وانتجت ٣٧ في المئة من جميع الحبوب ، و٥٨ في المئة من الفولاذ ، و ٦٣ في المئة من الفحم ، و ٦٠ في المئة من الألمنيوم .

فان صناعة الأسلحة السوفيتية بحلول عام ١٩٤٣ كانت قادرة على انتاج كمية أكبر من الأسلحة مما أنتجته المانيا النازية (٣٠٠٠ طائرة ، ٢٠٠٠ دبابة ، ١٠٠٠٠ مدفع ومدفع هاون في الشهر) ، أسلحة تضاهي ، في الأقل ، جودة الأسلحة الألمانية . وهكذا كشف الاقتصاد الاشتراكي عن مرونة استثنائية جداً على التكيف والتوسع ، اذا ما أخذنا في الاعتبار القضايا التي سببها الغزو وكذلك الوضع الذي كان فيه عشية الحرب .

وينطبق الشيء ذاته على الحقلين السياسي والايديولوجي . كانت المقاومة السوفيتية مضرب الأمثال . وكانت ثمة خيبات هنا وهناك ؛ وكانت اما نتيجة الضعف الانساني والجبن واما نتيجة الجوانب الأكثر سلبية للظاهرة الستالينية لما قبل الحرب . وكان ثمة قلة من الأفراد ممن عملوا لصالح النازي في المناطق المحتلة اما مدفوعين بالمنفعة الشخصية وإما بالخوف . وعلى الرغم من ذلك ، فان ارسالات البضائع من الأقاليم السوفيتية مثلت فقط سبع ما حصلت عليه الرايخ من فرنسا . والتفسير بسيط جداً . ففي فرنسا كانت الرأسمالية موجودة ، وقد اختار قسم كبير من البرجوازية الفرنسية لأسباب متنوعة التعاون الاقتصادي مع الألمان . ويستذكر المرء ملاحظة ديغول الشهيرة لممثلي أصحاب الأعمال عند التحرير : « وهكذا أنتم هنا ! فأين كنتم في أثناء الحرب أيها السادة ؟ » وكانت ثمة حالات للتعاون مع هتلر في بعض الجمهوريات غير الروسية ـ في الجمهورية السوفيتية الاشتراكية التترية المستقلة ذاتياً (في القرم) ، والجمهورية المستقلة ذاتياً للكلمنكيين ، وكذلك للتشتشان والانغوش ، وفي الجمهورية المستقلة ذاتياً للكباردين والبلكار وفي منطقة كراتشي المستقلة ذاتياً ـ ولكن الشعوب المعنية كانت لا تزال متأخرة جداً من الناحية الثقافية وكانت قد أهينت في الفترة الأخيرة بسياسة ستالين للمركزة الروسية . ويمكن أن نجد مثل هذه الظاهرة في أوكرانيا الا انها بمقياس أصغر كثيراً . وقد أغرى شيطان التعاون القسس الارثوذوكس وكذلك التوحيديين (المسيحيين الذين يتبعون الطقوس اليونانية ولكنهم يدينون

بالولاء الى روما) بسبب الاضطهاد الديني قبل الحرب . وأخيراً ، كانت هناك خيانة فلاسوف ، وهو جنرال في الجيش الأحمر ، القائد الثاني في جبهة فولخوف ، الذي جنّد بمساعدة الألمان جيشاً من بين نزلاء معسكرات هتلر ممن رأوا في ذلك فرصة لتحريرهم . وفيما بعد ، تمرد عدد معين منهم ضد النازي وساعد المقاومة في اوربا . ويصف سولجنتسين خيانة فلاسوف في كتابه «ارخبيل الغولاغ» باعتبارها ظاهرة لم يسمع بمثلها مطلقاً في كل تأريخ العالم : ان عدة مئات ألوف من الشبان تقع أعمارهم بين العشرين والثلاثين رفعوا السلاح ضد وطنهم متحالفين مع أكثر أعدائه لدداً» (صفحة ٢٦١ ـ ٢٦٢) . والحقيقة بالأحرى هي عكس ذلك . واذا ما قارن المرء الوضع في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية بما حدث في اوربا في ظل الاحتلال الهتلري ، فسيصبح الاختلاف الكامل واضحاً . فخلافاً لفلاسوف ، لم يخن الاتحاد السوفيتي أي ضابط عالي الرتبة في الجيش الأحمر . ولا خان أي من القادة الحزبيين على النطاق الوطني ،وقليل من القادة المنطقيين . ونحن نعرف ان الحالة لم تكن على هذه الشاكلة في فرنسا حيث تعاون تعاوناً واسعاً مع النازي أعضاء في البرلمان ووزراء سابقون وجنرالات وأدميرالات الخ .

ماذا كان سبب موقف الشعب السوفيتي ؟ كيف يمكن ان نفسر هذه المقاومة والبطولة لعشرات الملايين من الناس ، والتي ربما يمكن تصويرها بصورة أخاذة جداً بأولئك الذين قاتلوا في ستالينغراد ولينينغراد ، جنوداً ومدنيين على السواء ، تلك البطولة التي يعز مثيلها في التأريخ ؟ وبالنسبة للبعض ، مثلاً هيلين كارييه دينكوس (Hélene Carré d'Encausse) يعود السبب الرئيس لمثل هذا الموقف الى رد الفعل القومي ، أي الشعور الروسي القومي . انها لحقيقة ان ستالين كان قد توجه اليه قبل عام ١٩٤١ بفترة ، وحتى ذهب الى حد اعادة الاعتبار الى عدد معين من الأحداث والرجال في روسيا القديمة ، وهو ما يمكن أن تختلف الآراء بصدده .وقد أوغلت السلطات السوفيتية في هذا الاتجاه منذ عام ١٩٤١ فصاعداً . وبشكل خاص في زمن

الأزمة الخطيرة لصيف ١٩٤٢ ، عندما دخلت القوات الألمانية القوقاز واقتربت من ستالينغراد . وأعيدت الى الجيش الأحمر الكتفيات وامتيازات الضباط التي كانت موجودة في العهد القيصري . وأعيد تأسيس مدارس الضباط التي أطلق عليها اسم سوفوروف ، وهو جنرال قيصري كان قد حارب ضد جيوش الثورة الفرنسية . واحتُفيَ بأسماء أبطال الماضي ، مثلاً ، الكسندر نيفسكي ، ايفان الرابع (الرهيب) والعديد من «الأجداد العظام» الآخرين ، كما دعاهم ستالين في خطابه في ٧ نوفمبر (تشرين الثاني) . وفي نهاية الحرب ضد اليابان سُمِعَ ستالين يقول ان ذلك الانتصار قد «محا عار» الهزيمة الروسية في ١٩٠٤ (كانت هذه الهزيمة في حرب امبريالية شنها القيصر ضد اليابان) . وفي عام ١٩٤٣ استعيض عن النشيد الأممي (Interrationale) بنشيد سوفيتي وطني مجّد وحدة الشعوب السوفيتية التي «ختمتها روسيا العظمى» . كما أثنى ستالين المرة تلو الأخرى ، على «تحالف الشعوب السلافية» ضد الألمان ، واحتوى العديد من مقالات الصحافة نغمة قومية مفهومة في تلك الظروف ، ولكنها تستحق المناقشة ، مع انها لا تفسر المقاومة السوفيتية بأية حال من الأحوال . فالنزعة القومية لم تكن أقل قوة في فرنسا ، وكان هذا الأمر واضحاً تماماً عقب الحرب العالمية الثانية عندما وقعت الحروب الاستعمارية . ولكن لم يمنع الانهيار في تموز (يوليو) ١٩٤٠ ، وظهور نظام حكم فيشي ، والتعاون الواسع بين المجموعات القائدة في البلاد والارتباك بين قسم كبير من الرأي العام . ولنقل الحقيقة ، ان قتال السوفيت كان على مستويين ؛ أولاً ، كان كفاحاً وطنياً ضد المعتدي الألماني ، وثانياً ، كان كفاحاً ثورياً للدفاع عن الاشتراكية . وفي نهاية المطاف ، لم يلق ستالين خطاباً واحداً دون استذكار أصول الدولة ، الثورة السوفيتية ، الحرب الأهلية ، دور لينين ، ودور الحزب البلشفي الخ .

وهذا ما يجعل من الصعب جداً تحليل الظاهرة الستالينية . ان بعض المؤرخين تتعذر عليه رؤية السمات المتناقضة للظاهرة ، التي حاولنا ابرازها في

مناسبات عدة ، ذلك انه يبدأ من عناصر معينة في سياسة ستالين منذ عام ١٩٢٩ ، مثلاً ، التجميع الزراعي القسري والارهاب فالنظام السوفيتي ، كونه دولة اشتراكية ، كفل نمواً اقتصادياً وثقافياً سريعاً جداً . وهذا ما انتشل شعوباً متخلفة سابقاً من وهدة الفقر والخرافة والجهل وجعل حدوث نهوض واقعي في القوى المنتجة أمراً ممكناً .واحتوى بصفته نظاماً سياسياً شمولياً ، عقبة ازاء الاستخدام العقلاني لكل طاقة الاقتصاد الاشتراكي . لقد دافع الشعب السوفيتي تحت قيادة الحزب وستالين عن النظام السوفيتي ، على الرغم من النزعة الشمولية التي عانى منها هو نفسه الى حد كبير .

وما كان لا سابقة له في التأريخ ـ «ظاهرة لم يُسْمَعْ بها» كما يقول سولجنتسين عن فلاسوف ورجاله ، ولكنه أخطأ «الظاهرة» ، «الحقيقية التي لم يسمع بها» في هذه الحرب ـ وهي ان ملايين من المواطنين السوفيت ، الذين كانوا مباشرة أو بصورة غير مباشرة ضحايا الارهاب الستاليني ، اضطلعوا بدور بطولي وتضحية للذات في نضال الشعب السوفيتي ، هذه الظاهرة كانت استثنائية حقاً ! والحالة المعروفة جيداً ، هي حالة الجنرال غورباتوف ، الذي أوقف ، وعذّب ، ورحّل الى ماغادان . وقد أطلق سراحه في عام ١٩٤٠ ، بعد أن تدخل المارشال بودييني لصالحه ، ومنح مأموريات هامة في أثناء الحرب واختتمها في «اللقاء على الألب» كقائد لفيلق الجيش السوفيتي الذي التقى بالقوات الأمريكية في ربيع عام ١٩٤٥ .

لو ان أية دولة في التأريخ السابق مرت بتلك المحن لانهارت . وهذا لم يحدث للدولة السوفيتية لان قاعدتها كانت اشتراكية ، مستقلة تماماً عن المؤسسات السياسية القائمة أو السياسة التي اتبعتها الدولة والمتربعون على السلطة . وانه لحقيقة لو انه انتهجت سياسة أفضل ، لكان المرء لا يستطيع ان يستبعد الرأي الآخر . انه لمن الطوبوية ان نفكر أن أغلب الجوانب السلبية لظاهرة ستالين كان يمكن أن تختفي في ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١ . فقد بقيت المؤسسات والعادات . وبقي الرجال ، وكان حضورها وحضورهم

محسوساً بهذه الدرجة أو تلك في أثناء الحرب . وكان للأخيرة (الحرب ـ المترجم) أثر مزدوج في الاتجاهات المتعارضة تماماً . فقد قوّت الطابع السلطوي للدولة . فالحروب بما تتطلبه من تقسية للعضلات والضبط الذي تفرضه على المحاربين ، كانت دائماً عوناً للنزعة الاستبدادية . والديمقراطية ترف لا يمكن تحمله الا في أوقات السلم . ان فيليب المقدوني ، وهو طاغية على رأس مملكة مركزية ، لم تواجه صعوبة في دحر اثينا ، حيث كانت الديمقراطية لا تزال سائدة . (قال ديموستين ، ان الناس يتحدثون ، ويهتاجون ، انهم لا يعملون أي شيء بينما فيليب يقترب) .

في شباط (فبراير) ١٩٤١ انشقت مفوضية الشعب للشؤون الداخلية (N.K.V.D.) الى قسمين أمن الدولة (N.K.G.B.) ومفوضية الشعب ذاتها ـ ولكن هذا الانقسام لم يحدث فعلياً حتى عام ١٩٤٣ . فقد واصلت ممارسة سيطرتها المتطفلة على كل قطاع من قطاعات الحياة السوفيتية . وأخليت معسكرات الاعتقال من الضباط فقط الذين كانوا ضروريين للدفاع عن البلاد والتقنيين ذوي المهارة العالية ، ولكنها امتلأت بالبولنديين الذين هربوا الى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية من الغزاة النازيين ، وسكان أقطار البلطيق والألمان من منطقة الفولغا ، الذين ألغيت جمهوريتهم المستقلة ذاتياً في ١٨ آب (اغسطس) ١٩٤١ ـ وجميع السكان الذين كانوا قد رحلوا (٦٠٠ ألف انسان) . وبذريعة ان عدداً معيناً من حالات الخيانة قد سجلت ، فان عدة جمهوريات مستقلة ذاتياً ألغيت أيضاً ورحل سكانها . وحدث هذا لجمهورية الكيوكيين المستقلة ذاتياً (٢٠٠ ألف نسمة) وجمهورية التشيتشان ـ انغوشي المستقلة ذاتياً (٦٠٠ ألف نسمة) ، وجمهورية كباردينو ـ بلكار المستقلة ذاتياً (٣٠٠ ألف نسمة) ، وجمهورية التتار القرميين المستقلة ذاتياً (٢٠٠ ألف نسمة) ، وكذلك المنطقة المستقلة ذاتياً للكراتشيين (مئة ألف نسمة) . وهكذا ، كان ستالين يعيد الى الحياة الأساليب التي استخدمها ضد الكولاك في أثناء عملية ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ . كانت نقطة انطلاقه صحيحة : النضال ضد

الخيانة والحاجة الى التأكد من ان مؤخرة الجيش كانت مضمونة ، ولكن هذا قاده الى حلول متطرفة كانت لا تتناسب تماماً مع الجرائم المقترفة . وهي حقيقة جعلت الوضع على العموم أكثر سوءاً . وفي الوقت نفسه ، كانت ثمة رقابة شديدة لا تزال مفروضة ليس على الصحافة والأدب وكل وسائل التعبير حسب ، بل وعلى المراسلات الخاصة أيضاً . وفي شباط (فبراير) ١٩٤٥ اعتقل سولجنتسين لانه بلغ من الطيش حداً لكي يوحي في رسالة خاصة ان ستالين لم يكن أعظم عبقرية عسكرية في كل الأزمان .

لقد اضطلع الحزب الشيوعي بدور ضروري في الحرب ، التي سقط فيها أكثر من مليوني شيوعي ، ولكن حسب ما يقول خروشوف ان اللجنة المركزية لم تعقد اجتماعاً واحداً من ١٩٤١ الى ١٩٤٥ . وكانت هناك اجتماعات منطقية ومحلية ولكن ليست مركزية . وهكذا كان ستالين لا يزال يصرّف أمور الدولة والحزب بأسلوب فردي واستبدادي . والحقل الوحيد الذي كان عليه بالرغم من حملة الجنرال ، ان يفسح فيه المجال للاختصاصيين ، كان ادارة العمليات العسكرية . وخلافاً لذلك ، فقد واصل العمل في الكرملين . ذلك المكان الذي كان يوجه منه جهد الحرب السوفيتي مع المستشارين ذاتهم كما كان الأمر قبل الحرب ، مولوتوف ، كاغانوفتش ، مالينيكوف ، وبيريا . وكان جدانوف في لينينغراد وخروشوف في الجبهة الجنوبية . وكان فوزنيسكي مسؤولاً عن الاقتصاد (كان عضواً مرشحاً للمكتب السياسي منذ ١٩٤١) ، وبقي جوكوف رئيس هيئة الأركان طيلة الحرب ، مع انه تسلم قطاعات أساسية في اللحظات الحاسمة . أما ميكويان ، واندرييف ، وشفيرنيك فقد احتلوا مناصب أقل مسؤولية . وقد أخذ نفوذ فوروشيلوف بالتلاشي حتى خسر منصبه كعضو في لجنة الدولة للدفاع في ١٩٤٤ .

وبمرور السنوات اضطلع كل من بولغانين وكوسيجين بدور متعاظم الأهمية . وفي الوقت نفسه ، ومن باب المفارقات ، فان متطلبات الوحدة الوطنية ضد هتلر جعلت تخفيف التوتر داخل البلاد ممكناً . فقد عاد ستالين

الى الاتصال بالكنيسة الكاثوليكية وأعطى الصلاحية باعادة فتح المعاهد . وعقد مجلس اورثوذكسي في ١٩٤٣ . وشهد اليهود والمسلمون أيضاً زيادة في حقوقهم . وأجيزت اقامة لجنة يهودية ضد الفاشية . وكذلك ادارة مركزية للمسلمين في طاشقند ، وأوقفت الدعاية ضد الدين .وحلت رابطة اللاالهيين ، وحظرت مجلتهم . واستطاع الكتاب ان ينشروا مؤلفاتهم بحرية أكبر نسبياً مما كان قبل الحرب . وعلى أية حال ، لم تتطور الأشياء بهدوء كماقد يبدو . كان ستالين في منتصف الحرب قد أعدم قائدين بولنديين يهوديين هما ، أولتر ، وايهرليخ ، مع انه كان قد أطلق سراحهما للتو من السجن . ومع ذلك ، فان الاتجاه العام كان لا يزال يسير نحو مرونة أكبر في العلاقات بين السلطات والمجموعات الوطنية والدينية المختلفة ، التي كانت متنوعة جداً . وكانت هذه جميعها أسباب للأمل في ان تكون فترة ما بعد الحرب أكثر حرية من الفترة قبل الحرب ، وتحمل مذكرات ايليا اهرنبورغ دليلاً على هذا الأمل . ولكن مثل هذه الآمال استندت الى الفشل في ان تأخذ في الحسبان العواقب المأساوية للحرب .

ومع ان الاتحاد السوفيتي كان منتصراً ، فقد ظهر من الحرب العالمية الثانية ضعيفاً . وبالطبع ، كان ستالين في قمة شعبيته . وكان بالنسبة لعشرات ألوف المواطنين السوفيت «الأب الصغير للشعوب» ، والقائد الذي دحر هتلر . كان الجيش الأحمر هو الذي احتل برلين ، وحرر عدداً من العواصم الأوربية ، وكان على مقربة (٥٠٠) كيلومتر تقريباً من الحدود الفرنسية . ومثل ستالين بالنسبة للشعوب الأوربية أنفسها التحرير ونهاية كابوس استمر عدة سنوات . وفي الحقيقة ، كانت خسائر الاتحاد السوفيتي البشرية والمادية هائلة .وكان ذلك كذلك لانه حتى ٦ حزيران (يونيو) ١٩٤٤ ، أي حتى الانزال في نرماندي ، كان الاتحاد قد تحمل على كتفيه العبء الأكبر من الحرب ضد هتلر . كان قد وُعِدَ بفتح الجبهة الثانية في ١٩٤٢ . ومن ثم أجلت الى ١٩٤٣ . لتفتتح أخيراً في ١٩٤٤ . وباستثناء العمليات العسكرية في شمال

افريقيا وايطاليا ، فان حلفاء الاتحاد السوفيتي الغربيين كانوا مكتفين بالتصريحات الرائعة وبارسال الأسلحة والمؤن . وحتى بعد حزيران (يونيو) ١٩٤٤ ، بقي القسم الأعظم من القوة العسكرية الألمانية مركزاً على الجبهة الشرقية . وكان هتلر مستمراً في الحرب بأمل شق الحلفاء . كانت المدن الألمانية في الغرب تستسلم بالتلفون ، بينما كان الجيش الألماني في الشرق يقاتل بضراوة على كل بوصة من الأرض . والنتائج يمكن رؤيتها : كان مجموع الخسائر البريطانية (٣٧٥,٠٠٠) قتيل . وفقد الامريكان (٤٠٥,٠٠٠) قتيل ، أما الفرنسيون فقد خسروا (٦٠٠,٠٠٠) قتيل . ومع ان بريطانيا وفرنسا تكبدتا اضراراً مادية جدية (ولكنها لا تقارب بحال اضرار الاتحاد السوفيتي) ، فان الولايات المتحدة تجنبت ذلك كلياً . هذه حقائق معروفة جيداً ، وهي لا تغمط فضائل وتضحيات البلدان المختلفة . ولكن مدى هذه الحقائق والأرقام ينبغي ان يحسب . فمن ١٩٤١ الى ١٩٤٥ خسر الاتحاد السوفيتي ٢٣ مليون انسان في الأقل .(٩) وينبغي ان يضاف الى هذا الرقم الانخفاض في المواليد الذي سببته الحرب . ان عدد الضحايا المدنيين والعسكريين في حصار لينينغراد وحده أكبر من مجموع ضحايا بريطانيا وفرنسا وامريكا خلال الحرب العالمية الثانية .وكانت الأضرار المادية كبيرة . فأغنى قسم من الاتحاد السوفيتي وأكثره كثافة بالسكان كان قد نهبه النازيون : دمرت تماماً (١,٧٠٠) بلدة و (٧٠,٠٠٠) قرية . وخربت المعارك الحقول ، والمصانع والسكك الحديد . وعلى مدى مساحة مئات وآلاف الكيلومترات المربعة كان الاتحاد السوفيتي «الآن خرائب وأحزاناً فقط» . وفي ١٩٤٥ كان القطاعان الزراعي والصناعي المنتجان للبضائع الاستهلاكية يعملان بمقدار (٦٠) في المئة من مستواهما في عام ١٩٤٠ ، وكان الناتج الصناعي لا يكاد يصل (٧٠) في المئة :

٩ـ وليس ثمة شك بحدود ٢٥ مليون .

	١٩٤٠	١٩٤٥
الفولاذ	١٨,٣	١٢٠٣
الكهرباء	٤٨٠٣	٤٣٠٢
الفحم	١٦٥٠٩	١٤٩٠٣
النفط	٣١٠١	١٩٠٣

(هذه الأرقام محسوبة بملايين الأطنان ،
استثناء الكهرباء المحسوبة بمليارات الكيلو واط الامريكية) .

نقولها مرة أخرى ، كان الاتحاد السوفيتي بحاجة الى اعادة بناء . ولنتذكر سفك الدماء الذي لا يصدق ، والذي عاناه منذ ١٩١٧ ، والذي كانت الامبريالية مسؤولة أساساً عنه (الحرب العالمية الأولى ، الحرب الأهلية ، والحرب العالمية الثانية) . ويمكن لظاهرة ستالين ان تفسر في ضوء هذه الحقائق ، في ضوء المصير المأساوي لهذه العداوة التي لا يمكن تصديقها ازاء الدولة الاشتراكية الأولى . وهنا مرة أخرى ، ليست المسألة مطلقاً ، محاولة للتبرير أو الاعتذار ، فالهدف هو ادراك طبيعة القضايا التي كان على الاتحاد السوفيتي حلها ، والعقبات التي كان عليه أن يجتازها . والسكان السوفيت تطوروا على النحو التالي :

١٩١٣	١٦٤,٨
١٩٢٢	١٥٢,٣
١٩٤٠	١٩٤,١
١٩٥٠	١٧٨,٥

(بملايين القاطنين)

إن الحساب لأمر صعب ، لان الحدود الاقليمية للامبراطورية القيصرية في ١٩١٣ والاتحاد السوفيتي في ١٩٥٠ لم تكن واحدة ، وليس ثمة احصاءات سوفيتية للسنوات من ١٩٣٣ الى ١٩٤٠ ومن ١٩٤٠ الى ١٩٥٠ . وعلى أية حال ، يمكن تقدير الخسائر الفعلية على النحو التالي (بملايين القاطنين) :

١٩١٣ ـ ١٩٢١ :	
الحرب العالمية الأولى ، الحرب الأهلية ، العداوات ، الأوبئة	١٣,٥
١٩٣٠ ـ ١٩٣٩ :	
أزمة الغذاء ، الارهاب الستاليني	٧,٠
١٩٤١ ـ ١٩٤٥ :	
الحرب العالمية الثانية	٢٣,٠
	٤٣,٥

يجب أن يضاف الى هذه الأرقام الهبوط في المواليد الذي سببته النسبة العالية في الوفيات وانخفاض نسبة المواليد خلال الحرب (٤٥ مليون انسان) . وهكذا ، فان سكان الاتحاد السوفيتي كانوا أقل مما يجب أن يكونوا عليه بـ ٩٠ مليون نسمة ، لو لم « تحصد » الحروب والمجاعة والقمع الجماعي « قبل النضوج » مثل هذا العدد الكبير من المواطنين السوفيت ، الذين كانوا في الأغلب من بين الأكثر كفاءة : كوادر الحزب والدولة والاقتصاد ، والشباب والشابات ، الذين واللواتي لم تكد تبدأ مزاياهم بالتطور .(١٠)

ان الاتحاد السوفيتي ، الذي أحرز المجد باستنزاف دمه ، واجه الولايات المتحدة التي خرجت من الحرب العالمية الثانية أغنى وأكثر قوة مما كانت عليه

١٠ـ نقدم أرقاماً غير دقيقة فقط . انها تمثل تقديرات مقبولة وتحمل اتجاهاً يمكننا من ان نزن آلام شعوب اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، والمعضلات التي طرحتها هذه الخسارة في الدم التي لا مثيل لها سابقاً .

في أي وقت مضى . كانت وحدها تملك الأسلحة الذرية . ومثلت صناعتها نصف الناتج الصناعي العالمي . وكان الدخل الوطني للاتحاد السوفيتي لا يكاد يساوي ربع الدخل الوطني الامريكي . ولم تكن العلاقات بين أطراف التحالف المعادي لهتلر سهلة ؛ لم تكن الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية متعارضة تماماً حسب ، بل وكانت الأنظمة السياسية تختلف جذرياً . ان التأخير في فتح «الجبهة الثانية» كانت موازنته ، قد تمت جزئياً بانزال حزيران (يونيو) ١٩٤٤ . وسعى ستالين عبثاً لاعادة تطمين الانكلو ـ سكسون عن طريق تسهيل حل الكومنتيرن ، اذ كانت لا تزال تقلقهم . وبينما كانت القوى الثلاث العظمى قد اتفقت ، في طهران ومن ثم في يالطا ، على اجبار المانيا الهتلرية على الاستسلام دون قيد أو شرط ، لم تكن قادرة عملياً فقط الا على ملاحظة الأوضاع الفعلية التي كانت قد ظهرت مباشرة للعمليات العسكرية للحرب العالمية الثانية . ان الانقسام في عالم ما بعد الحرب على أساس اقليمي وكذلك على أساس أنظمة اقتصادية واجتماعية وسياسية وايديولوجية ، ذلك الانقسام الذي لا يزال قائماً الى حد كبير في عام ١٩٧٥ . لم يحدث في يالطا ، ولكن في سوح المعارك :

"Cujus acies, cujus respublica"

الجيش يقرر نوع نظام الحكم . وجرى توضيح ذلك في اليونان عندما سحقت دبابات تشرتشل في حمام من الدم مناضلي المقاومة اليونانية الذين لم يكونوا مستعدين للقبول في ان تبقى في الحكم السلطات اليونانية التي فضّلت النازي . انه لحق ان ستالين قد أظهر وحشية وحتى نزعة كلبية في تعامله مع الدول الأخرى والأحزاب الشيوعية المعنية . وانه لحق انه كان يستطيع أن يحتج بقوة أكبر على السياسة البريطانية في اليونان ، ولكن ذلك لم يكن أساساً ليشكل اختلافاً كبيراً . وفي ١٩٤٥ كان الاتحاد السوفيتي فقيراً وضعيفاً والولايات المتحدة غنية وقوية . ولم يكن الاتحاد السوفيتي يرغب في شن حرب عالمية ثالثة وكان في موقع القادر على ذلك . ويحذف كلودان هذه الحقيقة في كتابه :

(Sur la Crise du mouvement communiste) عندما يتناول الوضع في فرنسا وايطاليا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة . كان الانكلو ـ سكسون قد حرروا هذين البلدين ، ولم يكونا قادرين ان يدفعا ترف ثورة ، حتى وان كان شعباهما قد رغبا في ذلك ، ولم تكن الحال كذلك ، اذ كان الامريكان والبريطانيون سيغرقونها بالدم دون ان يكون الاتحاد السوفيتي قادراً على التدخل ، لسبب بسيط جداً هو انه لم يكن في موقع يسمح له بذلك .

وهكذا ، عززت الظاهرة الستالينية موقعها في ١٩٤٥ بدلاً من ان تختفي في نهاية الحرب . فمؤسساتها وعاداتها وملاكها برزت قوية من الحرب . وازدادت سطوة السكرتير العام وشعبيته . ان الانتصار لم يزل الأسباب التي ولّدت الظاهرة الستالينية . والظروف التي كانت ستسمح بمحوها لم توجد بعد .

-٦-

بعد الحرب : ذروة الستالينية وانهيارها

كان الوضع داخل الاتحاد السوفيتي لا يختلف بصورة ملحوظة عما كان عليه في الثلاثينيات . وكيف كان الأمر ممكناً خلاف ذلك ؟ فستالين ، الأكثر شعبية مما كان عليه في أي وقت مضى والكلي الحضور ، كان لا يزال على رأس الدولة . وفي هذه الفترة حققت عبادة ستالين أبعاداً تذكّر المرء بالتأليه الذي أُظهر للملوك الهيلينيين والأباطرة الرومان ، ولكن بمساعدة الموارد المتنامية باطراد دونما حدود للعلم والتكنولوجيا المعاصرين .

ولم تكن قد ظهرت في جميع أنحاء البلاد عشرات ملايين النسخ من الصور الفوتوغرافية حسب ، بل وعشرات آلاف النصب والتماثيل النصفية . وكان عدم وجود واحدة منها في بيت المرء يعتبر فعلاً من أفعال التحدي . وكانت الصحافة والأدب والسينما والمسرح تقدم له المديح مثل اله حي . وقد أقيم تمثال نصفي له على ذروة ايليبروز ، أعلى قمة في جبال القوقاز ، وقد حمل النقش التالي : « إلى أعظم انسان في جميع العصور » . وأطلق اسمه على عشرات المصانع والتعاونيات الزراعية والمدن . وسميت باسمه أعلى قمة جبال بامير . وكما كتب ايليا اهرمبورغ بـ « كان ستالين قد تحول في أذهان الملايين من المواطنين السوفيت الى اسطورة شبه اله : كان كل انسان يرتعش

حين يسمع اسمه يعتقد انه وحده سوف يتدبر أمر انقاذ الاتحاد السوفيتي من الغزو والخراب .» وكان خطراً ان ينتقد حتى في المراسلات الخاصة . اما ازالته من السلطة ، فقد كانت أمراً لا يمكن التفكير فيه . وجمع كل أعنة السلطة في يديه ، وامتلك عيناً للتمسك بها . واعتمد على البوليس السري ليحقق ذلك . في ١٩٤٦ أصبحت مفوضيات الشعب وزارات ـ وأصبحت ( ) الآن (. . . . .) وزارة الداخلية ـ ولكن صلاحيات البوليس لم تتغير وكانت لا تزال مفرطة . فان جميع المواطنين السوفيت ، ومن بينهم أعضاء الحزب ، وكل المنظمات والادارات ، وكل الأمكنة العامة ، والمصانع ، والجامعات ، والأدب ووسائل الاعلام ، والأجانب ، والجيش ودائرة البريد ، كانت خاضعة لرقابته اليومية الاستبدادية . وكانت « O SSO » (اللجنة الخاصة) لا تزال موجودة وكانت لا تزال قادرة على ترحيل الأفراد الذين كانوا « أعداء الشعب » دونما محاكمة (لمدة عشر سنوات منذ عام ١٩٣٨ وعشرين سنة منذ عام ١٩٤٣) .

يجب دراسة هذه الأدوات الأساسية للارهاب ، ولكن ، غني عن القول ، اننا لا نملك الا القليل من المعلومات عنها . نحن نعرف أن أعضاء البوليس السياسي حصلوا على مرتبات عالية . وكانت لهم امتيازات كبيرة ، وكانوا كثيري العدد (من المؤكد ان عددهم يزيد على المليون) . كانت لوزارة الداخلية سلطات غير محدودة ، وهكذا فقد سيطرت على الدولة والحزب . فبذريعة مكافحة أعداء النظام شكلت قوة مرعبة ، نوعاً من الهيئات التحقيقية التي لا يستطيع شيء ان يوقفها . كان شخص ستالين مقدساً بالنسبة لمعظم المواطنين السوفيت . وكان هذا نقلاً من المستوى الديني الى المستوى العلماني . ذلك النقل الذي عبّر في هذا المجتمع غير الالهي عن حاجة قديمة الى اعادة الطمأنينة . ألم نجد عبادة مشابهة لماوتسي تونغ في الصين الشيوعية ، حيث كان «قائد الدفة العظيم» الذي نوّرت كلماته العالم ؟ ألم نلاحظ ذلك في العديد من البلدان الاشتراكية ، وفي بلدان افريقيا وآسيا غير

الاشتراكية ؟ انه أسلوب في الحكم قديم قدم العالم ، وهو بعيد عن ان يكون بالياً بالمرة . وبعد كل شيء ، فان ظاهرة هتلر حدثت في واحد من أكثر البلدان ثقافة في العالم ، بلد غوته ، وماركس ، وبيتهوفن ، وفاغنر ، ونيتشه . ونحن لا نقول ان عبادة القائد شيئاً جيداً ، ولكن ينبغي ان نتذكرواقعها التأريخي وقاعدتها الدينية والسيكولوجية والسياسية أيضاً . واستفاد البلاشفة من هذه الحقيقة . وهم بعملهم بهذه الطريقة خلقوا الآليات التي سقطوا ضحية لها ، وكانت الاشتراكية عاجزة عن تدميرها لسنوات كثيرة .

وبفضل هذه الآليات ازدهرت وزارة الداخلية ، ونهاية الحرب لم توقف ذلك . اذ اعتبر جميع السجناء السوفيت الذين أطلق سراحهم من المعسكرات الهتلرية مشبوهين ، ورحلوا بسبب هذه الشبهة كـ « أعداء للشعب » . وموقف سلطات البوليس يمكن تفسيره بطريقتين : أن يؤخذ المرء أسيراً فعل من أفعال الجبن ويستحق العقاب ، أو ان مجرد انهم عاشوا في الخارج باتصال مع النازي كان أمراً مشبوهاً . وأياً كان الأمر ، فان عدة ملايين من الجنود أطلق سراحهم من المعسكرات الهتلرية رحلوا الى المعسكرات التي كان الغولاغ يديرها (الدائرة التي تدير جميع المعسكرات التي كانت تشرف عليها وزارة الداخلية) . وهناك وجدوا الكثير من السجناء الألمان ، وأولئك الذين رحلوا قبل الحرب وفي أثنائها .

ان الافتقار التام للحرية الديمقراطية ، ووجود القمع جعلا من المستحيل مهاجمة وزارة الداخلية . والحزب نفسه كان يمر فقط من خلال الأدوات . لم تعد اللجنة المركزية تجتمع ، ولم يعقد أي مؤتمر حزبي من سنة ١٩٣٩ الى سنة ١٩٥٢ ، أي طيلة ثلاث عشرة سنة . وحتى المكتب السياسي لم يقم الا بدور متواضع . واستعيض عنه بلجان مؤلفة من خمسة أو ستة أو سبعة رجال ، كانت تلتقي مع ستالين في الكرملين . وكلما تقدم به العمر أصبح أكثر شكوكية باطراد ، ولم يعد يثق بأي أحد بتاتاً . وكانت ترفض أية مقترحات لم يقدمها هو نفسه ، كان مقدم الاقتراح غالباً ما يعاقب ، وهكذا اعتاد

مستشاروه ان لا يقدموا أي مقترح . ان فوزينسكي ، نائب رئيس المجلس ، وعضو المكتب السياسي ، والمسؤول عن الاقتصاد ، كان قد نُحيَ عن منصبه بتوصية من ستالين ولم يخبر أحد عن ذلك رسمياً . واختفى اسمه ببساطة من الصحافة السوفيتية واعتقل فيما بعد وأعدم دون محاكمة .

ولكي يبرر ستالين العودة الى الارهاب (حتى ولو على نطاق أضيق مما قبل الحرب) أخذ يستشهد بالحرب الباردة والتآمر الامبريالي . وكما كان الحال فيما يتعلق بالكولاك ومخاطر العدوان في ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ ، أو فيما يتعلق بهتلر والامبريالية اليابانية في ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ ، كان ستالين ينطلق من وقائع معروفة بوضوح . وهذا ما جعل ادعاءاته بالنسبة لعدد كبير من المواطنين السوفيت والشيوعيين الأجانب قابلة للتصديق ، وبخاصة لان المتهمين كانوا لا يزالون يعترفون بجرائم متخيلة . انه لحقيقة أن المسؤولية الرئيسة عن الحرب الباردة تقع على عاتق الامبريالية ، وبالدرجة الأولى على عاتق البلد الامبريالي الأكثر جبروتاً ، أي الولايات المتحدة . وكان هدفها احتواء الشيوعية ضمن الحدود الاقليمية التي ثبتتها مصائر الحرب في نهاية الحرب العالمية الثانية ، وحتى دفعها الى الخلف وتأسيس سلطتها الخاصة في جميع الجزء غير الشيوعي من العالم . لقد أضيفت الى حالة انحسار القوى الامبريالية التي أضعفتها الحرب ، التشنجات الأخيرة للنظام الاستعماري . ففي فرنسا وبريطانيا هدد النظام الاستعماري (COLONIALISM) بجعل الحرب الباردة أكثر خطراً . وهكذا اضطلعت الولايات المتحدة ، البلد الوحيد الذي امتلك الأسلحة الذرية حتى عام ١٩٤٩ ، بدور «شرطي العالم» . وبمبدأ ترومان ومشروع مارشال ومعاهدة الأطلسي ، أقامت كتلة عسكرية ذات جبروت مرعب امتلكت منظمتها العسكرية المتكاملة ـ الناتو . وقد أزيح الشيوعيون من الحكومات الأوربية الغربية (في فرنسا ، وايطاليا وبلجيكا) الذين كانوا في قوامها منذ التحرير ، وساعدت الولايات المتحدة الأمريكية على اعادة تأسيس دولة المانية قوية (الجمهورية الاتحادية) ويابان مزدهرة .

واستخدم ستالين الحرب الباردة ليبرر سياسته . فقد برز الاتحاد السوفيتي من الحرب ضعيفاً على نحو رهيب ، وبدا فقط على انه قوة جبارة اقتصادياً . وامتلك في الجيش الأحمر (الذي أصبح الجيش السوفيتي بعد الحرب مباشرة) قوة هائلة (٧ ملايين عسكري في ١٩٤٥ ، وحوالي ٤ ملايين في ١٩٤٨) كانت جيدة التجهيز بالأسلحة التقليدية ، ولكنها على وجه التحديد لم تكن راغبة في شن هجوم ولا قادرة عليه بسبب الانهاك الذي ولدته الحرب . وسادت مسلتزمات اعادة البناء على أي هم آخر ، بيد ان الوضع كان صعباً . كانت الصناعة لا تزال في حالة متوسطة ، وكانت الزراعة تمر بصعوبات كبيرة . وكان من الواجب تخصيص ميزانيات واسعة للتعليم والبحث العلمي ؛ فقد كان عليهما أن يلحقا بالولايات المتحدة في مجال الذرة ويمهدا الطريق للتطورات في بحوث الفضاء . حسناً ، ان القنبلة الذرية مكلفة في الاتحاد السوفيتي شأنها في الولايات المتحدة الامريكية (ان لم تكن أكثر كلفة) . واذا أخذ المرء في الحسبان الحقيقة الماثلة في ان الاقتصاد الوطني الامريكي كان في عام ١٩٤٥ أعلى بأربعة أضعاف مما هو عليه في الاتحاد السوفيتي ، فان القنبلة الذرية نفسها كلفت المواطن السوفيتي أربعة أضعاف مما كلفت المواطن الامريكي . وكان مستوى المعيشة السوفيتي منخفضاً جداً في ١٩٤٦ . ولم تكن ثمة فرصة لرفعه بسرعة ، لانه كان من المستحيل في الاتحاد السوفيتي انتاج الزبدة ، والأقمشة ، والفولاذ ، والقنابل الذرية ، والصواريخ الفضائية في الوقت نفسه . وينبغي ان نضيف أيضاً ، كان الحصاد فقيراً في ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ بسبب خراب الحرب والظروف الجوية الكارثية :

١٩٤٥	٤٧,٣٠٠,٠٠٠	طن من الحبوب
١٩٤٦	٣٩,٦٠٠,٠٠٠	طن من الحبوب

أي ان حصاد ١٩٤٦ ساوى ٤٠ في المئة من حصاد ١٩١٣ (لكي يغذي عدداً من السكان أكثر بكثير) . وكان من شأن سياسة تعاون مستقيمة بين

الحلفاء الذين دحروا هتلر ان تجعل تفادي الحرب الباردة وسباق التسلح ممكناً . وكان هذا لا يزال أمراً ممكناً في يالطا في شباط (فبراير) ١٩٤٥ . لقد اتفقت القوى العظمى الثلاث على «تجريد المانيا من النازية والعسكرية وتقسيمها»(١) . وحتى الفت لجان للتقسيم والتعويضات . وأثارستالين مسألة المساعدة الاقتصادية ـ الامريكية ـ والتي كانت منطقية تماماً لان هتلر كان قد دمر الاتحاد السوفيتي ، وكانت الولايات المتحدة غنية . ولم يرفض ذلك روزفلت . وكان مؤتمر بوتسدام أكثر صعوبة . لقد مات هتلر في مخبئه ، واستسلمت المانيا . وحل ترومان محل روزفلت ، الذي مات في نيسان (أبريل) ، وكانت الولايات المتحدة تجري تجربتها الأولى على القنبلة الذرية استعداداً لاستخدامها ضد اليابان . ولم تعد مسألة المساعدة الاقتصادية الامريكية مطروحة ما لم تكن مصحوبة بشروط سياسية ؛ كانت هذه هي حال مشروع مارشال في عام ١٩٤٧ . كان على العالم ان ينقسم الى نصفين ، وكان على الاتحاد السوفيتي ان يعتمد على موارده الخاصة ليسترد عافيته . وحتى التعويضات كانت قد حدت بالمنطقة التي احتلها الاتحاد ليجمعها منها ، وكانت أفقر المناطق .

ان هذه البيئة التأريخية تفسر سياسات ستالين في فترة ما بعد الحرب ، وهذا ما يساعدنا على فهم لماذا وكيف ـ كانت ثمة عودة الى سياسة مشابهة الى حد ما ، على أساس المؤسسات التي بقيت حية . وكان على المواطنين السوفيت ان يقدموا تضحيات جسيمة ويبذلوا جهوداً هائلة لكي يحسنوا مستوى المعيشة قليلاً ، ذلك المستوى الذي كان في عام ١٩٤٧ أوطأ منه في ١٩٢٨ بسبب الحرب . وفي النهاية ، كان الانضباط الدقيق مسألة ضرورية . وبفضل المؤسسات القائمة فرض ستالين هذه الجهود ، وهذه التضحيات ، وهذا

١ـ توجد هذه التعابير في البروتوكولات السرية لمؤتمر يالطا . ففي طهران اقترح روزفلت اقامة خمس دول المانية ولم يرفض ستالين ذلك .

الانضباط ؛ وبرر الحرب الباردة والمؤامرات الامبريالية ، وكان ضرورياً حماية الشعب السوفيتي من أية مقارنة مع الغرب ، تلك المقارنة التي كانت بغياب التفسيرات من المحتمل ان تكون لغير صالح النظام السوفيتي . ولهذا السبب ، فُرِضَ تحريم دقيق على الصلات مع العالم الخارجي ، وعلى سفر المواطنين السوفييت خارج الاتحاد السوفيتي ، وعلى سفر الأجانب داخل الاتحاد السوفيتي . وكانت فيزا الدخول للاتحاد السوفيتي لا تمنح الا للدبلوماسيين الأجانب ولوفود الأحزاب الشيوعية الأجنبية وللمنظمات الصديقة التي دعيت للاجتماعات أو رحلات الدراسة . ووصفت الصحافة السوفيتية أسلوب الحياة خارج الاتحاد السوفيتي بتعابير مرعبة وحافظ البوليس السياسي على رقابة دقيقة للغاية على سفرات الأجانب داخل الاتحادالسوفيتي ومراسلاتهم . وفي الوقت نفسه «استخدم ستالين النزعة القومية الروسية بطريقة أكثر وضوحاً واتساعاً من السابق . وعزيت كل المخترعات التكنيكية والعلمية في الفترة الحديثة الى الروس . وواصلت كتب التأريخ تمجيد الماضي الروسي ، بما في ذلك أكثر جوانبه غموضاً . وهكذا ، فان الفتوحات الاستعمارية القيصرية قدمت على انها الفرصة التأريخية العظيمة لشعوب قهرتها الامبريالية الروسية . والحركات التي عارضت مثل هذه الفتوحات انتقدت بكونها «قومية برجوازية في وحيها » .وأصبحت الأحزاب الشيوعية في الجمهوريات غير الروسية هدفاً للقمع . ففي جورجيا ، وفي جمهوريات البلطيق السوفيتية (ليتوانيا ،استونيا ، لاتيفيا) ، وفي اوكرانيا ، وفي جمهوريات آسيا الوسطى ، اعتقل مئات الآلاف من الناس ورحلوا . وعلى أية حال ، فان الشيوعيين الروس لم ينجوا من القمع . فالنضال «ضد النزعة الكوزموبوليتية» والحملات المعادية للسامية ينبغي ان توضع في سياق هذه السياسة القومية الروسية .

ان النضال ضد «النزعة الكوزموبوليتية» جعل من الممكن ازالة كل نفوذ أجنبي . وكان هذا مصيراً غريباً لثورة استمدت الهامها من الماني كان يهودياً في أصله ، هو كارل ماركس ، والعديد من مؤسسيها كانوا من الأصل نفسه .

وبينما اقتبس منه أحياناً عندما كان الأمر ضرورياً لتبرير جانب من جوانب سياسته ، الا انه فعل ذلك نادراً جداً وبوتيرة متنازلة ، فانه احترس من تمجيد ذكرى ماركس ؛ ففي ١٩٥٣ لم يكن له نصب في موسكو ، بينما كانت هناك عشرات الآلاف من التماثيل النصفية للجنرال . هذه السياسة سببت خراباً عظيماً . وتوقفت الدراسات الانسانية والعلوم الطبيعية . وأحاط بالاتحاد السوفيتي طوق فكري حديدي . ففي الاقتصاد السياسي أدينت اطروحات فارغا ، الذي كان يقدم تحليلاً بارعاً لتطور الرأسمالية ، وأوقف بحثه . وانتقدت بقسوة الأساليب الجديدة التي استخدمها الاقتصاديون الامريكان ، بما فيها استعمال الرياضيات باعتبارها برجوازية . وانتقدت مجلتا قضايا التأريخ وقضايا الفلسفة بوصفهما تفتقران للثبات الايديولوجي . واخضع الأدب والموسيقى والفن لرقابة شديدة تزداد باضطراد تحت سيطرة جدانوف ومن ثم سوسلوف بعد ١٩٤٨ .(٢) ان شجب التأثيرات الغربية كان مصحوباً بمطالب سياسية وأيديولوجية أصبحت متناقضة باطراد مع الخلق الأصيل والبحث العلمي الجدي . ولم تنج السينما والمسرح من هذه التوجيهات . وفي علم الأحياء أصبح ليسنكو القس الأعلى لـ « كنيسة » مضادة للعلم انتقدت اطروحات مندل التي اعتبرت مثالية . ونظرية الكم والنظرية النسبية ونظرية الرنين في الكيمياء ، انتقدت كلها بوصفها برجوازية . وأزيل من على الخارطة العلمية السبرنطيق والتحليل النفسي . وأصبح انشتاين وفرويد كوزموبوليتيين خطرين في أعين السلطات السوفيتية . وهكذا بوضعهم العلم « البرجوازي » في موضع تناقض مع العلم « البروليتاري » ، . ساعدوا على جعل الماركسية أكثر تحجراً وعلى ان يتخلف وراءها العلم السوفيتي . وأصدر الحزب حكمه على كل شيء ، وكان حكمه حكم ستالين ؛ « القائد العظيم للعلم » كما وصفه أحد الكتاب

٢ـ جعل جدانوف كبش فداء للسياسة الستالينية ، ومن هنا جاء التعبير الجدانوفية (فترة جدانوف) .

المتحمسين . ووصلت هجمات جدانوف على « تفسخ » الموسيقى ذرى الجمود العقائدي والغباء ، لانها كانت موجهة الى شوستاكوفتش ، بروكوفييف ، موراديلي ، خاتشادوريان وكاباليفسكي . وذهب جدانوف حد انتقاد الموسيقيين لافراطهم في استخدام صوت الطبل والصنوج . وانتقد الرسم التجريدي : « مخبول بشكل مطلق : فعلى سبيل المثال ، يرسمون رأساً على أربعين رجلاً ، عين تنظر في هذا الاتجاه ، والأخرى تنظر الى البعيد . » وفي عام ١٩٤٦ هاجم القادة السوفيت مجلة (ZVEZDA) الصادرة في لينينغراد . ان طبيعة هذه الهجمات يمكن تحديدها من المقتبس التالي من تقرير جدانوف حول شاعرة لينينغراد الكبيرة أنا أحمدوفا : « انه لمن العسير القول فيما اذا كانت راهبة أو امرأة ساقطة ؛ ومن الأفضل القول انها من هذه وتلك . فرغباتها وصلواتها تداخلت . » ويقتبس جدانوف القصيدة التالية ليبرر رأيه :

« ولكنني أقسم بحديقة الملائكة ،

وبالايقونة المعجزة أقسم ،

انني أقسم بطفل عاطفتنا . . . »

« هذه هي أحمدوفا ، بحياتها الشخصية التافهة والضيقة . بتجاربها الرخيصة ،ونزعتها الشبقة ذات الطابع الديني التصوفي . »(٣)

أما بالنسبة للنزعة المعادية للسامية ، فانها تطورت على أساس التقاليد القيصرية التي لم تختف كلياً من قطاع الرأي العام . من الناحية النظرية ، أي من وجهة نظرالقانون ، كانت العنصرية محرمة بالدستور وتعاقب عليها المحاكم . أما في الممارسة فان الأشياء مختلفة تماماً . في البدء هاجم ستالين الثقافة اليهودية والمظاهر الدينية . وأعدم معظم قادة اللجنة اليهودية ضد الفاشية ، التي أسست في أثناء الحرب وعدداً كبيراً من الكتاب اليهود . وبعد ١٩٤٩ عالج الصهيونية : وباحتذاء نموذج معروف جيداً ، فان هذا النضال جعل من

٣ـ جدانوف : حول الأدب والموسيقى والفلسفة ، لندن ١٩٥٠ ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .

الممكن تطور نزعة معادية للسامية بالتعامل مع الصهيونية واليهودية باعتبارهما شيئاً واحداً . وفي مجرى محاكمات كبرى عديدة عقدت في الديمقراطيات الشعبية مثل محاكمات سلانسكي (حتى المحاكمة كان السكرتير العام للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي) التي أدين فيها أيضاً آرثر لندن ، فان المتهمين «اعترفوا» (بالأساليب نفسها التي استعملت في محاكمات موسكو الكبرى) «انهم كانوا يعملون للصهيونية العالمية عملية الامبريالية الامريكية» . ان المساواة بين الصهيونيين والامبرياليين الامريكيين ، وبين اليهود والصهيونيين أيقظ الشيطان القديم الذي كان نائماً في الجزء المعادي للسامية من الرأي العام . وهكذا أوجد ستالين كباش الفداء التي نسب اليها مسؤولية استمرار المشكلات الاقتصادية للاتحاد السوفيتي .

في ١٣ كانون الثاني ١٩٥٣ أعلنت الصحافة السوفيتية اكتشاف مؤامرة حرّض عليها أطباء كانوا جميعهم يهودا . فبعد ان اغتالوا عدداًمن الشخصيات المعروفة ، زُعِمَ انهم يعدون العدة لاغتيال عدد من قادة الاتحاد السوفيتي . وقد رفعت «مؤامرة الأطباء» العداء للسامية الى مستوى لم يصل اليه سابقاً في الاتحاد السوفيتي ، وذهب ستالين حد التفكير في الترحيل الجماعي للمليوني يهودي سوفيتي الذين نجوا من الاضطهاد النازي . ومن بين «القضايا» الملفقة تماماً في فترة ما بعد الحرب هناك ما دُعِيَ بقضية لينينغراد ، آلاف من الموظفين الذين اما جاؤوا من المدينة البلطيقية أو كانوا في الادارة المحلية اعتقلوا وأعدموا من دون محاكمة . ومن بين الضحايا كان كوزنيتسوف ، سكرتير اللجنة المركزية ، وروديونوف رئيس مجلس وزراء جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية والسكرتيرون الحزبيون في موسكو ولينينغراد . وحتى لم تذكر الصحافة ذلك . وواجه قادة آخرون نهاية مأساوية . وكانت هذه حال لوزوفسكي الرئيس السابق لاتحاد النقابات العمالية الحمراء العالمي . وازاح ستالين أيضاً الكثير من العسكريين الذين هددت مكانتهم مكانته . وعلى هذه الشاكلة وجد المارشال جوكوف نفسه قائداً عسكرياً

لمنطقة أوديسا . واختفى فوزنيسينسكي ، العضو الكامل في المكتب السياسي ، دون أن يُخْبَرَ الرأي العام مجرد أخبار .

استخدمت البرجوازية في الخارج كل هذه الحقائق وهي تواصل ذلك . وعلى الرغم من الاحتياطات المأخوذة ، فان هذا الوضع لم يكن ممكناً اخفاؤه خارج الاتحاد السوفيتي ، الذي كانت لديه علاقات دبلوماسية مع عشرات البلدان . ووصف المرتدون الذين هربوا الى الغرب الحياة في المعسكرات وبينوا كيف كان البوليس السياسي يمارس عمله . وكان ينبغي اطلاق سراح الأجانب ، البولنديين مثلاً ، تطبيقاً للاتفاقات الدولية . وهكذا ، بررت الامبريالية سياستها على أساس الظاهرة الستالينية والجوانب الشمولية التي اتخذتها . وتحدث تشرشل عن « الستار الحديد » السوفيتي وحدثت حملات معادية للسوفيت عنيفة مؤججة الحرب الباردة . وساهم المرتدون من الاتحاد السوفيتي مثل كرافشينكو ، في هذه الحملات . وكانت هذه بالطبع محنة بما فيه الكفاية . ولها أساس في الواقع ، ومع ذلك فانها طرحت فقط تلك الجوانب التي كانت أكثر اظلاماً وأقل ملاءمة للاتحاد السوفيتي . وكانت بالنسبة للكثيرين عذراً لتبرير سياستهم العدوانية ازاء الاتحاد السوفيتي ، ولجعل ميثاق الأطلسي والناتو مقبولين ، ولحمل الناس على نسيان قمع الشيوعيين في اليونان ، والتغاضي عن الشناعات التي اقترفها النظام الاستعماري الفرنسي في الهند الصينية ، ومدغشقر والجزائر ، ودعم فرانكو في اسبانيا ، وسالازار في البرتغال ، وتشان كايشيك في فرموزا الخ . أما بالنسبة للتقدم الصناعي والثقافي الذي حققه الاتحاد السوفيتي ، فقد اعتبر من غير الملائم ذكره .(٤) ان الموقف الذي تبنته الحركة الشيوعية العالمية ، والذي أنكر حقيقة هذه الوقائع حتى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي في

٤ـ على سبيل المثال : Suzanne Labin in Staline le Terrible, Paris, 1948, or Brzizinski in The Permanent Purge, Harvard University, Cambridge, 1956.

١٩٥٦ ، يمكن تفسيره في هذا السياق . فقد ادعت الأحزاب الشيوعية الأجنبية ان هذه كانت محض أكاذيب ودعاية برجوازية . ومن وجهة النظر هذه ، فان الحدث الأكثر أهمية الذي اتخذ ضد (Lettres Françaises) التي ادعت ان التصريحات التي تقدم بها كرافشينكو في (J'ai choisi la li-berté) . (اخترت الحرية) مجرد أكاذيب ؛ وبدت الكشوف التي قدمت حول الاتحاد السوفيتي منذ ١٩٣٠ أمراً مشكوكاً فيه بالنسبة للشيوعيين ، وما جعلها تبدو على هذا النحو أكثر ان المتهمين في محاكمات موسكو الكبرى اعترفوا ، ولان المؤمرات الامبريالية لم تكن مجرد اختراع من أمن الدولة . والمعلومات تسربت الآن بالدرجة الرئيس عن طريق المرتدين السوفيت الذين هربوا الى الغرب(كريفيتسكي ، أورلوف وكرافتشينكو) ، وتروتسكي والتروتسكيين ، ومراكز الدراسة الجامعية في البلدان الامبريالية . وليس من الممكن ان يكون الناس غافلين عن تلك البنود المرعبة مثل حق الترحيل الاداري ، ولكن كانت تعزا الى قساوة الحرب الأهلية وموقف الدول الامبريالية . لقد درّبت الكومنتيرن كل الأحزاب الشيوعية وقادتها . وجعلت الأممية الشيوعية الدفاع عن الاتحاد السوفيتي واحداً من أعمدة سياستها . وكان أحد الشروط الواحد والعشرين لعضوية الأممية الثالثة . وهكذا ، اعتادت الحركة على اعتبار كل شيء يقوله السوفيت حقيقة انجيلية ،والدفاع عن الاتحاد السوفيتي جملة وتفصيلاً . وكان الاتحاد السوفيتي لزمن طويل الدولة الاشتراكية الوحيدة في العالم ؛ «القلعة المحاصرة» التي بدت ضحية لمؤامرات كثيرة وضعيفة وسط العاصفة . وكان ضرورياً الدفاع عنها لان هتلر أو الامبريالية الفرنسية أو البريطانية أو اليابانية هددتها ، ومن ثم لان هتلر هاجمها ، وفيما بعد لان الامريكان والبريطانيين يعدون العدة لذلك . وأصبح من المستحيل التمييز بين ستالين والاتحاد السوفيتي . ومن هنا صعوبة الموقف الذي وجد تيتو والحزب الشيوعي اليوغسلافي نفسيهما فيه في ١٩٤٨ عندما فرض ستالين القطيعة .

انه لمن الأسهل في ١٩٧٥ الوصول الى تقييم هادئ لهذه القضايا . وشعرت كشيوعي شاب بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، انني أشارك في حملة صليبية عظيمة من أجل الاشتراكية في فترة كانت فيها الحرب الباردة في الذروة ، وكانت الجمهورية الفرنسية الرابعة تغوص في مستنقع الحروب الاستعمارية وفي سلسلة كاملة من الفضائح والظلم الاجتماعي . وكانت أفكاري الستالينية قائمة على اعتقاد عميق بانه حتى الحرب العالمية الثانية كان الاتحاد السوفيتي وحده الذي يرسم طريقاً جديداً ، وعلى رجحان دوره الذي اضطلع به في النصر على النازية . ولا أشعر ، خلافاً ، لبعض الناس ، انني دمرت شبابي وضحيت به من أجل مثال فارغ . ببساطة لقد تعلمت ، وكانت تجربة قاسية كما كتب رومان رولان الى هرمان هيسه في ٥ آذار (مارس) ١٩٣٥ «ان الفلاسفة ، (philosophes) كما كانوا يدعون في زمن جان جاك ، ما عادوا يُؤْخَذونَ في الحسبان في نظرأولئك الذين في السلطة . ومن حسن الحظ ان القضية التي يخدمونها أكبر منهم . «انني لا ألوم أولئك الذين تراجعوا بكرامة الى ملاجئهم(*) مع شعور ليس غير مبرر بانهم كانوا خاطئين ، بانهم كانوا قد خُدِعوا ، يعرف ذلك البعض ولا يعرفه آخرون ، ولكن يبدو لي انه كان ممكناً ان نسير بالتحليل أبعد وان نفصل ستالين عن الاشتراكية ، لانه في نهاية المطاف لم يكن سوى تجسيدها الأول الذي خلقه التأريخ في ظروف زمكانية خاصة جداً » .

في ٥ آذار (مارس) ١٩٥٣ كنت متوارياً عن الأنظار في بيت صغير في الضواحي الجنوبية لباريس على مبعدة خطوات من السين(٥) . وأذكر انني

(*) Aventine : to their owr Aventine أحد الجبال السبعة التي بنيت عليها روما ، في العصور القديمة كان ملجأ للائذين به ـ المترجم .

٥ ـ كانت نتيجة لـ « مؤامرة الحماسة » . ان عدداً من قادة الاتحاد الفرنسي للشباب الجمهوري (حركة الشباب الشيوعية) قد اعتقل ، واختفى عن الأنظار آخرون عدة شهور .

بكيت لوقت طويل عندما سمعت نبأ موت ستالين من الاذاعة . وكل الناس من جيلي يحملون في قلوبهم هذا الجرح ، وينبغي علينا ان نشفى منه اذا رغبنا ان نسير أبعد وأعلى على الطريق الذي أدرك ماركس نفسه ، انه ليس طريقاً سهلاً . وأفهم بالطبع ان ستالين الآن تأريخ قديم بالنسبة للشباب ، بما انهم ولدوا بعد موته ، ولكن المسائل التي أثارها هذا التأريخ تبقى .

وما كان جديداً بعمق بالمقارنة مع فترة ما قبل الحرب كان وجود عدد من الدول في اوربا وآسيا بدأت بناءها للاشتراكية ، ولكن على أساس وظروف مختلفة جداً ومتبعة عمليات متنوعة جداً ، وكانت ظروف الحرب العالمية الثانية وعواقبها على نحو لم يكن أياً من الدول الرأسمالية المتطورة الكبيرة جزءاً من المنطقة الاشتراكية التي امتدت في عام ١٩٤٩ من الألب الى المحيط الهادئ . ان الاتحاد السوفيتي الذي أصبح ثاني أقوى دولة على الأرض (مع انه كان متخلفاً كثيراً عن الولايات المتحدة) بسبب الانتصار وانهيار المانيا ، برهن على انه الدولة الاشتراكية الأكثر جبروتاً . ولم يكن البلد الأول الذي كان عليه ان يفتح الطريق ، بل ولان البلدان الأخرى سارت في الطريق نفسه بفضله الى حد كبير . واذا استثنينا الصين ، فان الدول الاشتراكية الأخرى كانت قليلة السكان .

البلد	السكان	المساحة (بالكيلومترات المربعة)
البانيا	١,١٧٥,٠٠٠	٢٨,٧٤٨
جمهورية المانيا الديمقراطية	١٧,٣١٣,٠٠٠	١٠٧,١٧٣
بلغاريا	٧,١٠٠,٠٠٠	١١٠,٨٤٢
المجر	٩,١٦٥,٠٠٠	٩٣,٠١١
بولندا	٢٣,٩٧٠,٠٠٠	٣١١,٧٣٠
رومانيا	١٦,٠٠٠,٠٠٠	٢٣٧,٣٨٤
تشيكوسلوفاكيا	١٢,٣٣٩,٠٠٠	١٢٧,٨٢٧
يوغسلافيا	١٥,٧٧٢,٠٠٠	٢٣٧,٣٨٤

واذا استبعدنا تشيكوسلوفاكيا (أو في الأقل القسم الغربي «التشيكي» فقد كانت بلداناً فقيرة نسبياً . زراعية في الأساس ولا تزال غير متطورة الا قليلاً من الناحيتين الاقتصادية والثقافية .

ويقول تقرير اللجنة المالية التابعة لمجلس الشيوخ الامريكي ، كانت هذه البلدان من حيث الدخل بالنسبة للفرد في عام ١٩٣٩ في منتصف الطريق بين اوربا الغربية وبلدان العالم الثالث (امريكا الجنوبية ، وافريقيا ، وآسيا) . والسمات الاقتصادية والبنى الاجتماعية لهذه البلدان كانت مشابهة لتلك التي كانت قائمة في الامبراطورية القيصرية في ١٩١٧ . وباستثناء تشيكوسلوفاكيا ، فقد كان هناك القليل من التقاليد والبنى الديمقراطية . وبالطبع فان مثال جمهورية المانيا الديمقراطية ، التي تأسست في عام ١٩٤٩ ، كان مختلفاً ، لانها كانت جزءاً من الرايخ السابق .

واعتبر ستالين ان هذه البلدان يجب ان تخضع بصراحة للاتحاد السوفيتي . ونوى فرض أنظمة سياسية واقتصادية عليها مماثلة لتلك الموجودة في الاتحاد السوفيتي ، والاحتفاظ برقابة دقيقة على سياستها الخارجية . وكما أظهرت الأزمة اليوغسلافية ، فانه كان عاجزاً عن ان يتصور قيام علاقات مساواة بين الدول الأوربية الشرقية الجديدة والاتحاد السوفيتي . لقد حصلت حركة جبارة في نهاية الحرب العالمية الثانية . فقد وصل الحزب الشيوعي اليوغسلافي تحت قيادة تيتو الى السلطة . وكان الجيش الأحمر قد ساعد في تحرير البلاد ، ولكن دوره لم يكن حاسماً ، لان جيش التحرير الشعبي كان قد سيطر على نصف البلاد تقريباً .

وحالما بدأت الحرب الباردة اجتمعت الأحزاب الشيوعية والعمالية(٦) لكي تتبنى استراتيجية مشتركة ، واستمر الاجتماع من ٢٢ الى ٢٧ ايلول

٦- الحزب الشيوعي الفرنسي ، الحزب الشيوعي الايطالي ، الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ، حزب العمال البلجيكي ، الحزب الشيوعي المجري ، حزب العمال البولندي ، الحزب الشيوعي الألباني ، الحزب الشيوعي اليوغسلافي ، والحزب الشيوعي الروماني .

(سبتمبر) ١٩٤٧ في سكلارسكا بوريبا في بولندا . وتقدم جدانوف الذي مثل بالاشتراك مع مالينكوف الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ، بتقرير بيّن فيه كيف كان العالم منقسماً الى معسكرين ، وطالب شيوعيي البلدان المختلفة الا يقللوا من قوتهم وان يرصوا صفوفهم وراء الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي في النضال ضد الامبريالية . وفي هذا الاجتماع انتقد الحزب الشيوعي اليوغسلافي بموافقة السوفيت سياسات الحزبين الشيوعيين الفرنسي والايطالي ، تلك السياسات التي اعتبرت انتهازية لانها لم تستخدم كل الامكانات الثورية التي وجدت في فرنسا وايطاليا في نهاية الحرب العالمية الثانية . وهذه الانتقادات لم تأخذ في الحسبان الاختلاف في الوضع في بلدان اوربا الشرقية وبلدان اوربا الغربية . ففي الأولى كان التحرير من عمل الجيش الأحمر ، أما في الثانية فكان من عمل الجيوش الانكلو ـ سكسونية .

وبعد المصادقة على تقرير جدانوف والانتقادات اليوغسلافية قبل مبدأ اقامة مكتب للاعلام للأحزاب الشيوعية والعمالية (الكومنفورم) ، الذي كان المقصود منه «تنظيم تبادل الخبرة وتنسيق النشاط على أساس الاتفاق المشترك» . ولم يكن الهدف اعادة تأسيس الكومنتيرن ، ولكن التعويض الى حد ما عن النقص في «العلاقات الدائمة والسليمة» ، كما قال مالينكوف .

واختيرت بلغراد مقراً للكومنفورم . وجرى الشك بسرعة في الفكرة ذاتها للمساواة بين الدول الاشتراكية ، لان الحزب الشيوعي اليوغسلافي لم يقبل عدم المساواة هذه . وقال ستالين لخروشوف : ان كل ما عليَّ ان اصنعه هو تحريك خنصري ، وسوف يتلاشى تيتو ، سوف ينهار . وفي الحقيقة ، أراد ستالين ان يجعل من يوغسلافيا عبرة ، ولكن الأخيرة لم تتأثر .

وبحلول ١٨ آذار (مارس) ١٩٤٨ ، قرر القادة السوفيت ان يسحبوا خبراءهم العسكريين من يوغسلافيا . وكانت استجابة يوغسلافيا لانذارات السوفيت سلبية ، وفي حزيران (يونيو) ١٩٤٨ أدانها الكومنفورم . والظاهر ان ستالين توقع ان يدعمه قسم كبير من الحزب الشيوعي اليوغسلافي : وظن انه

بجعل القضية علنية فسوف يترك تيتو أمام أحد خيارين اما الخضوع واما الاستقالة . وفي نيسان (ابريل) كان عدد من القادة اليوغسلاف قد أيدوا بالفعل الخط السوفيتي . واتهم ستالين تيتو بالنزعة القومية البرجوازية ، وناشد قرار الكومنفورم بوضوح القوى السليمة في داخل الحزب الشيوعي اليوغسلافي ان تجبر القيادة على تبني خط سياسي جديد » .

وعلى أية حال ، لم يكن « خنصر » ستالين كافياً لجعل يوغسلافيا تركع . وأحطبت مؤامرةٌ عسكرية في بلغراد أوحى بها السوفيت . وكان الخيار الوحيد الباقي أمام ستالين هو التدخل العسكري المباشر ، ولكنه لم يجرؤ على اتخاذ ذلك بسبب تصميم اليوغسلافيين والموقف الامريكي . وكان الحزب الشيوعي اليوغسلافي في موقف صعب . كان ذلك هو الموقف الذي كان فيه تروتسكي في نهاية العشرينات وفي خلال الثلاثينيات . اذا ما عارضوا ستالين ، الا يعني هذا انهم كانوا يعارضون الاتحاد السوفيتي ، وبذلك يوجهون ضربة للاشتراكية ، ويساعدون الامبريالية موضوعياً ؟ ومهما يكن الأمر ، فقد كان ثمة اختلاف أساسي . فقد كان الحزب الشيوعي اليوغسلافي في السلطة ، وكان تيتو قائداً لدولة في حالة انتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية . وساعدت الولايات المتحدة تيتو في نضاله ضد ستالين ، غير ان تيتو رفض أية شروط معادية للشيوعية ، وبنى الحزب الشيوعي اليوغسلافي اقتصاداً اشتراكياً في بلده ، بينما رفض اقامة أممية منفصلة جديدة . ومع ذلك لم يكن لديهم مجال واسع للمناورة .

ومع ان يوغسلافيا كانت معزولة اقتصادياً في شبه جزيرة البلقان الا انها استطاعت ان تصمد على الرغم من حوادث العنف التي وقعت لسنوات عديدة على طول حدودها مع بلغاريا والمجر وتشيكلوسلوفاكيا .

وستالين الذي بدا عاجزاً عن انزال الهزيمة بتيتو ، مارس سيطرة أكثر صرامة على الديمقراطيات الشعبية في اوربا . ففي هذه البلدان ، اما أصبح الحزب الشيوعي هو الحزب الوحيد (كما كان الحال في الاتحاد السوفيتي) ،

واما كان على معظم القادة الاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين اما ان يهاجروا واما ان يعتقلوا ويعدموا ، متهمين «بالتجسس للامبريالية الامريكية» ، كما كانت تملي تقاليد العصر . وبحلول عام ١٩٤٩ كانت الأحزاب الشيوعية والعمالية مهيمنة تماماً على الحياة العامة . واضطلع البوليس السري الذي كانت وزارة الداخلية السوفيتية تسيطر عليه ، في كل مكان بدور المسيطر ، وأخضعت وسائل الاعلام لرقابة خاصة ، بينما وجهت ضربة شديدة بشكل خاص الى أوساط المثقفين . وعانت الأحزاب الشيوعية قمعاً قاسياً كان تذكرة بالقمع الذي أنزل بالحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي في فترة ما قبل الحرب أكثر مما في فترة ما بعد الحرب .

وهكذا ، نظمت محاكمات علنية كبيرة لقادة الأحزاب الشيوعية ، واعترف هؤلاء بجرائمهم بعد دورات تعذيب مماثلة لتلك التي حدثت في الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ـ . ففي المجر أعدم وزير الخارجية راجك وأرسل كادار الى السجن (في ١٩٥٣ كان هناك ١٥٠ ألف سجين سياسي) . وفي بولندا قدم غومولكا الى المحاكمة وصدر عليه حكم بالسجن مدى الحياة . وفي بلغاريا حوكم كوستوف ، سكرتير الحزب ، وأعدم ، ولاقى هذا المصير دزوردزه (Dzodze) في البانيا . وحالة تشيكوسلوفاكيا مثيرة للاهتمام باعتبارها البلد الوحيد في هذا الجزء من اوربا الذي كان ذا تطور عال نسبياً ولديه ديمقراطية برجوازية مجربة . كان الحزب الشيوعي التشيكي قوياً (حصل على ٣٨ في المئة من مجموع أصوات الناخبين في البلد كله في عام ١٩٤٥) ، وخلافاً لما يتردد غالباً الآن فان السوفيت تدخلوا بصورة غير مباشرة في العملية التي أفضت الى احداث شباط (فبراير) ١٩٤٨ . لم تكن تشكيلوسلوفاكيا في منطقة احتلال الجيش البريطاني والامريكي . وكان الجيش الأحمر هو الذي حرر البلد . وكان هذا عاملاً في مصلحة تطور الاشتراكية في ذلك البلد . وعلى أية حال ، فان انقلاباً عسكرياً مضاداً للثورة كاد ان يقع في ١٩٤٨ ؛ وفشل بسبب المعارضة الشعبية وليس نتيجة لتدخل الجيش الأحمر . وما يسمى بـ «انقلاب براغ» لم

يكن شيئاً سوى الرد الجماهيري السريع على هذ المحاولة للحد من نفوذ الشيوعيين في تشيكوسلوفاكيا ومحو المكتسبات التي تحققت عند التحرير .

وفيما بعد أصبحت الحماية السوفيتية لا تكاد تطاق . اذ استنتسخت تشيكوسلوفاكيا طرائق الاتحاد السوفيتي في القيادة السياسية والادارة الاقتصادية والتخطيط . وكانت النتيجة كارثية على نحو خاص ، لان الوضع التشيكي كان أقل ملائمة من أي بلد آخر لاستيراد الأساليب السوفيتية . وطال القمع الحزب الشيوعي التشيكي والمثقفين . وقد أرسل غوستاف هوساك الى السجن ، ونظمت محاكمات كبرى بمساعدة البوليس السري السوفيتي : ومن بين آخرين كان على سلانسكي ، السكرتير العام للحزب الشيوعي التشيكي ، ان يعترف بجرائم متخيلة(*) . أما الآخرون ومن بينهم آرثر لندن ، واي . لويبل فقد أطلق سراحهم بعد سنوات .

أما بالنسبة لجمهورية المانيا الديمقراطية فقد عانت مشكلات نتيجة النزوح الجماهيري من خلال برلين ، حيث يستطيع الناس المرور بحرية من القطاع الشرقي الى القطاع الغربي من المدينة .

وكانت ثمة أسباب اقتصادية أيضاً للضغط السوفيتي على الديمقراطيات الشعبية . على سبيل المثال ، سيطرت الشركات السوفيتية ـ الرومانية على جزء غير يسير من الاقتصاد الروماني (شركة سوفروم ـ بيترول) . وكانت العلاقات الاقتصادية بين الاتحادالسوفيتي والديمقراطيات الشعبية في الغالب غير متكافئة ، لان الاتحاد السوفيتي اشترى منتوجاتها بأسعار دون أسعار السوق ودفع لها بالروبل غير القابل للتحويل . وعززت هذه الاتجاهات عدم المساواة وبررتها بلغة متطلبات الانضباط في «المعسكر المعادي للامبريالية» ، في ظروف اشتداد الحرب الباردة والمغامرة بنشوب حرب عالمية ثالثة . وكما هي الحال دائماً ، فقد انطلقت السياسة الستالينية من وقائع فعلية .

(*) أعدم سلانسكي ، كما مر سابقاً ـ المترجم .

للأسباب التي ذكرناها سابقاً ، لم تكن لدى ستالين نية في شن حرب عالمية جديدة ، غير انه احتاج الى درجة معينة من التوتر الدولي لتبرير سياسته الداخلية وموقفه ازاء الديمقراطيات الشعبية . ان الامبريالية الامريكية ، التي تتحمل المسؤولية الرئيسة عن الحرب الباردة ، قامت بأعمال عدوانية متكررة ، ولكن الاتحاد السوفيتي جرّب قنبلته الذرية الأولى في عام ١٩٤٩ ، وبدا واضحاً في اوربا توازن مزعزع الى حد ما قائم على سباق التسلح .

وفي مواجهة المعاهدة الأطلسية والناتو كانت هناك معاهدة وارشو ومنظمتها العسكرية ، وفي مقابل جمهورية المانيا الاتحادية وقفت جمهورية المانيا الديمقراطية ، وكان في الطرف الثاني من اتحاد الفحم والحديد بين بلدان اوربا الغربية يقوم الكوميكون (أسس في ١٩٤٩) . وهكذا تم تنظيم المعسكرين ووطدت مواقعهما .

وكانت النتائج في هذا الميدان شأنها في جميع الميادين الأخرى ، متناقضة . فالأجزاء الشرقية في اوربا والبلقان كانت تمر بتحولات اقتصادية واجتماعية عميقة . وكان الرأسماليون وملاك الأرض الكبار يفقدون هيمنتهم ، بينما كانت أسس الاشتراكية توضع جاعلة في الامكان النمو السريع للقوى المنتجة والنضال ضد التخلف الثقافي . وفي الوقت نفسه ، كانت السياسة الستالينية ، كما في الاتحاد السوفيتي ، تفضي الى نظام استبدادي ، تواءم مع التقاليد في معظم البلدان ، والى تقوية البيرواقراطية .

وبفضل الثورية الصينية كان الوضع مختلفاً نوعاً ما . فقد اتبعت طريقاً تأريخياً كان مختلفاً تماماً عن النماذج الكلاسيكية للماركسية اللينينية . فالشيوعيون الصينيون الذين كانوا قد طردوا من المدن الكبيرة ، التي كانت على كل حال قليلة العدد نسبياً بالنسبة للسكان الصينيين ، أسسوا بسبب القمع جمهورية جديدة (ريفية بالأساس) كانت الخلية الأساسية لجمهورية الصين الشعبية مستقبلاً ، ونفذوا برنامجاً لاصلاح الأرض كان نموذجاً للتحول

المستقبلي في البلاد ، بينما كان الجيش الشعبي ، أداة النصر على الامبريالية ، في طور التكوين . وقاومت الجمهورية الكومنتانغ تحت قيادة تشانغ كاي شيك .

ولم يبد ستالين تفهماً كبيراً فيما يتعلق بسياسة الحزب الشيوعي الصيني . فقد أسس علاقات طيبة مع حكومة شان كايشيك وكان ينوي الاحتفاظ بها ؛ ففي خلال الحرب ضد اليابان كان يؤيد دمج القوات الشيوعية في الجيش القومي . ورفض ماوتسي تونغ ذو التجربة المريرة لعام ١٩٢٧ بحسم ان يضع رأسه في «فم الأسد» .وخلافاً لنصيحة السوفيت الذين أرادوا ان يقوم الشيوعيون الصينيون بعمليات عسكرية واسعة ضد اليابان . كان ماوتسي تونغ مقتنعاً بتطوير نشاط الأنصار . وفي نيسان (ابريل) ١٩٤١ ، كان الاتحاد السوفيتي قد وقع معاهدة عدم اعتداء مع اليابانيين ، ولكنه كان خائفاً من ان تفسخ ، وهكذا أصر على انه يجب ان يستمر الضغط على القوات اليابانية في الصين . ان «الحرب الثورية» وهي مزيج من الكفاح المسلح والعمل السياسي ، مكنت الشيوعيين الصينيين من تحرير مناطق واسعة خلف خطوط القوات اليابانية والكومنتانغ . وعندما استسلمت اليابان ، كانت تحت تصرف الشيوعيين الصينين قوات كبيرة ، كانت قد تنامت في أثناء الحرب ضد اليابان . وساهم الاتحاد السوفيتي في نهاية الحرب وحرر منشوريا . ولكن ستالين استمر على التعامل مع تشانغ كاي شيك ؛ وهذا ما قاله بنفسه الى الدبلوماسيين الامريكيين هيرلي (سفير الولايات المتحدة في الصين) في ١٥ نيسان (مارس) ١٩٤٥ وهوبكنز (مستشار الحكومة الامريكية) في ٢٨ ايار (مايو) ١٩٤٥ . ووقع مع تشانغ كاي شيك معاهدة صداقة وتحالف أعادت للاتحاد السوفيتي امتيازاته الاقليمية التي كانت روسيا القيصرية تتمتع بها في الصين . ومع ذلك فان المساعدة السوفيتية للشيوعيين الصينيين كانت كبيرة ، لانها مكنتهم من الاستيلاء على مساحات شاسعة في منشوريا وعلى جزء من التجهيزات العسكرية اليابانية ، غير انها بقيت دون ما كان الشيوعيون

الصينيون يأملون فيه . وعبثاً حاول ستالين اقناع الشيوعيين الصينيين ان يشاركوا في حكومة وحدة وطنية يقودها تشانغ كاي شيك . وكان على الحرب الأهلية ان تستمر حتى نهاية ١٩٤٩ . وعلى الرغم من المساعدة الامريكية ، فان نظام حكم تشانغ كاي شيك الذي كان فاسداً حتى الجذور ، انهار عسكرياً وسياسياً .

ان ميلاد جمهورية الصين الشعبية في عام ١٩٤٩ ، خلق وضعاً جديداً بالمرة في الشرق الأقصى . فقد قوى موقع جمهورية كوريا الشعبية (كوريا الشمالية) التي يقودها كيم ايل سونغ ، وسهّل النضال ضد النزعة الاستعمارية الفرنسية في فيتنام لقوات فيت مينه تحت قيادة هوشي مينه . وفي الوقت نفسه ، عزز انتصار الشيوعيين الصينيين المعسكر المعادي للامبريالية . وأدرك ستالين ، الذي تعلم من تجربته مع اليوغسلافيين انه لا يستطيع ان يعامل ماو بالطريقة التي عامل بها تيتو . اما بالنسبة لماو فقد اعتبر التحالف مع الاتحاد السوفيتي ضرورة . وموقف القوى الغربية التي قاطعت الدولة الجديدة لم يكن يترك له خياراً آخر . ان المعاهدة الصينية ـ السوفيتية التي وقع عليها في ١٩٥٠ ، والتي كانت سارية المفعول لمدة ثلاثين سنة ، أقامت تحالفاً قصد به ان يكون متيناً ودائماً . وحصل الاتحاد السوفيتي على اقامة مؤسسات صينية ـ سوفيتية مشتركة ، وكذلك على تشغيل للخطوط الجوية . وكان مقدراً ان تعاد الى الصين سكة حديد منشوريا وقاعدة بورت آرثر ، ووعدت المعاهدة الصين بتقديم أموال للتنمية الاقتصادية وتوفير مساعدة من الناحية التقنية (كان من المقدر ارسال المختصين السوفيت وتدريب الفنيين الصينيين) . وكان للاتحاد السوفيتي ان يحتفظ بقاعدة ديرين (Darien) حتى توقيع معاهدة سلام مع اليابان . وتطلّب الأمر أسابيع من المحادثات لتحقيق ذلك . مع هذا فان المساومة التي شرع بها في ١٩٥٠ استمرت لبعض الوقت حتى واجهت بنجاح محن الحرب الكورية ، عندما تدخلت الصين لمساعدة جمهورية كوريا الشعبية في تعزيز استقلالها في مواجهة الامريكيين .

ان الصعوبات الحقيقية بين الدولتين الشيوعيتين الكبيرتين لم تكن لتبدأ في الواقع الا بعد وفاة ستالين . فالدولتان كانتا دونما شك مرتبطتين بأيديولوجية مشتركة ، غير ان ماوتسي تونغ كان قد كيّف الماركسية لتلائم الصين ، كما كان ستالين قد كيّفها لتلائم روسيا . والقضايا التي كان على الدولتين حلها كانت مختلفة بشكل واضح ، وان عبء التاريخ كان قد عمل على الفصل بينهما أكثر من توحيدهما . وظهر ان العلاقات الصينية ـ السوفيتية أقيمت على أساس عادل ، لكن هذه الفورة نبعت من نزعة تفاؤلية قسرية أكثر مما نبعت من الوضع الواقعي .

وهكذا ، بدا المعسكر المعادي للامبريالية في عام ١٩٥٣ موحداً تماماً وراء الاتحاد السوفيتي . ويوغسلافيا وحدها تفادت قوة جذبه . غير ان التوترات لم تكن معدومة وراء هذه الوحدة الظاهرية ، وقد أكدت حضورها بعد عام ١٩٥٣ ، وعلى الرغم من ذلك ، فان الأسوأ كان قد تم تجنبه . اذ نجحت (هذه القوى) في منع قيام حرب عالمية ثالثة . ففي وقت أزمة برلين ومن ثم في أثناء الحرب الكورية كان السلام معلقاً بخيط فقط ولكن هذا الخيط لم ينقطع . ان حجم حملة التواقيع على نداء استوكهولم ضد استخدام الأسلحة النووية ، ونشاط أنصار السلام ، أظهر ان شعوب العالم ليست عازمة على اختبار أهوال الحرب مجدداً تلك الحرب التي كان من المحتمل ان تكون حتى أكثر دماراً من سابقتها .

وكانت في هذا المضمار حدود ، حتى للسياسات الستالينية ، ولم تتخطها . ساعدت (السياسات الستالينية) أحياناً في زيادة التوترات الدولية عن طريق تسهيل مخططات البلدان الامبريالية ، واستخدمت لتبرير معاداة الشيوعية ومعاداة السوفيتية . وعلى أية حال ، فان الامبريالية لم تنجح في استعادة الأرض المفقودة منذ الحرب العالمية الثانية ، واستمرت في خسران الأرض مع الثورة الصينية ، ونمو حركات التحرر الوطني في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية . وكان الوضع في البلدان الرأسمالية المتطورة غير مرض من جميع الوجوه .

وعلى الرغم من العودة الى الارهاب والزيادة في المظاهر البيروقراطية فان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية من ١٩٤٦ الى ١٩٥٣ قد خبر نمواً صناعياً وثقافياً كبيراً ، ومن الجهة الثانية ، فان الزراعة لم تحقق في الواقع أي تقدم .

ففي حقل الصناعة ازداد انتاج مصادر الطاقة والصناعة الثقيلة في أثناء الخطة الخمسية الرابعة والنصف الأول من الخطة الخامسة .

	١٩٤٠	١٩٤٥	١٩٥٠	١٩٥٣
الفحم	١٦٥,٩	١٤٩,٣	٢٦١,١	٣٢٠,٤
النفط	٣١,١	١٩,٤	٣٧,٩	٥٢,٨
الكهرباء	٤٨,٣	٤٣,٢	٩١,٢	١٣٤,٨
الفولاذ	١٨,٣	١٢,٣	٢٥,٤	٣٨,١
القطن	٣,٩	١,٦	٣,٨	٥,٣
الأحذية	٢١١	٦٣	٢٠٣,٤	٢٣٩,٥

ـ الفحم والنفط والفولاذ والقطن بملايين الأطنان .

ـ الكهرباء بملايين الكيلو واط ساعة .

ـ الأحذية بملايين الأزواج .

كان القطاع الصناعي المنتج للبضائع الاستهلاكية لا يزال في مستوى متوسط ، ولم يكن هذا مفاجأة بما ان الاستثمار كان موجهاً ، قبل كل شيء نحو صناعة الطاقة النووية ، والتسلح ، والفولاذ ، والتعليم ومشروعات البناء الأخرى . ففي عام ١٩٥٣ ، كان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية لا يزال ينتج عدداً ضئيلاً فقط من أجهزة التلفزيون ، والغسالات والأدوات البيتية الكهربائية . وكانت الصناعة الكيماوية متخلفة جداً ولم ينتج النايلون حتى ذلك

الوقت . وقد أنتج اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية من الأحذية أكثر قليلاً مما أنتجه في عام ١٩٤٠ ، وكمية غير كافية من الملابس ذات النوعية الرديئة وقليلاً جداً من العربات المتحركة (لوريات وسيارات عمومية بالأساس) . وهذا يفسر لماذا كانت الاتصالات مع الخارج محرّمة ، ولماذا رسمت الصحافة صورة زائفة للحياة في الغرب ، كانت التضحيات ضرورية لسنوات عديدة بسبب الوضع الأولي ، وعداوة بقية العالم والحرب العالمية الثانية ولكنها فرضت بالقوة والتهديدات الى حد كبير على الشعب السوفيتي . وفضل ستالين قمع الناس عوضاً عن اقناعهم . واشاعة البيروقراطية في الدولة وفقدان ثقته بالشعب قاداه الى ان يزيد ثقته بوزارة الداخلية بدلاً من المناقشة المفتوحة . وفي الأغلب كان ثمة نقص في بضائع الاستهلاك اليومي ، وكانت هذه ذات نوعية رديئة . وكانت أزمة الاسكان كارثية في المدن . ففي موسكو كانت القاعدة ان يسكن عدد من الأزواج في شقة واحدة ، ولم يكن ثمة ما يدهش في هذا كله . فالأموال المتوفرة خصصت للمشروعات التي سوف تخدم المجتمع على المدى البعيد . والحق ان هذه السياسة كانت في الواقع واقعية وذكية الى حد كبير . وعلى أية حال ، فانه كان ينبغي تفسيرها لكي يستطيع الشعب فهمها . وكان من المحتمل اجراء الاصلاحات هنا وهناك ، وربما كانت البيروقراطية قد أشاعت البطء في نمو قوى الانتاج ، غير ان ميزة ظاهرة ستالين أنها ، على أساس اقتصاد اشتراكي وضمن مجتمع اشتراكي ، قدمت حلولاً سيئة لقضايا حقيقية ، أي انها استعملت القوة والنزعة القومية والبيروقراطية .

ومن الجهة الأخرى كان الوضع في الزراعة مرعباً حقاً . وظهرت هنا عواقب الحرب ، ولكنها لا تمنح التفسير الكامل .

كان حصاد عام ١٩٥٢ أضأل من حصاد عام ١٩٤٠ ، وكان أفضل بقليل من حصاد عام ١٩١٣ ، اذ كان (٩٢,٢٠٠,٠٠٠) طن في عام ١٩٥٢ مقابل (٩٥,٦٠٠,٠٠٠) طن لعام ١٩٤٠ . كان انتاج القطن وبنجر السكر والبطاطا

قد ارتفع بالمقارنة مع عام ١٩٤٠ ، غير ان انتاج الفواكه والخضراوات قد انخفض .

كانت المواشي لا تزال في مستوى واطئ جداً ، اذ كان عددها لا يكاد يرتفع الا قليلاً جداً عن عددها في عام ١٩١٤ .

	١٩١٤	١٩٥٣
المواشي	٥٤,١	٥٦,٦
الخنازير	٢٣	٢٤,٣
الخراف	٨٩,٧	٩٤,٣

(بالملايين)

لقد ارتفع الانتاج الزراعي السوفيتي العام قليلاً جداً ، بينما كان ازدياد السكان أكبر ـ اذ كان عدد السكان (١٥٩,٢٠٠,٠٠٠) في عام ١٩١٣ فأصبح (١٨٨,٠٠٠,٠٠٠) في عام ١٩٥٣ .

ان سياسة البيروقراطية قد زادت سوءاً الوضع الصعب بالفعل ، ذلك الوضع الذي نشأ نتيجة للحرب العالمية الثانية . وقد بقي مستوى الاستثمار في القطاع الزراعي واطئاً ٧,٣٠ في المئة في خطة السنوات الخمس الرابعة ، و ٩,٦ في المئة في الخطة الخمسية الخامسة . وبقي سعر المنتج الزراعي واطئاً ، بينما زاد سعر المنتجات الصناعية .

وكما اعترف خروشوف في ايلول ١٩٥٣ ، فان مبدأ منح الفلاحين حوافز مادية نادراً ما احترم . واتخذت اجراءات للحد من حجم الاستثمارة الشخصية التي كان من حق المزارعين التعاونيين امتلاكها وفق شروط الأنظمة الكولخوزية لعام ١٩٣٥ . ومع انها كانت أقل من ٤ في المئة من الأرض المزروعة فانها مثلت نصف الانتاج السوفيتي من الخضراوات والفواكه والبطاطا والحليب واللحم ونصف المواشي .

وكانت الأساليب الزراعية البالية لا تزال مستعملة ، وكان تطبيق نظريات ليسنكو يعطي نتائجه الكارثية . وكان يترك كل ثلاث سنوات (وحتى اثنتين) جزء كبير من الأرض الصالحة للزراعة دون زرع . وأجبرت الدوائر الوزارية (Glavki) الكولخوزيين على ان يزرعوا محاصيل جديدة كانت في الواقع غير ملائمة لتربتهم ومناخهم . وفي اوكرانيا أدخلت الحنطة الربيعية عوضاً عن الحنطة الشتوية . وألزم المزارعون بزرع العلف سنة واحدة كجزء من نظام دورة المحاصيل ، مع ان هذا النوع من المحصول كان على الأغلب غير ملائم لشروط المناخ والتربة . ان نظام التخطيط الزراعي قد عانى المزيد من البيروقراطية لان التخطيط في هذا المجال صعب بالأصل . ولم يزر ستالين مزرعة تعاونية منذ عام ١٩٢٩ ، ومع ذلك بقي يقرر مسائل الزراعة كما قرر المسائل الأخرى جميعاً . وقيل انه كان يكتشف الحياة الزراعية من مشاهدة فيلم اسمه (Thkuban Cos-sachs) الذي نقل صورة أكثر من متفائلة عن هذه الحياة .

إن كل هذه القضايا ـ وأصدائها في الميدان الاجتماعي وتأثيرها في مستوى المعيشة ـ أفضت الى مناقشات في صفوف قيادة الحزب الشيوعي والهيئات الاقتصادية المعنية . ونحن لا نعرف تفاصيلها دائماً ، غير ان الخطوط العامة الرئيسة يمكن ادراكها . ففي ١٩ شباط ١٩٥٠ نشرت برافدا مقالة انتقدت نظام «الحلقة» في الكولخوزات (The ‘ Zvenos’) . كانت وحدات عمل صغيرة انتقدتها برافدا باعتبارها غير عقلانية وأقتُرِحَ الاستعاضة عنها بنظام «فرقة الانتاج» . وطرحت برافدا مسألة دمج الكولخوزات ، وفي ٤ آذار (مارس) ١٩٥١ ذهبت حد نشر مقالة بقلم خروشوف دعت الى اقامة مجموعات حضرية كبيرة للعمال الزراعيين "agrotowns" ؛ ولكنها في اليوم التالي أشارت الى ان هذه المقالة قصد بها فقط تحفيز المناقشة وتبخرت خطة (agro-towns) . وكان على اندرييف ، عضو المكتب السياسي وسكرتير اللجنة المركزية ، الذي انتقد في المقالة على الحلقات ، ان يقدم اعتذاراً علنياً ، وقد فقد مناصبه (احتفظ بألقابه حتى المؤتمر التاسع عشر في عام ١٩٥٢) .

ومع ذلك فان عدد الكولخوزات قلّص فهبط من ٢٥٢,٠٠٠ في عام ١٩٥٠ الى ٧٦,٣٥٥ في عام ١٩٥٢ ، وهذا لم يحسن مباشرة الوضع الزراعي . وحسب ما قاله خروشوف في المؤتمر العشرين فان ستالين درس حتى زيادة الضرائب على الريف ورفض رفع سعر المنتج الزراعي .

ووضع ستالين خططاً عملاقة علنية لـ «تحويل الطبيعة» . وتضمنت هذه جعل الصحارى خصبة ، ارواء السهوب ، زرع عشرات ألوف الأستار من الأشجار ، تحويل مجاري الأنهار في سيبيريا وصنع بحيرات كبيرة صممت لتغيير المناخ . وتحدثت الصحافة السوفيتية عن «مواقع البناء العظيمة للشيوعية» . ولنعترف أن هذه الفترة قد شهدت افتتاح قناة الفولغا ـ الدون ، وسكة حديد الاورال ـ كوزباس والمحطات الأولى الكهرمائية على الفولغا ، ولكن في ظل الظروف السائدة في الاتحادالسوفيتي في ١٩٥٢ ، فان الخطة التي نشرت آنذاك ، والتي سميت خطة دافيدوف على اسم مؤلفها ، كانت طوباوية محض .

وازداد عجز ستالين باطراد عن ادارة البلاد بتفهم لحقائق الحياة السوفيتية ، بمرور الزمن وتقدمه بالعمر وممارسته السلطة بطريقة منفردة أكثر فأكثر . لقد عاش في بيته الريفي في كونتسيفو على مبعدة عشرين كيلو متر الى الجنوب الغربي من موسكو ، ولم يتركه الا للذهاب الى عمله في الكرملين ، ولكي يصل الى هناك كان يسلك طريقاً مخصصاً له ـ له وحده !ـ وتحت الرقابة الدائمة لوزارة الداخلية . وطالب مرؤوسيه بالخضوع التام . وكما قال خروشوف ، فان سؤالاً وضع بطريقة سيئة ، أو نظرة حمقاء ، أو ملاحظة غير لبقة ، كانت كافية لتجعل ستالين يتخلص من أحد مساعديه . وفي نهاية حياته أصبح شكاكاً بحيث انه عزل فوروشيلوف الذي اتهم بكونه جاسوساً بريطانياً . وهدد مولوتوف وميكويان ، بينما رحّل زوجة الأول وطفلي الثاني . واعتقل أيضاً شقيق كاغانوفيتش (كان عضواً في اللجنة المركزية) .

وكما لاحظ بولغانين في طريق عودته بالسيارة من كونتسيفو مع خروشوف : «تذهب بعض الأحيان الى بيت ستالين لانه قدم اليك دعوة ودية ، وعندما تكون جالساً أمامه لا تعرف ما اذا كنت سوف تقضي ليلتك في فراشك الخاص أم في السجن .»

واشتملت شخصيته في نهاية حياته على سمات مرضية لا يمكن للمرء الا ان يعيها ، حتى لو لم تكن السبب الرئيس للأحداث التي ندرسها . كان جنون العظمة لديه صارخاً . ونتيجة لذلك ، ذهب حد اقامة تماثيل نصفية لنفسه على طول طرق حديقة بيته الريفي . وقال الناس في الأغلب انه عانى عقدة الاضطهاد ، وكانت هذه هي الحالة اذا ما حكمنا بالشكوك المتزايدة التي أبداها نحو مساعديه الأكثر اخلاصاً .

وعلى الرغم من ذلك بقي أسلوب حياة ستالين بسيطاً جداً . وكانت لذته الحقيقية الوحيدة ممارسة السلطة ، وهي شغف مرعب يكون أكثر جدية أحياناً من حب المال . وهذا ما جعله يتشكك في الآخرين ، لانه كان خائفاً من انه يمكن أن يعمل الآخرون ما عمله هو نفسه . كان لديه عدد من غرف النوم في بيته الريفي في كونتسيفو ، وهو نفسه لم يكن يعرف في أية غرفة سوف ينام ليلته .وهذا ما يلخص شخصيته بكاملها .

في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٢ عقد المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي . ولم تكن اللجنة المركزية ولا المكتب السياسي قد انعقد طيلة سنوات . أما بالنسبة للمؤتمر ، فان آخر وقت التأم فيه كان في عام ١٩٣٩ . وقاد ستالين الحزب بمساعدة لجان مكونة من ستة أو سبعة رفاق قياديين كان يجري ابدالهم وفق نزواته . وكان الحزب موجوداً على مستوى القواعد في المناطق والمحافظات وحتى الجمهوريات الاتحادية ، مع ان وزارة الداخلية احتفظت برقابة دقيقة على نشاطات الكوادر والشيوعيين في المنظمات القاعدية والمنطقية ، وهذا ما منع وجود مناظرة حقيقية .

ولم يتحدث ستالين في المؤتمر التاسع عشر ، ولكنه نشر في عشيته العمل « النظري » : القضايا الاقتصادية للاشتراكية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية . وقد درس فيه بسطحية القوانين الاقتصادية للاشتراكية وتنبأ بحرب عالمية أخرى بين البلدان الرأسمالية . ومَثّلَ هذا العمل تراجعاً معيناً عن تجاوزات السنوات السابقة ، بالقدر الذي اعترف فيه ستالين بوجود « القوانين الموضوعية » في الاقتصاديات ؛ غير انه على الرغم من هذه الحقيقة فانه رفض أي تغيير في نظام الادارة الاقتصادية وحساب الأسعار والتخطيط .

وهيمن على تحليله الاعتقاد بان الحروب بين البلدان الرأسمالية كانت حتمية وان تحليل لينين كان لا يزال صحيحاً بالكامل . وأكدت مجلة الشيوعي في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٣ ، استناداً الى ستالين « طالما بقيت الرأسمالية في البلدان الرئيسة ، فان المرء لا يستطيع تصور انهاء المحاصرة الرأسمالية » . وهذا ما وفر التبرير للحرب الباردة والارهاب ونظرية اشتداد الصراع الطبقي على النطاق الوطني والدولي كلما تطورت الاشتراكية . ونص سوسلوف على ذلك بوضوح في اجتماع الكومنفورم في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٩ : « تبين التجربة التأريخية انه كلما كان الوضع الذي تجد فيه الرجعية الامبريالية نفسها ميؤوساً منه تعاظمت نوبات غضبها وازدادت مغامراتها العسكرية التي يخشى منها . »

قدّم مالينكوف التقرير السياسي العام الى المؤتمر التاسع عشر ، وطرح خروشوف اللائحة الداخلية الجديدة المقترحة . كانت المناظرة أكاديمية . ولم تدرس بعمق أية واحدة من القضايا الكبرى ، والقى ستالين خطاباً قصيراً جداً كان موجهاً الى الأحزاب الشيوعية الأجنبية ؛ مجّد فيه الأممية والسلام والكفاح من أجل الديمقراطية والاستقلال الوطني . وما قاله كان جيداً وحقيقياً ، بيد انه تناقض في الأغلب مع ممارسته السياسية . والشيء الأكثر إثارة كان تركيب الهيئات القيادية المنتخبة في المؤتمر . فعضوية اللجنة المركزية تضاعفت . وكان عدد الأعضاء الكاملين والمرشحين ٢٣٦ شخصاً ،

كان (٦٠) في المئة منهم أعضاء بالفعل في اللجنة المركزية المنتخبة في ١٩٣٩ . وكان القمع قد أوهن صفوف القيادة الحزبية أكثر مما حصل في الفترة بين المؤتمرين السابع عشر والثامن عشر . وحلت محل المكتب السياسي هيئة رئاسة واسعة العضوية (٢٥ عضواً كاملاً و ١١ مرشحاً) . انه لحق كان ينبغي ان تكون ثمة رئاسة فعالة ذات عضوية لا نعرف عنها أي شيء .

وباستثناء أندرييف (الذي كان ، على أية حال ، قد انتخب الى اللجنة المركزية) ، فان جميع الأعضاء السابقين (sitting) أعيد انتخابهم (ماعدا كوسيجين الذي كان عضواً كاملاً منذ ١٩٤٨ وأصبح الآن مرشحاً مرة أخرى) . وأصبح سوسلوف عضواً كاملاً في المكتب السياسي ، وبريجنيف مرشحاً . وبالاضافة الى ستالين ، فان السكرتارية المؤلفة من عشرة ضمت مالينكوف ، خروشوف ، سوسلوف وبريجنيف .

والحزب لم يعد يسمى بلشفياً . ومنذ ١٩٤٥ أصبح مفوضو الشعب وزراء ، وأطلق على الجيش الأحمر اسم الجيش السوفيتي . ونصت اللائحة الداخلية على ان اللجنة المركزية ينبغي ان تجتمع كل ستة أشهر ، والمؤتمر كل أربع سنوات (عوضاً عن كل ثلاثة أشهر وكل ثلاث سنوات) . وكان ينبغي اعداد برنامج الحزب الجديد ، وانتخبت لجنة لهذا الغرض برئاسة ستالين .

انفضّ المؤتمر التاسع عشر في ١٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٢ . كان المؤتمر ذروة ستالين ، ففي اليوم الأول منه وصفه سيركوف ، وهو كاتب معروف ، بانه «المهندس العظيم للشيوعية» .

وارتفعت نحوه بحماسة عواصف التصفيق من المندوبين السوفيت والأجانب . والمحاضر تسجل : «جميع الحاضرين ينهضون . ثمة عاصفة من التصفيق تتحول الى تحية طويلة : «ليعش الرفيق ستالين!» «النصر للرفيق ستالين!» «ليعش الرفيق ستالين المرشد العظيم لعمال العالم!» «النصر لستالين العظيم!» «ليعش السلام بين الأمم!» .

لقد كان ستالين قد تسلم مئات آلاف الهدايا من جميع أنحاء العالم بمناسبة عيد ميلاده السبعين في عام ١٩٤٩ . وقد تحول متحف الثورة في موسكو الى متحف لهدايا ستالين . وقد نظّم الحزب الشيوعي الفرنسي معرضاً كبيراً من العاج . اذ بدا انه يتم التوحيد بين ستالين والثورة الاشتراكية .

وفي ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢ ، أقيم عرض عسكري كبير احتفالاً بالذكرى الخامسة والثلاثين لثورة اكتوبر . وقد حضر ستالين العرض ببزة الجنرال .ولم يكن راغباً في الظهور بمظهر الشيخ ، غير انه كان في الثالثة والسبعين من العمر . ومع ان طوله لم يزد على ١٦٧ سنتمتراً ، الا انه بدا ضخماً . فقد أضاف صناع أحذيته عدة سنتمترات لكعبه ، كما كان الأمر بالنسبة للويس الرابع عشر . لقد ازداد سمنة بالقياس لصوره المأخوذة في شبابه ، حيث كان لا يزال داكن اللون نحيفاً ، بينما منحت الأربعة والثمانين كيلو وجهه المجدور نظرة أبوية سمحة . ومع ذلك . . . اننا ننظر الى مجموعة الصور الفوتوغرافية الأخيرة المأخوذة قبل موت «المرشد العظيم للشعوب» : كان يقف على المنصة الى جانب ستالين كل هيئة الرئاسة الجديدة ، الأعضاء الكاملون والمرشحون . الأعضاء القدامى ، بيريا (الذي أعدم بعد أقل من سنة) ، مولوتوف ، كاغانوفيتش ، مالينكوف ، خروشوف ، الذي كان عليه ان يشجب جرائم ستالين بعد ثلاث سنوات بقليل ، فوروشيلوف ، ميكويان ،وشفيرنيك ، والمجندون الأحدث ، كوسجين ، سوسلوف ، وبريجنيف الذي لا يزال يحكم الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٧٥ . كانت هذه نقطة تحول أخرى في التأريخ . الجميع وقفوا من أجلها ، وخلف العدسات ، بدا الجميع ينظرون باتجاه مستقبل غامض ، مستقبل نعرفه جزئياً بالفعل ، نحن الذين نعيش في عام ١٩٧٥ .

في صباح ٣ آذار (مارس) ١٩٥٣ قطع راديو موسكو برامجه ليعلن ان ستالين كان مريضاً . في ٢٨ شباط (فبراير) كان ستالين قد دعا الى بيته الريفي في كونتسيفو مساعديه الأربعة الأكثر قرباً منه ، «الأخوة في السلاح»

(The soratniki) بيريا ، مالينكوف ، بولغانين ، خروشوف . لقد شربوا كمية كبيرة من الكحول . وفي الأول من آذار (مارس) لم يبد ستالين أية علامة على الحياة في أثناء اليوم . ولم يجرؤ أحد على الذهاب لرؤيته . وفي المساء اتصل ضابط الحراسة تلفونياً بأخوة السلاح يسألهم النصيحة . جاءوا الى البيت الريفي ، فتحوا أبواب غرف النوم ، لانهم لم يكونوا يعرفون في أية واحدة منها كان ، وفي ٢ آذار (مارس) في الثالثة قبل الظهر ، وجد ممدداً ميتاً على البساط حيث كان هناك لعدة ساعات .

يقول البيان الرسمي انه مات في ٥ آذار (مارس) في الساعة التاسعة وخمسين دقيقة بعد الظهر ، ليس من دون اشارة الى صورة سيئة معاد انتاجها (فتاة ترضع حملاً) معلقة على الجدار . ربما مات قبل هذا الوقت ، وأخر الاعلان عن وفاته لكي تتم الترتيبات وربما كان قد اغتيل ، كما أشير الى ذلك بعض الأحيان ، ولكن من دون برهان مكين . وهذا لا يغير في الأمر شيئاً . لقد مات آنذاك ، ونحن نتحدث تأريخياً ، أو بالأحرى ، عندما أعلن ليفتيان ، مذيع راديو موسكو ، «ان قلب جوزيف فيسوريو نوفتش قد توقف عن الخفقان» .

وكان لا يزال ينبغي دفنه . وقد وضع جسده في الشمع وقرر أن يتمدد الى جاب لينين في مدفنه (Mausloeum) ولثلاثة أيام كان الملايين من المواطنين السوفيت يحتشدون قرب قاعة الأعمدة ، حيث سجّي جسده ليلقوا عليه النظرة الأخيرة . وكان هناك «ذعر» وهياج كلّف العشرات من الحيوات .

وفي ٩ آذار (مارس) أُخِذَ جسد ستالين الى المدفن ليبقى هناك الى الأبد ـ في الحقيقة كان بقاؤه لمدة ثماني سنوات ـ أخذه حشد هائل استمع الى الخطباء ـ مالينكوف ، بيريا ومولوتوف ـ ونظر الى جميع قادة الأحزاب الشيوعية الأجنبية الذين كانوا حاضرين : ديكلو (توريز كان مريضاً فلم يحضر) ، تولياتي ، شوان لاي (لم يحضر ماو) ، التشيكي غوتوالد ، المجري راكوشي ، الألماني اولبرخت ، وبول بيرو ، والعشرات من الآخرين .

وحدثت مظاهرات هائلة في العالم كله . وفي بكين نُظِّمَ موكب ضخم بحضور ماو ، وجرى في باريس تشييع رمزي عظيم في ملعب (. . . .)(٧) .

ان ظاهرة ستالين لم تمت بموت ستالين ، ولكن انحسارها بدأ . ففي روما كانت صخرة تاربين (Tarpeian Roche) قريبة من الكابتول ، والمدفن في الساحة الحمراء لم يكن بعيداً عن القاعة في الكرملين التي عقد فيها المؤتمر العشرين .

٧ـ (The Vélodrome d'Hiver) ملعب رياضي مسقوف في باريس (ملاحظة المترجم الى اللغة الانكليزية) .

-٧-

بعض الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لظاهرة ستالين

كانت ظاهرة ستالين معقدة ومتناقضة ، ولذلك فانها ليست سهلة على التحليل . ناهيكم عن التفسير . وكنا حتى الآن نحاول تقديم تناول تأريخي ، فهذا التناول يبدو لنا ذا أهمية حاسمة من حيث المبدأ وليس لأسباب حرفية . وعلى أية حال ، هذا ليس كافياً ، ولذلك فاننا اعتبرنا من الضروري دراسة جوانبها المختلفة لكي نحاول تعريفها وتفسيرها بطريقة أفضل .

ان التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي مرّ فيها الاتحاد السوفيتي منذ ١٩٢٢ لفتت نظر جميع المراقبين ، مع ان بعض هؤلاء حاول ولا يزال يحاول تقليل أهميتها الى الحد الأدنى أو تشويه معناها . فقوى الانتاج نمت بصورة كبيرة ، وتزداد قيمة ذلك لاننا ينبغي ان نأخذ حقيقتين في الاعتبار . ان النمو الحقيقي لم يبدأ الا في١٩٢٨ ، لانه لم يصل أرقام الانتاج المتحققة في عام ١٩١٣ الا في عام ١٩٢٧ . وقطعت الحرب العالمية الثانية ذلك وأحالت الاتحاد السوفيتي الى خراب .

لقد قدمنا وصفاً دقيقاً كافياً للعواقب السكانية والاقتصادية للحرب ، وليس ثمة حاجة للعودة تفصيلاً الى الموضوع . دعونا ببساطة نتذكر ان شعوب

الاتحاد السوفيتي قد فقدت منذ عام ١٩١٣ في الأقل ٤٥ مليون انسان نتيجة للحرب والمجاعة والارهاب ، وان فقدان الأطفال المحتملين كان بالقدر نفسه .

في عام ١٩٥٣ كان سكان الاتحاد السوفيتي ١٨٨ مليوناً . وكان ينبغي ان يكونوا ٢٧٠ مليوناً . وقد وصل عدد السكان ٢٥٠ مليوناً في آب (اغسطس) ١٩٧٣ . وسوف يصل عددهم ٢٧٠ مليونا في حوالي عام ١٩٩٠ ، أي بعد ٣٧ سنة . وهذا يعطي الانسان فكرة عن التأخير الذي فرضته الحروب وظاهرة ستالين نفسها على الاتحاد السوفيتي من الناحية السكانية ، ومما لا شك فيه في الميدان الاقتصادي .

واذا ما تفحصنا نتائج الفترة بكاملها ، نستطيع القول انها جيدة جداً فيما يتعلق بالصناعة الثقيلة (مصادر الطاقة والحديد والفولاذ) ، وفقيرة في حالة الصناعة الخفيفة والاستهلاكية ، بحق في حالة الزراعة .

	١٩١٣	١٩٢٢	١٩٢٨	١٩٤٠	١٩٤٥	١٩٥٣
الفحم	٢٨,٤	١١,٤	٣٥,٩	١٦٥,٩	١٤٩,٣	٣٢٠,٤
النفط	٩,٤	٣,٨	١٠,٩	٣١,١	١٩,٤	٥٢,٨
الكهرباء	٢، ـ	١,١	٥، ـ	٤٨,٣	٤٣,٢	١٣٤,٨
	١٩١٣	١٩٢٢	١٩٢٨	١٩٤٠	١٩٤٥	١٩٥٣
الفولاذ	٤,٣	١,٤	٤,٢	١٨,٣	١٢,٣	٣٨,١
القطن	١,٩	٧، ـ	ـ	٣,٩	١,٦	٥,٣
الحبوب	٨٠,١	٤٣، ـ	٧٣، ـ	٩٥,٦	٤٧,٣	٩٢,٢
المواشي	٥٤,١	ـ	٦٠، ـ	٤٧,٨	٤٧,٦	٥٦,٦
السكان	١٥٩,٢	ـ	ـ	١٩٤، ـ	١٧١، ـ	١٨٨، ـ

ـ الفحم والنفط والفولاذ والقطن ـ : (بملايين الأطنان) .
ـ الكهرباء : بالملايين .
ـ المواشي : بملايين الرؤوس .
ـ السكان : بملايين القاطنين (في الاقليم الحالي لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية) .

هذه النتائج تتطلب تعقيباً . ولا يمكن مقارنتها بتلك النتائج للدول الرأسمالية الكبرى التي بدأت من مستوى أعلى بما لا يقاس ،والتي خبرت من القضايا أقل بما لا حدود له منذ عام ١٩١٣ وهي احدى القضايا التي يطرحها تأريخ الاشتراكية . فيما انها انتصرت في بلدان قليلة التطور أو متطورة بما ليس فيه الكفاية (ماعدا تشيكوسلوفاكيا ،وهي بلد صغير) ، فان المقارنة بكل موضوعية غير صحيحة . واذا كانت موجودة حقاً ، ونحن نعتقد انها كذلك ، فان تفوق الاشتراكية لا يمكن التدليل عليه الا من الناحية المفهومية وباسلوب مجرد أساساً . انه لا يمكن قياسه ، ومن هنا المناظرات المتواصلة في هذا المضمار ، ولكي ندركه من الضروري بذل جهد فكري .[1] وهذا هو السبب في ان احدى سمات ظاهرة ستالين ، وهي سمة ضارة ولكنها مفهومة على أية حال ، الكذب المنتظم حول حقيقة الأوضاع في البلدان الرأسمالية ، عوضاً عن التفسير بطريقة شاملة للأسباب العميقة الكامنة وراء بقاء الاتحاد السوفيتي متخلفاً كثيراً عن الولايات المتحدة الامريكية والدول الرأسمالية المتطورة في اوربا الغربية في ١٩٥٣ .

ومع هذا ، فان الاتحاد السوفيتي قد تلافى جزءاً من عجزه على الرغم من الظروف التأريخية الأقل ملاءمة بشكل غير محدود من ظروف الولايات المتحدة .

(الكهرباء بمليارات الكيلو واط ـ ساعة)	١٩١٣	١٩٥١	١٩٧٣
الاتحاد السوفيتي	٢	١٠٣	٩١٥
الولايات المتحدة	٢٥,٨	٣٧٠	١,٨٥٤

١ـ في عام ١٩٧٥ لم يعدالوضع كما كان سابقاً . لقد حقق الاقتصادالسوفيتي تقدماً . فالاتحاد السوفيتي متقدم على الولايات المتحدة بالفحم والحديد الخام والحديد . وتتقلص الثغرة في الناتج من السلع الاستهلاكية في وقت يعاني فيه الاقتصاد الرأسمالي الأزمة على نحو حاد ، والتضخم والبطالة .

الفحم (بملايين الأطنان)	١٩١٣	١٩٥١	١٩٧٣
الاتحاد السوفيتي	٢٩,٢	٢٨١	٦٦٨
الولايات المتحدة	٥١٧,٨	٥٢٣	٥٣٢

النفط (بملايين الأطنان)			
الاتحاد السوفيتي	١٠,٣	٤٢	٤٢١
الولايات المتحدة	٣٤	٣٠٩	٤٦٧

الفولاذ (بملايين الأطنان)			
الاتحاد السوفيتي	٣,٣	٣١	١٣١
الولايات المتحدة	٣١,٥	٩٥	١٢٣,٥

أما فيما يتعلق بالناتج من البضائع الاستهلاكية ومستوى المعيشة فان الثغرة كانت لا تزال كبيرة جداً (العربات ، الأدوات المنزلية ، البلاستيكيات ، الخ) . وفي عام ١٩٥٥ كان الناتج بالنسبة لآلاف السكان على النحو التالي :

	الاتحاد السوفيتي	الولايات المتحدة
أجهزة الراديو	٦٦	٩٧٤
الثلاجات	٥	٢٨٨
أجهزة التلفزيون	٤	٣١٨
الغسالات	١	٢١٦
الأدوات المنزلية الصغيرة	٢	٢١١
العربات السيارة	٢	٣٠٠

لقد أعطى الاتحاد السوفيتي الأولوية لتطوير عدد معين من القطاعات التي اعتبرها أساسية : مصادر الطاقة ، الحديد والفولاذ ، صناعة الأسلحة ، الموارد الاجتماعية - الثقافية (التعليم في المقدمة) . ولنتذكر ان الاتحاد السوفيتي توصل الى صناعة القنبلة الذرية في ١٩٤٩ ، والقنبلة الهيدروجينية في ١٩٥٣ . وفي عام ١٩٥٧ أطلق أول قمر صناعي ، وهذا يعني السفينة الفضائية الأولى للدوران حول الأرض . ولم تكن ثمة طريقة أخرى لضمان بقاء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية مستقلاً . ان اضفاء الطابع الاجتماعي على وسائل الانتاج والتبادل جعل ذلك ممكناً عن طريق توجيه الاستثمار نحو قطاعات معينة وليس نحو غيرها . كان هذا واضحاً ، ولا يمكن ان ينازع في ذلك سوى الطوباويين والحالمين الذين لم يعرفوا شيئاً عن حقائق التأريخ ، لان البلاد المعنية كانت ذات طابع زراعي أساساً ، وكانت لا تزال فقيرة ، ولم تكن متطورة بما فيه الكفاية ومتأخرة ثقافياً .

لا يمكن لهذه الخيارات ان تكون موضوع مناظرة ، ولكن ما يمكن ان يكون موضوع نقاش هو الطريقة التي أنجزت بها هذه الخيارات ، وعند هذه المرحلة من تحليلنا ، فان السؤال المثار لا يعود محض سؤال اقتصادي أو حتى اجتماعي ، بل سياسي . لقد تطلبت تضحيات هائلة بمعايير مستوى المعيشة والاستهلاك . هذا الخيار كان يمكن تحقيقه ديمقراطياً ، كما أشرنا بالارتباط مع فترة ١٩٢٩ - ١٩٣٠ ؛ ولم يكن ذلك سهلاً ، لانه كان يتطلب وعياً سياسياً وأيديولوجياً من مستوى عال ، وهذا لم يكن متوفراً على مدى واسع بما فيه الكفاية في عام ١٩٢٩ في الاتحاد السوفيتي . وكان يمكن ان تكون المراحل التي أنجزت فيها هذه الأهداف أبطأ ، وهذا كان رأي بوخارين ، وكان يمكن ان تمزج بين الحوافز الاقتصادية والعمليات الديمقراطية . وكان يمكن انجاز هذه الأهداف بسرعة نسبياً ، ولكن في غياب الديمقراطية ، مما انطوى على لجوء الى القسر والارهاب . واختار الاتحاد السوفيتي الطريقة الأخيرة لأسباب تعلقت بتأريخ الامبراطورية الروسية ، والثورة السوفيتية ، والاتحاد السوفيتي حتى

١٩٢٩ ، وهذا هو السبب في ان ظاهرة ستالين تطورت . اننا لا نناقش كثيراً جداً في الحاجة الى تطوير الاقتصاد بالقدر الذي نناقش فيه الطريقة التي تم بها هذا التطوير . ولنضع المسألة بطريقة أخرى ، فان المذنب ليس «النزعة الاقتصادية» ، ولكن التشويهات البيروقراطية لدولة العمال التي اقترن فيها الافتقار الى الديمقراطية السياسية بالظروف ذاتها التي حدث فيها التحول الى الاشتراكية وبنائها . ومع ذلك ، فاذا كنا نبحث عن تفسير تأريخي أعمق وأكثر علمية ومتعدد الجوانب لسبب ظهور ظاهرة ستالين وازدهارها ، فاننا ينبغي ان نلقي نظرة على الاقتصاد السياسي للاشتراكية .

ان تطور قوى الانتاج أمر ضروري لدولة اشتراكية ، مثل الاتحاد السوفيتي في ١٩٢٢ . انه لا يمكن ان يحل كل قضية ، ولكن من دونه لا يمكن عمل شيء ؛ انه شرط ضروري لبناء الاشتراكية غير انه ليس شرطاً كافياً . انه ضروري لتحسين الانتاجية . وهذه حقائق تأريخية واجهت الاشتراكية بأسلوب حاد . وهذا على وجه التحديد ما قام لينين بتعليمه في ١٩٢٢ ، وكذلك النتائج الطبيعية للصراع ضد البيروقراطية وللثورة الثقافية .

سوف نعود الى هذا . والآن دعونا نبقَ ضمن الحقل الاقتصادي والاجتماعي . فالاشتراكية لا يمكن ان تبنى ما لم تنم قوى الانتاج ، وما لم تحدث ثورة علمية وتكنولوجية ، وما لم تتحسن الانتاجية وظاهرة ستالين لا يمكن ان تنشأ من هذه المتطلبات ، فأي نوع من الاشتراكية يمكن بناؤه على أساس التخلف والفقر ؟

دعونا نواصل . فاما ان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ليس دولة اشتراكية ، بل «نوع من الدولة الرأسمالية» ـ كما يؤكد البعض ـ لا توجد فيها علاقات انتاج اشتراكية ، بل تبقى فيها حية علاقات الانتاج الرأسمالية في شكل آخر ، والى جانبها الاستغلال الرأسمالي ؛ وهذا الجانب من المسألة يحتاج الى النظر فيه بصورة تفصيلية . ان الاشتراكية ليست شيوعية ، وهي بعيدة عنها ، فعلى النقيض من الآمال والى حد ما من الآراء

الطوباوية لمؤسسي الاشتراكية العلمية ، ومن بينهم ماركس ، الأقل طوباوية من بين الجميع ، يظهر التأريخ المعاصر نفسه ان الاشتراكية تنطوي على «فترة انتقال» طويلة جداً من الرأسمالية الى الشيوعية ، فترة استمرت فعلاً(*) ما يقارب ستين عاماً وسوف تستمر بالتأكيد عقوداً أخرى(**) ، لان الشيوعية تتطلب قوى انتاج متطورة تطوراً عالياً جداً ، ووعياً اجتماعياً جديداً ، والانتصار المسبق للاشتراكية في كل بلد ـ وبما انه على الدولة واقتصاد السوق ان يزولا من الوجود ، وهو شيء يحتاج الى زمن أطول . ونحن لا نقول هذا لكي نظهر انه مستحيل ، ولكن لنظهر كيف سوف يكون صعباً على مجتمعاتنا الراهنة ان تصل الى تلك المرحلة . ويمكننا أن نقول ان هذه القضية ليست في جدول الأعمال ، حتى بالنسبة للأطفال الذين يولدون في عام ١٩٧٥ . وذلك الذي كان في الأصل سيكون انتقالاً ليس الا من الرأسمالية الى الشيوعية قد برهن على انه تشكيلة اقتصادية واجتماعية تتمتع باستقلال كبير فيما يتعلق بالرأسمالية التي نشأت فيها ، والشيوعية التي تتقدم نحوها . انها نمط من الانتاج وتشكيلة اقتصادية واجتماعية تستغرق فترة تأريخية مساوية للرأسمالية في الأقل . واذا شئتم ، انها انتقال ، غير انه بمعنى سائب جداً ،

(*) لسنا بحاجة الى التذكير بان هذا التقدير كان قبل انهيار «المنظومة الاشتراكية» ـ المترجم الى اللغة العربية .

(**) كان هذا تقدير الكاتب في عام ١٩٧٥ ، أما الآن بعد «انهيار أو إهارة المنظومة الاشتراكية» بالتعاون مع الرأسمالية وبفعل عوامل موضوعية وذاتية لا تزال بحاجة الى دراسة أعمق ، فان الانتقال مستقبلاً من الرأسمالية الى الاشتراكية ، ربما اتخذ أكثر الأشكال تنوعاً بعد فترة اعداد طويلة يجري فيها التغلب على اثار الردة الراهنة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ، وبعد ان يتم التخلص من آثار الماضي البغيضة المتمثلة بالأساليب الارادوية والقسرية والأبوية والطليعية الكاذبة ، وبعد ان تصبح حركة التحول الى الاشتراكية حاجة اجتماعية لا تقاوم وضرورة قصوى غير قابلة للتأجيل ، أي بعد أن تستنفد الرأسمالية فعلاً دورها التأريخي وتتحول الى عقبة حقاً في وجه تطور الانسانية .

ـ المترجم الى اللغة العربية ـ

كما كان نمط الانتاج الاقطاعي انتقالاً بين نمط الانتاج القائم على العبودية ونمط الانتاج الرأسمالي في مجتمعات أوربية معينة .

وكما أشار ماركس في رسالة الى أنيكوف في ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٦ « كل الأشكال الاقتصادية انتقالية وتأريخية » . والآن ، فان هذه التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية التي تختلف عن الرأسمالية تبرهن ، على أية حال ، انها قريبة الشبه بها ، وانها على هذه الحال بينت انها يمكن ان تبدو لبعض النفوس الخيرة انها مطابقة لها ؛ وفي حالة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، فان هذا الشبه كان أكبر لان الظروف التي ولدت الاشتراكية وتطورت في ظلها كانت ، لأسباب تأريخية ، صعبة بشكل خاص . ماذا يعني هذا ؟ يعني ان مجال عمل قانون القيمة يبقى في اقتصاد اشتراكي ساري المفعول : « ان قيمة كل سلعة تتحدد . . . بوقت العمل الضروري لانتاجها في ظل ظروف اجتماعية معينة » (رأس المال ، المجلد الأول) . فالاشتراكية لا تزال محكومة باقتصاد السوق . النقود ـ الأسعار ، الأجور ، الاستثمارات ، رأس المال وتكوينه وتداوله كلها لا تزال على قيد الوجود . والاختلاف ، وهو أساس ، بينها وبين الرأسمالية يأتي من نظام الملكية . فمن جهة ، ان الملكية خاصة ، ومن جهة أخرى جماعية . وفائض القيمة بحد ذاته لم يعد موجوداً ولا يتولد ربح رأسمالي ، غير ان قانون القيمة لا يزال يقرر الأسعار ، وان ناتج العمل يقسم بين المنتج (العامل) والجماعة ممثلة بالدولة ؛ والأخيرة هي التي تقدر مجموع المنتجات استناداً الى حاجات الجماعة كما تفهمها ، واضعة في الاعتبار المتطلبات التأريخية (على سبيل المثال ، الاستثمار في الصناعة الذرية والفضاء والكومبيوتر ، والتطور الثقافي والتعليم الخ . ومثل هذا الاقتصاد أقرب الى الرأسمالية منه الى الشيوعية .

لقد برزت ظاهرة ستالين في الوضع الذي خُلِقَ بظهور هذا النمط الاشتراكي من الانتاج وهذا الشكل من الاقتصاد والمجتمع . ودعونا نلق نظرة على النتائج الاجتماعية لهذه التغيرات الاقتصادية . بفضل نمو قوى الانتاج

ظهرت الطبقة العاملة (التي لم توجد في ١٩٢٢ ، والتي كانت ضئيلة العدد في ١٩١٣) . في عام ١٩٥٠ وجد ما مجموعه (٤٠,٤٠٠,٠٠٠) عامل وشغيل مكتب ، وفي عام ١٩٥٥ كان العدد (٥٠,٣٠٠,٠٠٠) (حوالي ٥٣ مليون في ١٩٥٣) . ان عدد العمال (في الصناعة الثقيلة والبناء والمواصلات) يمكن تقديره بحوالي ٢٥ مليون في ١٩٥٣ .

بحلول عام ١٩٣٥ كانت الملكية الخاصة لوسائل الانتاج والتبادل قد اختفت من الوجود تماماً في الصناعة ولم توجد تجارة خاصة ؛ وبقيت اتحادات وتعاونيات الحرفيين فقط . وحدثت تغييرات مماثلة في أهميتها في الزراعة ، فبحلول عام ١٩٣٧ اختفت الملكيات الخاصة الصغيرة ؛ لقد كوّن ٣٠ مليون فلاح كولخوزات (تعاونيات انتاج للمزارعين ، مزارع جماعية) ، وكان ٥ ملايين فلاح يشتغلون في السوفخوزات (مزارع الدولة) . وبحلول عام ١٩٥٣ أصبح المثقفون مرتبة ضخمة العدد بين السكان السوفيت .

في عام ١٩١٣ ، كان مجموع عدد طلاب الجامعة أو كليات التعليم المتخصص ، هو (١١) ألفاً . وكان مجموع الروس والمواطنين الآخرين ممن تجاوز سن التعليم الابتدائي (١,٥٠٠,٠٠٠) مواطن .

وفي عام ١٩٤٠ كان هناك (٨١١,٧٠٠) طالب منهم (٥٨٥,٠٠٠) طالب متفرغ للدراسة ، وكان المجموع في ١٩٥٣ هو (١,٥٦٢,٠٠٠) منهم (١,٠٤٢,٧٠٠) طالب متفرغ . هذه الأرقام لا تعطي الانسان فكرة عن التحول الثقافي حسب ، بل وأيضاً ، وبالسمة ذاتها ، عن التغييرات الاجتماعية الخيالية التي مر بها اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية في خلال هذه الفترة .

وبينما كان يجري تصنيع البلاد ، كان سكان الحواضر في نمو ، والجدول التالي يظهر ذلك :

	مجموع السكان (بالملايين)	سكان الحواضر (النسبة المئوية)	سكان الأرياف(*) (النسبة المئوية)
١٩١٣	١٥٩,٢	٢٨ مليون ٪ ٢٨,٥	١٣٠,٧ مليون ٪٨٢
١٩٤٠	١٩٤,١	٦٣,١ مليون ٪٣٣	١٣١ مليون ٪٦٧
١٩٥٣	١٨٨	٨٠,٢ مليون ٪٤٣	١٠٧,٨ مليون ٪٥٧

وهكذا ، فإن المدن بين ١٩١٣ و ١٩٥٣ شهدت نمو سكانها بمقدار (١٥,٥٠٠,٠٠٠) . ان التصنيع والتمدين ، كما أشار ستالين ، قد نفذا بـ « السرعة الكاملة » بصورة خاصة اذا وضعنا في الاعتبار الحروب والأحداث التي سبق ذكرها ، في تأريخ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية . وفي الحقيقة ، ان هذه التغيرات الضخمة قد حدثت في فترة ٣٦ سنة (١٩١٧ ـ ١٩٥٣) ، كانت تسع سنوات منها قد انقضت في حرب ، أي في سبع وعشرين سنة ، أو في عشرين سنة اذا أخذنا في الحسبان أضرار الحرب واعادة البناء .

وقد أشار اسحاق دويتشر عن حق في عام ١٩٥٤ : « ليست ثمة أمة من الأمم الغربية الكبيرة قد أنجزت ثورتها الصناعية في فترة قصيرة مثل هذه ، ولا في ظل ظروف محفوفة بمثل هذه العقبات الكثيرة جداً . »

(La Russi aprés Staline, Paris, p.52).

بحلول عام ١٩٣٦ ، اختفى الرأسماليون ، وحتى أكثر العقول ذكاء تجد صعوبة في ان تجعلهم يظهرون في تحليل المجتمع السوفيتي في ١٩٥٣ . وهكذا ، فان مسألة « البيروقراطيين » والبيروقراطية تظهر في هذا المنعطف .

---

* (كتاب الاحصاء السنوي ـ الاقتصاد الوطني لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية في ١٩٧٢ ص٧) .

فاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية بالنسبة لعدد معين من المؤرخين (بتلهايم هو مجرد المثال الأكثر حداثة) ليس كما يزعم دولة اشتراكية أو دولة عمال بل دولة بيروقراطية يفترض ان طبقة فيها ، هي البيروقراطية تضطهد العمال والفلاحين وتستغلهم . وهذا السبب يجعل بتلهايم يعرفها بما يلي : «نوع خاص من الدولة الرأسمالية» . ويزعم ان لظاهرة ستالين جذورها في هذه الطبقة . وفي عام ١٩٢١ كانت «المعارضة العمالية» قد طرحت بالفعل مثل هذه النظرة من خلال كتابات كولونتاي وشليابنيكف . ومن الجهة الثانية ، فان لينين قد نص على ان الدولة السوفيتية دولة عمال مع تشويه بيروقراطي ، وهذا ليس الشيء نفسه بتاتاً . والتروتسكيون تبنوا هذه الفكرة بوضوح . وفي عام ١٩٢٩ كتب راكوفسكي حولها عندما كان في منفاه في سيبيريا (النشرة الاخبارية للمعارضة ، العددان ١٥ـ١٦ في ١٩٣٠) . ولم يكن تروتسكي متأكداً في كتابه «الثورة المغدورة» فيما اذا كان عليه ان يحدد سمة ظاهرة ستالين بهذه الطريقة . وتقدم بالفكرة أيضاً بوريس سوفارين في كتابه ستالين (المنشور في ١٩٣٥) . وكان ريزي ـ تروتسكي ايطالي ـ هو الذي تقدم بأوضح تأكيد حول هذه النظرية في كتاب نشر في ١٩٣٩ : «اشاعة البيروقراطية في العالم» .

لقد كتب ريزي على النحو التالي : في المجتمع السوفيتي لا يستحصل المستغلون فائض القيمة بصورة مباشرة ، كما يفعل الرأسمالي عندما يأخذ الفوائد من شركته . انهم يفعلون ذلك بصورة غير مباشرة بوساطة الدولة التي تتسلم المجموع الكامل لفائض القيمة ومن ثم توزعه بين كوادرها . « وحسب ما يقول ريزي ، كانت هذه مرحلة حتمية في التطور الاجتماعي ، «خطوة تأريخية الى الامام» ، وعلى هذا الأساس برهن على التماثل بين الهتلرية والستالينية و «الصفقة الجديدة» New Deal لروزفيلت . وأجاب تروتسكي في كتابه (اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية في حالة حرب» قائلاً عن

حق أياً كانت التماثلات بين طرائق الحكومة النازية والستالينية ، فانهما مختلفتان نوعياً في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي .

وحسب رأي تروتسكي فان « البيروقراطية السوفيتية كانت لا تزال نمواً طفيلياً على (جسد ـ المترجم) الطبقة العاملة ، خطراً بالدرجة التي يمكن له ان يكون فيه ، ولكنه ليس جسداً مستقلاً . « لقد كان « انحرافاً عن مجرى الثوري » (دويتشر ، تروتسكي . المجلد ٣ ص٤٦٥) .

ان نظريات ريزي التي أفضت به الى انكار ان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية كان اشتراكياً من حيث الطابع ، جعلته يتحدث عن « الالتقاء » بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي ، هي اطروحة نجدها في عمل بورنهام « العلم والأسلوب ، جواب الى الرفيق تروتسكي » وقبل كل شيء في « الثورة الادارية » . فحسب رأي بورنهام ، ان المديريين سوف يتولون مهمة ادارة الشركات الصناعية . ويمكن ان نجد أفكاراً مماثلة في أعمال ريمون آرون (في ثماني عشرة محاضرة حول المجتمع الصناعي) ، وجيلاس وعدد آخر من الكتاب .

ولكن ما هي الحقيقة حول هذه « الطبقة البيروقراطية » ؟ من أجل أن يتثبت وجودها كحقيقة واقعة ، ينبغي لـ « فائض القيمة » ان يراكم وان يورث . وهذه بالتأكيد ليست الحال . فالمناصب في الاتحاد السوفيتي سواء في الحزب أو الخدمة المدنية أو الادارة أو النقابات الخ لم تكن تحتلها أجيال متتابعة من العوامل نفسها . هذه المناصب لا يمكن أن تورث . انه لحقيقة ان عدداً كبيراً من هذه المناصب جلب معه الحق في منافع وامتيازات معينة . فأولئك الذين تفرغوا للعمل الحزبي ، الجهاز "apparatchiki" ، كانوا في الأغلب يحصلون على مرتبات أفضل حتى من مرتبات العمال الأكثر مهارة . وبعضهم له حق الانتفاع بسيارة أو حق التبضع في مخازن خاصة . ومنذ النيب (السياسة الجديدة) فان مدى الأجور واسع الى حد كبير (من ١ـ١٢ في المعدل) . انه من المسلم به ان ـ حداً أدنى ـ جزءاً من ناتج العمل لم يكن يوزع على كسبة

الأجور (في شكل مرتبات) والذي أخذته الدولة كان محتكراً الى مدى متفاوت من قبل الدولة وكوادر الحزب . في الواقع هذه نتيجة من نتائج ظاهرة البيروقراطية ، غير ان الاختلاف ضخم بين هذه والحديث عن فائض القيمة والطبقة البيروقراطية .

يضاف الى ذلك ، ان هذه منافع لا تورث وتذهب مع ذهاب المنصب ، وهكذا كانت خاضعة للاسترداد . ومن الصعوبة بمكان تحويلها الى ملكية ثابتة أو منقولة ، لانه ، مع وجود الملكية «الشخصية» الخاصة الا انها كانت في حدود معينة فقط . وهكذا ، فانها جعلت بعض الناس يعيشون بصورة أفضل من المواطنين السوفيت ، وربما ان يعيشوا عيشة جيدة جداً بالمقارنة مع الأغلبية ، ولكن على الرغم من ذلك كله ، فان هذا لا يشكل خلقاً لـ «طبقة جديدة» . ان الظلم الاجتماعي يوجد في ظل الاشتراكية ، هذه حقيقة ، ولكن أية طوباوية كانت تلك التي سمحت بفكرة عدم امكان وجوده؟ هذا بالضبط لانها اشتراكية وليست شيوعية . يضاف الى ذلك ، ان مثل هذه المحاجة تفترض ان العاملين في الخدمة المدنية والبيروقراطيين شيء واحد ، وهذه ليست هي الحال . انها لحقيقة ان ظاهرة ستالين كانت ظاهرة ، بيروقراطية ، ولكن ذلك يعني ان الدور الذي اضطلعت به المكاتب كان أكثر أهمية من الدور الذي قامت به الجماهير ، وان القرارات الادارية فاقت في أهميتها الحوافز الاقتصادية . وهذا عنى ان الاقتصاد يمكن اساءة تدبيره ،وان المدن يمكن ادارتها بطريقة سيئة ، وان الكولخوزات يمكن تسييرها بأسلوب رديء ، لان الموظفين المدنيين الذين اضطلعوا بها كانوا غير أكفاء ، وذوي شعور ضعيف بالمسؤولية ، أو انهم كانوا غير قادرين على مواجهة مسؤولياتهم أو كانوا فاسدين . واعترف خروشوف في المؤتمر الحادي والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي : «الطرائق الخاطئة امتدت لتشمل قيادة الحزب والدولة والاقتصاد : لقد كانت ثمة بيروقراطية واخفاء مواطن الضعف وجبن . وفي هذه البيئة ظهر عدد كبير من المرضى النفسيين والمتملقين والمتسلقين .»

وهذا الشر ليس سمة خاصة بالاشتراكية . اذ انها ترتبط في المجتمع المعاصر بنمو الوظائف ودور الدولة . ويمكن رؤيتها في كل البلدان الرأسمالية ، ومن بينها البلدان الأكثر «ليبرالية» ، أعني الولايات المتحدة . وفي فرنسا أليس ثمة أمثلة عديدة على البيروقراطية في عدد لا بأس به من الوزارات .

دعونا نأخذ وزارة التعليم أو المالية مثلاً على ذلك . هذا المرض يمكن شفاؤه ولكنه يشق طريقه في مجتمعنا . ان التقاليد التأريخية والتنامي في وظائف الدولة في بلد اشتراكي ، وفي الاتحاد السوفيتي بشكل أكثر خصوصية يمكن ان يزيد في الخطر . واذا تناولنا بالدراسة الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٥٣ ، نلاحظ ان كل شيء تمتلكه الدولة وهي تهتم بكل شيء . والتمايز بين الدولة والمجتمع المدني يميل نحو الاختفاء ، وكانت هذه هي الحال تقليدياً في روسيا ، والاشتراكية تؤكد هذه السمة التي كانت بالفعل سمة من سمات القيصرية .

ثمة علاجات فقط ضد الدولة الفائقة الجبروت وعواقبها البيروقراطية . والحافز الاقتصادي يوفره استخدام آليات اقتصاد السوق . ويتنحى البيروقراطي حين يواجه بالمتطلبات المالية للمصنع ، أو المجموعة أو الوزارة ، ويمكن للحوافز المادية للأفراد حتى ان تضطلع بدور حاسم في النضال ضد البيروقراطية . وهذا ما ينطبق على الشركة الرأسمالية الكبيرة . والميول نحو البيروقراطية تلغيها مستلزمات كلفة السعر ، والحقيقة الماثلة في ان ثمة فائدة مالية لمديري الشركة في ازالتها . حسناً ، ان سياسة ستالين في تعارض مع ما قاله عدد من الكتاب ، لم تستخدم الا قليلاً هذه الحوافز الاقتصادية بعد ١٩٢٩ . كان ستالين مقتنعاً بايجاد مدى واسع من المرتبات ، غير ان مبدأ الحوافز المادية لم يكد يطبق في التجارة والزراعة وحتى في الصناعة ولم تتمتع المؤسسات بالاستقلال المالي ، وقد أصبح نظام التخطيط ذو المركزة العالية بيروقراطياً للغاية . وكانت أقسام الوزارات المعنية (The Glavki) تتخذ من

بعيد وبصورة متطفلة القرارات للمؤسسات والاتحادات والمجموعات . وهذا في الأغلب أدى الى تأخير كبير في تجهيز المواد الخام والأجزاء والى فوضى كبيرة في النقل وشبكة التوزيع . وكان عدد العاملين في الخدمة المدنية في موسكو هائلاً ، اذا ما فكر الانسان انه كان ينبغي اعطاء مليونين من هؤلاء العاملين في موسكو (Glavki) وظائف جديدة في السنوات القليلة القادمة . يضاف الى ذلك ، ان (Glavki) عملت بأسلوب تجريبي ، كما عملت دوائر (Gosplan) (جهاز الدولة للتخطيط) التي كانت مرتبطة بها بطريقة سائبة . وهذا ما عنته البيروقراطية . وكان نظام الادارة (management) من القمة الى القاعدة «مضاد للاقتصاد» . ويمكننا ان نضيف الى هذا حقيقة هي ان القضايا قد جرى التقليل من قيمتها بصورة جدية ، ولم تكن ثمة مدارس للمختصين بالادارة ولا مدارس تجارية ، ولا مهارات ادارية أو مالية . ولم يكن يدرس علم الاجتماع . وكان الاقتصاد السياسي خاضعاً الى رقابة أيديولوجية وبوليسية بحيث ان التقدم قد أعيق في أغلب المجالات المفيدة . وعلى سبيل المثال ، ان استخدام الرياضيات في الاقتصاد قد منع . وان كتاب كانتوروفتش «الطرق الرياضية لتنظيم الانتاج وتخطيطه» الذي نشر في ١٩٣٩ ، لم يستعمل الا في نهاية الخمسينات ، ولم تنشر مؤلفاته الأخرى التي كتبها في ١٩٤١ الا في عام ١٩٥٩ . وكان نظام الائتمان لايزال بدائياً . وكان يجري تزييف الاحصائيات ، فمن ١٩٣٢ حتى ١٩٥٤ نشروا فقط الأرقام النسبية والمؤشرات أو حتى المبالغ فيها ، وهذا يعني أرقاماً مزيفة . ولكي تجري التغطية على المعضلات في الزراعة كانت السلطات السوفيتية تنشر أرقام حصاد المستنبتات للحنطة (الحصاد البيولوجي) ،وليست أرقام الحالة التي كانت عليها في الاتحاد السوفيتي (مثل أي مكان آخر) ، والكمية بالفعل منتخبة . وهكذا فقد أدى النظام البيروقراطي الى انكار القوانين الاقتصادية ورفض أخذ الواقع في الاعتبار . وبهذه الطريقة قلل جدياً من قيمة الطاقة الاقتصادية للاشتراكية ، وهذا ما يجعل النتائج المتحققة أكثر سطوعاً ـ ولكنها نتيجة لعقلانية الاشتراكية ذاتها .

واذا تحولنا الى الديمقراطية ، فانها تشكل اسلوباً آخر للنضال ضد البيروقراطية . انه لمن غير المؤكد انها وحدها كافية لمكافحة ظاهرة البيروقراطية ، غير انها تسهم اسهاماً كبيراً في هذا المضمار . ولا نعني ببساطة الديمقراطية السياسية بصورة عامة ، على سبيل المثال ، الحق في ان ينتخب المرء كل خمس سنوات عضواً في البرلمان ، أو كل سبع سنوات رئيساً للجمهورية ، وانما نعني الديمقراطية الاجتماعية والاقتصادية ، ورقابة الجماهير ومبادرتها ، ونشاط النقابات العمالية ، والفرص لادارة ديمقراطية للمؤسسات ، وحق المرء في ان يعبر عن نفسه في الصحافة ، والاذاعة المسموعة والمرئية ، وحرية الأدب والمسرح والسينما والفن .

حسناً ، ان ما نعرفه هو بالضبط النقيض . بالطبع ، بذل جهد حقيقي لتطوير موقف جديد من العمل ، ولتحسين انتاجيته وتنظيمه بفضل حركة جماهيرية قائمة على مبادرة الناس وحماستهم . وهذه الحركة ظهرت في « السبوت الشيوعية » وتطورت مع العمال الصداميين (Theúdarniki) ومن ثم الستاخانوفيين . وكان ستاخانوف عامل منجم من منطقة دونباس حطم الأرقام القياسية للانتاج . وقد عمم مثاله على نطاق واسع ، وعقد في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ حتى مؤتمر للعمال الستاخانوفيين والذي التأم في الكرملين بحضور (٣٠٠٠) مندوب .

وقد علقت في مداخل القاعات الصور الفوتوغرافية لأفضل العمال . وقدمت لهم امتيازات معينة (علاوات ، عطل الخ) . وكان للحركة الستاخانوفية أهداف تعليمية واضحة ينبغي عدم التقليل من قيمتها . وكانت « صوفية » (nystique) التصنيع التي لاحظها في ذلك الوقت حتى أكثر المراقبين عداء للسوفيت .

ومنذ القرار الذي تبناه مؤتمر الحزب السادس عشر في عام ١٩٣٠ أعطيت النقابات العمالية مهمة تشجيع الانتاج والاسهام في الادارة . ولم يوجد حق الاضراب وعاقب القانون على الاضرابات بقسوة . وفي عام ١٩٣٣ دمجت مفوضية الشعب للعمل بالنقابات .

وفي ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٣٨ أدخلت سجلات العمل التي جعلت من الممكن مراقبة قوة العمل بدقة . والتعقيبات التالية وجدت في جريدة الأزفيستيا : «من الآن فصاعداً ، سوف يكون على العمال عند ابتدائهم عملاً جديداً ان يقدموا سجلات عملهم التي تتضمن جميع الوقائع حول عمل حاملها ، وحول انتقالاته من مؤسسة الى أخرى وأسباب هذه الانتقالات . وكانت «الغيابات غير المبررة» يعاقب عليها بستة شهور من العمل الاجباري الذي كان يجري في المكان المعين مع اقتطاع ٢٥ في المئة من الأجور .

وفي ٢٦ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ صدر مرسوم يمنع كسبة الأجور من تغيير وظائفهم أو الانتقال الى مكان عمل آخر . هل كان هذا خطوة للتحضير للحرب ؟ من الواضح لا ، بما انه وضع الختم على وضع كان موجوداً فعلاً ، وقد بقي ساري المفعول حتى ١٩٥٣ . ومدير المؤسسة وحده يخول العامل حق تغيير وظيفته أو الانتقال الى مؤسسة أخرى .

وكانت المكاتب المركزية للوزارات هي التي تحدد الأجور . ونص قانون صدر في ٢ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٠ حول «احتياطات العمل» على ان مليون عامل شاب يوجهون كل سنة الى الصناعة لأربع سنوات في الأقل ، بعد ان يكونوا قد حصلوا على تدريب مهني لمدة سنتين في الأقصى . وهذا الأمر بقي ساري المفعول حتى بعد ١٩٥٣ .

وكانت القواعد في مهن معينة ، مثل السكك الحديد وصناعة الأسلحة حتى أكثر قسوة . اذ ان أولئك الذين يتكرر غيابهم بدون سبب مشروع أصبحوا تحت طائلة قانون «هجر العمل» . وكانت عقوبتهم من شهر الى أربعة شهور سجناً وفقدان سكنهم .

وكان سكان الكولخوزات والسوفخوزات لا يستطيعون مغادرة مكان عملهم من دون تصريح من السلطات .

أما فيما يتعلق بالبقية ونعني الديمقراطية السياسية ، فاننا نعرف انها وجدت في الدستور فقط وليس في الواقع . وهكذا ، فان النتائج التي أنجزت في

الحقلين الاقتصادي والاجتماعي أحرزت بتكلفة باهظة من الجهود والتضحيات . والخيارات التي اتخذت في ١٩٢٩ (التصنيع الاسرع والتجميع الزراعي) كان لا يزال أثرها في استخدام القسر والبيروقراطية ضد الشعب . وقد قادا الى الارهاب ودكتاتورية ستالين . وقد دفع ثمن لهذه التغييرات . وساعدت ظاهرة ستالين في نمو قوى الانتاج والتحويل الجذري للمجتمع ، ولكنها في الوقت نفسه أبطأت هذا النمو وهذه التغييرات . وهنا يتجلى بالكامل التناقض الأساس للاشتراكية الاستبدادية . فمن جهة ، تمارس آليات الاقتصاد الاشتراكي عملها ، ومن الجهة الأخرى ، تعيق النزعة الاستبدادية الاستخدام الكامل لطاقة الاشتراكية وتخفي أفضليتها الكبيرة بلغة العقلانية ، تكريس الجهد ووضع المصلحة العامة في الاعتبار . ويسمع المرء أحياناً أناساً مخلصين في الدفاع عن الاتحاد السوفيتي يصرحون بان ظاهرة ستالين كانت ضرورية ، حتى وهم يدينون نتائجها الأكثر ارعاباً . ويبدو لي ان مثل هذه النظرة تنشأ من المعرفة الناقصة حول الوضع الحقيقي في الاتحاد السوفيتي في زمن ستالين . فلو ان الارهاب قد عنى اعدام بضعة آلاف من المعادين للثورة أو حتى اعدام بضعة شيوعيين نتيجة لخطأ قضائي ، فان هذه المحاجة لن تكون خاطئة كلياً ـ ولكن الحال لم تكن هذه .

فعلى سبيل المثال ، اضطلع العمل القسري بدور اقتصادي هام نسبياً . ولاحظنا هذا بالارتباط مع قناة بحر البلطيق الأبيض ، ولكن النظام توسع من ١٩٣٦ وصاعداً . وكان المزيد من معسكرات العمل الاجباري يقام في المناطق الشمالية والشرقية . وكان معسكر العمل يستخدم في مناجم الفحم والمعادن الثمنية والخسيسة ، وفي بناء خطوط السكك الحديد مثل خط توركسيب وحتى في مواقع البناء الضخمة في موسكو أو المدن الكبيرة (مثلاً ، في ناطحات السحاب الأولى) وقطار ما تحت الأرض (المترو) . وكان «الغولاغ» (الادارة المركزية للمعسكرات) تسيطر على مناطق بكاملها ، هذه هي الحال ، مثلاً ، في (Dalestroy) (وهي منطقة واسعة في الشرق الأقصى) . وكان

محكوماً على نسبة من المرحلين ان يستقروا في مناطق فقيرة حيث كانت الحياة غير مريحة بشكل خاص بسبب البرد . ولم تكن هذه معسكرات افناء ، ولكن الحياة فيها صعبة ونسبة الموت عالية بسبب الطقس وظروف العمل . واذا استثنينا الناجين من هذه المعسكرات (في الزوبعة لجينسبيرغ ، وحكايات كوليما لشالاموف ، ويوم في حياة ايفان ايفانوفيتش لسولجنستين والشهادة المباشرة الثمنية من أرخبيل الغولاغ) ، فاننا نمتلك وثيقة هامة على معسكرات العمل هي خطة الدولة لتطوير الاقتصاد الوطني لعام ١٩٤٠ . وهذا النص الذي لم يكن مخصصاً للنشر وجده النازيون في أرشيف سمولنسك عندما غزوا البلاد . ونقرأ ان مفوضية الشعب للشؤون الداخلية تسلمت (٦,٨١٠) مليون روبل من أصل (٣٧,٦٥٥) مليون روبل مخصصة للاستثمار ، وهذا يعني ١٨ في المئة من مجموع المبالغ . وتشير حسابات ياسني ان مفوضية الشعب للشؤون الداخلية كانت في ١٩٤١ تسيطر على (١,١٧٢,٠٠٠) عامل في مواقع البناء ، وينبغي ان نضيف الى ذلك العمل الاجباري في منطقة دالستروي والمناجم ومصانع السلاح وغابات انتاج الأخشاب . وتوصل ياسني الى ان الرقم الممكن هو (٣,٥٠٠,٠٠٠) مرحل في عام ١٩٤١ . وبالطبع ينبغي ان نضع في الاعتبار حقيقة هي ان هذا الرقم كان أكبر في ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ وكذلك بعد الحرب . وهكذا ، فان الرقم الاجمالي لفترة ١٩٣٠ ـ ١٩٥٣ يمكن ان يقدر بأكثر من ١٢ مليوناً . أما فيما يتعلق بنسبة الموت فان الافتقار الى المعلومات الدقيقة يجعل من الصعب تقديرها ، غير انها عالية جداً .

ومع ان استخدام العمل الاجباري كان كبيراً ومثيراً للفضيحة ، فانه كان على أية حال «عاملاً هامشياً بالنسبة للنظام» (دويتشر LaRussie aprés Staline Paris p.56 بما انه لم يكد يشكل عشر قوة العمل الصناعي .

لا يمكن ان يكون ثمة تبرير لظاهرة ستالين من وجهة النظر الشيوعية . لقد برزت من سلسلة من الأسباب المختلفة الاقتصادية والسياسية والايديولوجية ، واضطلعت العوامل الشخصية بينها بدور كبير .

ان خصوم الاشتراكية يستخدمون ظاهرة ستالين لمكافحة الاشتراكية ذاتها في بلدان لا توجد فيها الأسباب التي ولّدت الظاهرة ، حيث البيئة التأريخية مختلفة جذرياً . وظاهرة ستالين ينبغي ان تفصل عن الاشتراكية ، وجوانب الاشتراكية السوفيتية التي تستحق الدفاع عنها ليست انحرافاتها وتشويهاتها أو الأشكال الخاصة والظرفية التي حدث ان اتخذتها ، ولكن آلياتها الاقتصادية الأساسية ونتائجها الاجتماعية والثقافية وعقلانيتها .

ماهي العلاقة بين ظاهرة ستالين والصراع الطبقي ؟ من وجهة نظر ستالين ان سياسته عبرت عن مصالح الطبقة العاملة ، وقد وجدت تفسيرها في اشتداد الصراع الطبقي نتيجة لموقف البرجوازية . ولكن البرجوازية لم تمتلك سوى قوى مبعثرة في الاتحاد السوفيتي عام ١٩٢٨ . بالطبع كان هناك رجال النيب والكولاك ، ولكنهم لم يمثلوا قوة سياسية متماسكة . يضاف الى ذلك ، ان الدولة الاشتراكية كانت المتحكمة في الاقتصاد واستخدم ستالين النشاطات الحقيقية للامبريالية الأجنبية . في البداية الفرنسية والبريطانية والاميريكية ومن ثم الألمانية واليابانية ، ومن بعدها الأمريكية والبريطانية ليبرر سياسته . وبالطريقة ذاتها استخدم ذريعة انه كان من الضروري مكافحة الكولاك ليوسع تدريجياً مدى القمع الذي أثر في الفلاحين الوسط وحتى الفقراء . والتربة التي نمت فيها ظاهرة ستالين كانت حقاً الصراع الطبقي ، ولكن ستالين سرعان ما تخطى ذلك ونفّذ سياسة لا تتصل به الا بصورة غير مباشرة . في عام ١٩٣٧ لم يعد الكولاك ولا رجال النيب موجودين . فقد تم تدميرهم ورّحل الكثير منهم . وربما بدا في عام ١٩٢٩ ثمة خطر معين من الداخل ، ولكن ليس في عام ١٩٣٧ . وباسم نظرية «اشتداد الصراع الطبقي في مجرى بناء الاشتراكية «أطلق ستالين القمع ضد الشيوعيين أنفسهم متهماً اياهم بكونهم عملاء الامبريالية الأجنبية . ويمكن ان يفسر هذا ضمن منطق النظام لانه في الاتحاد السوفيتي عام ١٩٣٤ شكل الحزب الشيوعي القوة الواقعية الوحيدة لمعارضة

الصراع الطبقي لم يعد شيئاً أكثر من غطاء سياسي وأيديولوجي قصد منه تبرير ظاهرة ستالين .

وعندي ان أي تفسير لهذه الظاهرة بلغة الصراع الطبقي يرمي بهذا أو ذاك الى ان يعود بها الى الفرضية الستالينية التي استخدمت لتبرير الارهاب . والأساس الموضوعي الوحيد للارهاب يأتي من التربة التأريخية التي ازدهرت فيها ظاهرة ستالين . اذ انه لا مصالح الطبقة العاملة ولا متطلبات الصراع الطبقي تقدم أي نوع من التفسير أو التبرير . وظاهرة ستالين ، سواء أخفيت تحت قناع الانسانية أم لا ، لا يجمعها جامع بالممارسة السياسية للأممية الثانية للانسانية البرجوازية الصغيرة . ليس الآن في قفص الاتهام كاوتسكي ، أو هيلفيردنغ ، أو بيرنشتاين ، أو كانت ، أو بينتهام ، اذ أن ظروفاً جديدة بالكامل نشأت عنها شروط تطورت فيها التجربة الاشتراكية الأولى في التأريخ . بشكل خاص ، أن «توسيع» الانتاج والانتاجية كانا ضروريين لاقتصاد اشتراكي ، وبدونهما لم يكن من الممكن بناؤه وبخاصة في وضع عام ١٩٢٢ . أما فيما يتعلق بالحرية فانها كانت بالنسبة لستالين غطاء أيديولوجياً حسب قُصِدَ به اخفاء سياسة ارهاب غير مبررة مطلقاً . ان المريض غير مسؤول عن السرطان الذي ينهشه ، والنمو الاقتصاد ي والانتاجية لم يكونا سبب ظاهرة ستالين . لقد خلقت الظروف التأريخية لروسيا والثورة نوعاً خاصاً من الدولة الاشتراكية ذات بنى وتقاليد وظروف ورجال جعلوا ظاهرة ستالين ممكنة وأعطوها المظهر الذي نعرفه . وليس من المصادفات ان يبررها الى حد ما بيتلهايم .(٣) انني لا أنكر انه كانت لستالين بعض النقاط الجيدة . فالاشتراكية في بلد واحد كانت الطريق الممكن الوحيد بعد دحر الثورة في أوربا

٢ـ قارن التوسير (Réponse à John Lewis) ، الصفحتان ٨٨ و ٨٩ .

٣ـ لقد اقترف ستالين أخطاء جدية (هكذا!) . . . ومما لا شك فيه ان الأخطاء كانت حتمية .

«الصراع الطبقي في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية . المجلد ١ ، ص٣٨ .

للتو . وكانت أولوية الصناعة الثقيلة مُتَطَلَّباً للنمو الاقتصادي . لقد احتفظ ستالين بهدوئه وصبره في تشرين الأول / تشرين الثاني (اكتوبر ـ نوفمبر) عندما كانت القوات النازية على مبعدة عشرين كيلومتر من موسكو . غير اننا لا نناقش النقاط الجيدة والسيئة لشخص ، بل الطريقة التي بنيت فيها الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي والأسباب التي تفسر بناءها بهذه الطريقة .

ان بعض الناس يحدد سمات ظاهرة ستالين باعتبارها نشأت من اقتصاد الحرب ؛ وهذه هي حال اوسكار لانكه : «انه اقتصاد الحرب بصفة عامة» (Suigeneris) ، هذه فكرة مثيرة للاهتمام ، لانها تبدو لنا انها تحتوي على حقيقة عميقة من زاوية النظر التأريخية ، فان تأريخ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، حتى عام ١٩٥٣ هو تأريخ الحروب التي خيضت ، حروب يجري التحضير لها ، أو جراح حروب تضمد . وهذا لم يعجز عن التأثير في النمو الاقتصادي وطرائق ادارة الاقتصاد ، وكذلك في النظام السياسي . واعتبر ستالين نفسه القطاع الاقتصادي جبهة معركة حقيقية وكل التعابير التي استعملت تظهر هذا بوضوح . وسوف يتطلب الأمر دراسات أكثر تفصيلاً للقاموس المستعمل ، غير انه يستعمل في خطاباته تعابير «الجبهة» ، «المعركة» ، «التعبئة» ، «الجيش» . ان متطلبات الفترة والعادات الراسخة التي نتجت عنها زادت الجوانب العسكرية للسياسة الاقتصادية الستالينية ، كما تظهر في أهمية «انضباط العمل» ، أحد الموضوعات المفضلة للصحافة السوفيتية في ذلك الوقت . ويفسر الكثير من السمات لظاهرة ستالين بالدور الذي لعبته الحرب في التأريخ السوفيتي . كان الاتحاد السوفيتي «قلعة محاصرة» ، ينبغي ان يكون قد ظهر في شكل معسكر ضخم محاصر . وهذا يعطي السبب ، على سبيل المثال ، لماذا كان الأجانب ممنوعين من السفر في داخله ، ومن أخذ الصور الفوتوغرافية وحتى توجيه الأسئلة . فحتى عام ١٩٥٣ كان كل شيء سراً عسكرياً . لم يكن ثمة أدلة للتلفون أو خرائط للمدن . ولغة

التجسس كانت مسموعة في كل مكان : «اصمتوا ، كونوا على حذر ، آذان الأعداء تتنصت لكم» ، كان واحداً من المواضيع الصحفية المفضلة ، على هذا الأساس ، كان على العامل ان يبقى في مصنعه ، والمزارع الجماعي في حقله ، والجندي في وحدته ، وعلى الجميع أن يكونوا منضبطين ، لاننا كما نعرف ، ان الانضباط هو القوة الرئيسة للجيوش . وهكذا كان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية جيشاً حقيقياً ، النقد في داخله محرم لانه يمكن ان يهدد وحدة الجيش وبذلك يهدد انضباطه .

وعلى أية حال ، فان تعريف لانكه يبقى ناقصاً بقدر ما يتعلق الأمر باقتصاد حرب اشتركي ، وهي حقيقة في بعض جوانبها تزيد تصلبه بسبب الدور الأوحد في الواقع لملكية الدولة ، ذلك الدور الذي يمكن ، من جهة أخرى ، أن يسهل اختفاءها . لقد كانت الحالة الفعلية للأمور ، فرضتها الظروف على البلاد ، أكثر مما هي هدف مقصود نشأ من بنية اقتصادية ومذهب سياسي . وعلى سبيل المثال ، لا يجمعه جامع بالنازية حيث اضطلعت عسكرة الاقتصاد بدور حيوي ، فبالنسبة لهتلر ، ان عسكرة الاقتصاد والنزعة العسكرية شكلتا الوسائل الضرورية لتحقيق الهدف الذي وضعه بنفسه ، ونعني به سيطرة المانيا على العالم . أما بالنسبة لستالين فقد كانتا ببساطة الاستجابة الأسرع ، والأكثر بساطة والأكثر تأثيراً لوضع خاص : تخلف السوفيت في مواجهة العالم الرأسمالي والتهديد بالعدوان الذي تعرض له الاتحاد السوفيتي .

اننا نعرف ان أقصر الطرق بين نقطتين ليس بالضرورة الخط المستقيم . ان الطريقة الأكثر تأثيراً اليوم ليست بالضرورة هي الطريقة التي سوف تعطي أفضل النتائج غداً ، ويمكن لأبسط الطرق في وقت معين أن تجعل الأشياء أكثر تعقيداً بالمستقبل . فاستخدام القوة في التجميع الزراعي ، وسوق الفلاحين بالسوط الى الكولخوزات كان الحل البسيط والسريع والمؤثر ولكن أية مصاعب ترتبت في المستقبل على مثل هذه السياسة!

في عام ١٩٤١ لم تكن الزراعة السوفيتية قد استردت عافيتها من جراء هذا الحل . فالوضع ازداد سوءاً بالحرب والتدمير الذي سببه الألمان ، ولم تكن أفضل في عام ١٩٥٣ . لقد كان صحيحاً بناء صناعة زراعية كبيرة علمية وممكنة على أساس التعاونيات ، ولكن لم تكن للاتحاد السوفيتي في ١٩٣٠ الوسائل للقيام بذلك .انه لم يمتلك الصناعة الكيماوية الضرورية لينتج الكميات الكافية من الأسمدة ، أو صناعة هندسية واسعة بدرجة كافية لانتاج المكائن الزراعية بالكمية الكافية والنوعية المطلوبة ؛ ولم تكن ثمة كفاية من المهندسين الزراعيين لضمان ان تكون المحاصيل وتنوعاتها ودورة المحاصيل مناسبة للتربة والشروط المناخية التي تختلف اختلافاً عظيماً عبر الاتحاد السوفيتي والتي كانت في الأغلب صعبة جداً .

ان العجلة المشؤومة ـ التي ذكرها لينين فيما يتعلق بستالين في مسألة مختلفة تماماً (العلاقات مع القوميات غير الروسية) ـ جعلت نفسها محسوسة هنا بطريقة مأساوية ، ولكن ستالين ليس وحده من أنصار هذا الخط . اذ ان معظم الشيوعيين فكروا بان هذه الطريقة صحيحة دون ان يروا عواقبها ، وكان عليهم هم أنفسهم ان يدفعوا حيواتهم بمئات الآلاف لقاء هذا الخط المشؤوم .

والصارخ في هذه السياسة نزعتها الارادوية والذاتية . وانه لكاف قراءة ما كتبه سابوفيتش أوستروميلين في ١٩٢٩ و ١٩٣٠ . كان الأول ، اقتصادي يعمل لوغسبلان ، قد تنبأ بوتيرة نمو سنوي مقدارها من ٤٠ الى ٥٠ في المئة في الناتج الصناعي . وحسب رأيه ، كان الاتحاد السوفيتي سوف يلحق بالناتج الامريكي في ١٩٣٦ . أما بالنسبة لستروميلين فقد انتقد فكرة القوانين الاقتصادية : ان وظيفتنا ليست دراسة الاقتصاديات بل تغييرها . ونحن غير ملزمين بأية قوانين . وليس ثمة قلعة لا يستطيع البلاشفة اقتحامها . ومسألة السرعة خاضعة لقرارات الانسان » (الاقتصاد المخطط عدد ٧ ، سنة ١٩٢٧ ،

ص١١) . وفي المؤتمر الثامن عشر في ١٩٣٩ ، تحدث كوسيجين مفوض الشعب لصناعة النسيج عن تجاوز الناتج الامريكي في سنوات قليلة ، وليست الحرب العالمية الثانية وحدها التي منعت تحقيق هذا الهدف الطوباوي . وحتى اليوم لا يزال الطريق الذي ينبغي قطعه طويلاً .

وهذا كله يجعلنا نفهم بصورة أفضل ميزانية ١٩٥٣ الاقتصادية والاجتماعية . فاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية أصبح ثاني أعظم قوة في العالم . وامتلك قطاعاً صناعياً ثقيلاً متسعاً بسرعة ، ولكن الصناعة الخفيفة كانت لا تزال فقيرة وغير كافية . وأنتجت الزراعة بالنسبة للسكان أقل مما انتجته في عام ١٩١٣ . وجرى تحويل المجتمع من القمة الى القاعدة . وأُضْفِيَ الطابع الاجتماعي على الصناعة والتجارة . وتم تجميع الزراعة كلها . وكاد التخلف الثقافي ان يختفي كلياً . وبقيت بعض الطبقات الاجتماعية ، وظهر العمال والفلاحون الجماعيون والفئات الاجتماعية الوسطى .

ان عواقب الحرب العالمية الثانية تفسر الى حد معين ، بل الى حد كبير بقاء بعض المعضلات بعد عام ١٩٤٦ ، ولكن الى حد معين فقط . ان ظاهرة ستالين ، أي البيروقراطية والاستبداد والادارة الاعتباطية تتحمل مسؤولية ثقيلة عن الوضع الذي أصبح تفسيره أعسر كلما تراجعت الحرب لتصبح حدثاً من أحداث الماضي . وللنجاحات الاقتصادية حدودها التي نشأت من الظروف التي أنجزت في ظلها . ان الاقتصاد الاشتراكي والتخطيط قد جعلا تطور الصناعة الثقيلة ممكناً ، غير ان ظاهرة ستالين جعلت حل القضايا في القطاعات الأخرى أكثر صعوبة (الصناعة الخفيفة والزراعة) وكذلك تحسين الانتاجية .

واذا عدنا الى القرن الثامن عشر عندما احتج الشعب حول الطريقة التي بنى بها بطرس الأكبر سانت بيطرسبورغ ـ مات أثناء بنائها عشرة آلاف قن ـ أجاب فولتير : «أجل ولكن المدينة موجودة!» .

انه لحقيقة ان الاشتراكية موجودة في ١٩٥٣ في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية(*) وفي الوقت نفسه اتخذت وجهاً يمكن تفسيره تأريخياً ، ولكنه غير مبرر . وشكلت ظاهرة ستالين عقبة على طريق التقدم في البلاد والخارج . وفي الوقت نفسه نشأ وضع جديد يميل الى نبذها . لقد سقطت البربرية مادياً وروحياً . وشكلت ظاهرة ستالين نظاماً للحكم وادارة الاقتصاد كانت ملاءمته لمتطلبات فترته تتضاءل وتتنازع مع الوضع الواقعي في الاتحاد السوفيتي .

(*) أما الآن فان الاشتراكية غير موجودة نتيجة للطرق الخاطئة التي بنيت بها بالدرجة الأولى ، وللجهود المحمومة لمن أرادوا اعادة البناء (البيروسترويكا) بالدرجة الثانية . ولكن هل حقاً كانوا يريدون اعادة البناء ، أم كانوا يريدون اهارة هذه الأنظمة بكل الوسائل ؟ لقد تساءلتُ أمام أحد المعنيين بالأوضاع في الاتحاد السوفيتي قبل انهيار الاتحاد السوفيتي تماماً ، واستفسرت منه اذا كان من الممكن للقوى الداخلية ان توقف عملية الانهيار وان تسير بالاصلاحات الديمقراطية في طريق آخر ، فأجابني بتشف ، وكان مؤيداً لعملية الاهارة ، ان غورباتشوف قد خلق ظروفاً دولية لا تسمح بمثل هذا الحل ، وسوف تتدخل القوى الغربية وفي المقدمة امريكا لاحباط أية عملية من هذا النوع .

المترجم الى اللغة العربية

- ٨ -

الدولة الاشتراكية والديمقراطية

لا تحل الاشتراكية قضايا حكم الناس بضربة عصا سحرية . وهي قضايا أكثر صعوبة بما لا حد له وأكثر تعقيداً من القضايا الاقتصادية . ولم يكن برودون مصيباً في اعطائه الأرجحية للنضال « ضد السيطرة على الانسان » مقابل النضال الذي كان ضرورياً لشنه ضد « استغلال الانسان للانسان » . غير ان ماركس وضع هذين النضالين في نظام الأولوية . بوضعك نهاية لاستغلال الانسان تكون قد خلقت ظروفاً مؤدية الى نهاية سيطرة الانسان على انسان آخر . عندما تأتي الشيوعية يكون مصير الدولة قد تحدد نحو الزوال ، غير ان الاشتراكية تبعد مسافة طويلة عن الشيوعية . وتبقى الدولة وسوف تبقى لوقت طويل . وربما يكون دورها قد أخذ يسير نحو التضاؤل بتطور الاشتراكية . وهذه لم تكن ولا يمكن أن تكون هي الحال في الاتحاد السوفيتي . وكانت ثمة حاجة كبيرة الى الدولة بسبب تهديدات الامبريالية ومتطلبات الاقتصاد . وقد أضافت تقاليد الدولة الروسية وزناً لهذه المتطلبات وكان خطراً حقيقياً ، كما كان على المستقبل أن يبين . وانه لعلى وجه التحديد يتوجب علينا ان نبحث عن فهم ظاهرة ستالين على مستوى البنية الفوقية . فالظواهر الطبقية والعلاقات بين الطبقات الاجتماعية وصراعاتها تشكل الستارة الخلفية لهذه المأساة

الاستثنائية للتأريخ ، الا انه ليست ثمة علاقة مباشرة فورية بين العناصر المختلفة التي تولف القاعدة والبنية الفوقية . والدولة دائماً هي الأداة التي تؤكد بها طبقة ما سيطرتها ، ولكنها تتشكل وتتطور على أساس الأوضاع التأريخية المعينة وليست بمعزل عنها .

وهكذا فان كل دولة لها سماتها التي أكدها المدى الراهن من الظاهرة القومية . وعلى الرغم من الحقيقة في ان الأمر أسهل على الناس في التواصل ، فان العوامل القومية قد اكتسبت من الأهمية بحيث انه يوجد اختلاف أكبر بين الدولة مما كان عليه في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وفي الوقت نفسه ، فان التقدم التقني والعلمي قد منح الدولة طاقة متزايدة للاعلام والرقابة والتدخل في الحياة اليومية ، وفي وقت كانت فيه وظائف الدولة تتنامى . وكان تحت تصرف ستالين وسائل للحكم أكبر بما لا حد له مما كانت لدى الاسكندر ، ويوليو قيصر ، وبطرس الأكبر ، ونابليون . وقد عرف ، بفضل التلغراف والراديو ، ما الذي كان يجري في أبعد زاوية من زوايا الاتحاد السوفيتي عملياً في الوقت الذي كان يحدث فيه ذلك . واستطاع بفضل الطائرات ان يكون ممثلو الحكومة المركزية في أية بقعة في خلال ساعات قليلة ، او ان يجري استدعاء القادة المحليين الى موسكو . وهكذا ، تصبح كل دولة أكثر شعبية بمعنى انه حتى في الدكتاتوريات ، تكون قاعدة السلطة مدعومة شعبياً بقدر القوة التي تحت تصرف أولئك الذين يسيطرون على جهاز الدولة . ان الدولة وحش هائل (Leviathan) عصري يميل الى استيعاب كل شيء وابتلاع المؤسسات المستقلة سابقاً ، والتدخل في الحياة اليومية الخاصة لكل انسان والسيطرة على عمل كل انسان من المهد الى اللحد .

لقد قاتل الفوضويون (anarchists) في معركة مؤخرة ضد الدولة . ورأوا الخطر ، غير ان كل ما استطاعوا ان يحشدوا ضده هو وابل من الشتائم والادانات الأخلاقية وأمثلة من شخصيات استثنائية قليلة ممن حاولوا أن يعيشوا خارج القواعد الراسخة ، وبالأحرى من خلال العودة الى أسلوب حياة

أجدادهم أكثر من تنظيمهم الحياة المعاصرة بطريقة جديدة . وكان ماركس على حق حين كافح الفوضويين ، مثل برودون وباكونين ، اللذين رفضا ان يمنحا الأولوية للنضال ضد استغلال الانسان للانسان واستخدام الدولة للنضال ضده وازالته . وكان واعياً أيضاً للحاجة لتحطيم الدولة الرأسمالية واقامة دولة عمال من نوع جديد ، ورأى في حكومة كومونة باريس نموذجاً لذلك . وأكد في «الحرب الأهلية في فرنسا» انه من الضروري لدولة العمال هذه أن تزيل الهيئات الخاصة للجيش والشرطة وان تنتخب موظفي الخدمة المدنية وتمنحهم موازياً مرتباً لأجر العامل وان تجعلهم خاضعين للاستدعاء . وفي الوقت نفسه أكد كيف كان من الضروري للطبقة العاملة ان يكون لها منظماتها الخاصة بها ، وأولها ، حزب سياسي مستقل عن البرجوازية . وعلى أية حال ، كان مخلصاً لأصول الشيوعية والاشتراكية وتصور فقط برنامجاً سياسياً ديمقراطياً . وكانت «دكتاتورية البروليتاريا» بالنسبة له مفهوماً نظرياً عارضه بـ «دكتاتورية البرجوازية» من أجل ان يحدد محتوى الدولة الجديدة التي كان ينبغي اقامتها . ومما له أهمية ان لا يستعمل هذا التعبير «في الحرب الأهلية في فرنسا» ويتحدث عن «حكومة الطبقة العاملة» التي رأى لها نموذجاً في كومونة باريس . انه تحدث بالطبع عن «الدكتاتورية البروليتارية» في رسالة الى ويديمير في ١٨٥٢ ويعود اليها بشيء من التفصيل في «نقد برنامج غوته» في ١٨٧٥ ، ولكنها لا تزال مفهوماً نظرياً يستخدمه في سياق دقيق جداً فقط من أجل تحديد المحتوى الطبقي للحكومة في معارضة مع الدولة الرأسمالية التي تسيطر عليها «دكتاتورية البرجوازية» .

وتأتي تالياً لذلك فترة الأممية الثانية وبناء أحزاب الاشتراكية الديمقراطية والتي نشأت من الحركة الديمقراطية نفسها في الديمقراطيات الغربية . ان البرنامج السياسي لكومونة باريس كان مشابهاً جداً لبرنامج بيليفيل الجذري الذي تبناه ناخبو غامبيتا في ١٨٦٩ . ان الكومونة التي جاءت نتيجة للانتخاب العام ، ألغت الجيش وقلصت عدد الشرطة ، وفصلت بين الكنيسة

والدولة ،وقلصت مرتبات المراتب العليا لموظفي الخدمة المدنية وجعلت عدداً من المناصب خاضعاً للانتخاب . ولم يكن شيء ما اشتراكي بصفة خاصة في هذه الاجراءات ، اذا استثنينا حقيقة ان «حكومة الطبقة العاملة» نفذتها . لقد اضطلعت الأحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية بدور حاسم في نشر الاشتراكية بين الجماهير ، من الزاوية الاجتماعية والسياسية أكثر مما من الزاوية النظرية . واذ استخدموا الديمقراطية البرجوازية لاقامة منظمات قوية كثيرة ، بدأوا من مطامح الناس الى مزيد من المساواة والعدالة الاجتماعية وربطوا النشاط الديمقراطي بالوعي الاشتراكي . ومع انهم لم يحققوا انتصارات انتخابية حاسمة ، الا ان النتائج كانت مشرفة في الكثير من البلدان ، وأصبحت هذه الأحزاب أحزاباً جماهيرية متجذرة بثبات في حياة الأمة . وكان الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي الألماني حامل لواء الأممية الثانية . وكانت عضويته في عام ١٩١٤ قد بلغت (١,٧٠٠,٠٠٠) و ٣٥ في المئة من الناخبين و ١١٠ نواب في البرلمان و (٤,٠٠٠) عامل متفرغ ، وكان الحزب الأكبر في المانيا والحزب الاشتراكي الأكثر قوة في العالم .

وفي فرنسا كان لـ S.F.I.O ما يزيد على (١٠٠) نائب في البرلمان ولعب دوراً هاماً في حياة فرنسا السياسية . وفي بريطانيا أصبح حزب العمال قوة في البرلمان ، بينما ازداد نفوذ النقابات العمالية . وفي ايطاليا وكذلك الامبراطورية النمساوية ـ المجرية أصبح الحزب الاشتراكي قوياً .

سجلت الحرب العالمية الأولى فشل الاشتراكية الديمقراطية في اوربا الغربية والوسطى . فلم يأت حديث لينين دون مبرر عن «افلاس الأممية الثانية» . ومما لا شك فيه ان اتجاهاً يسارياً هنا وهناك بذل أقصى جهده لمكافحة النزعة القومية التي اكتسحت الأحزاب الاشتراكية وقادت كلاً منها الى التحالف مع برجوازيته القومية ليحارب الآخر . وجاءت الثورة السوفيتية مندفعة من الحرب العالمية الأولى . وبعد فشل الثورتين الألمانية والمجرية انتقل ثقل الحركة العمالية الى روسيا . ويمكن للمرء بادراك متأخر ، ان يجد لهذا أسباباً

عميقة كانت موجودة بالفعل ، يفترض انها تفسر ذلك باعتباره حقيقة ملازمة للتأريخ . وتبدو لي انها بصفة أكبر نتيجة لتتابع الأحداث التي اضطلع فيها الأفراد والجماهير بدور حاسم . ان تغذية عقيدة تأريخية جامدة ضمن الماركسية تفقرها وتجعلها عقيمة ليست الجريمة الأقل شأناً للستالينية .

انتقد ماركس وانجلز في «الايديولوجية الألمانية» التشويهات التأملية التي يعتبر وفقاً لها التأريخ المتأخر هدفاً للتأريخ المتقدم ، فعلى سبيل المثال ، ان الهدف الذي نُسِبَ الى اكتشاف أمريكا هو تفجير الثورة الفرنسية فيما بعد . وبذلك «يتلقى التأريخ أهدافه الخاصة . . .» (الايديولوجيا الألمانية ، لندن ، ١٩٧٠ ، ص٥٧) . كان يمكن ان تنتصر الثورة الألمانية وان تهزم الثورة السوفيتية . ان الدولة السوفيتية التي بنيت بعد الحرب الأهلية تشكل نظاماً أصلياً خاصاً كان مختلفاً جداً عن النظام الذي وصفه ماركس بالارتباط مع كومونة باريس ، وحتى عن النظام الذي تخيله لينين في «الدولة والثورة» في كتاباته لعام ١٩١٧ . ومن ثم كتب ان «السوفيات» ، نوع جديد من الدولة من دون بيروقراطية ، من دون شرطة ، من دون جيش دائم .»

وكما لاحظنا كانت البيروقراطية في عام ١٩٢٢ تسيطر على الدولة . وكانت الشرطة السياسية ذات جبروت هائل ، وكان قوام الجيش الأحمر خمسة ملايين فرد . وكانت ثمة أسباب رائعة لهذا كله . كانت الهزيمة ستنزل باللاشفة من دون الجيش الأحمر و «الارهاب الأحمر» و «شيوعية الحرب» ، وكنا سنحتفل بخشوع كل سنة بذكرى هزيمتها ، كما نمجد الآن ذكرى الكومونيين الذين سحقتهم جيوش فرساي في ايار (مايو) ١٨٧١ . وفي الوقت نفسه فان الأدوات التي خلقها انتصار السلطة السوفيتية والأحداث التي حدثت ضمنها طرحت قضايا هائلة استمدت منها أخيراً ظاهرة ستالين جوهرها . ان الدور الاستشعاري (التجسسي ـ المترجم) للدولة قد تزايد بسبب التقاليد القيصرية التي اكتسبت الدولة الروسية ضمنها صلاحياتها ،

وكانت هذه الصلاحيات أوسع بكثير لانها لم تواجه لا الطبقات الاجتماعية ولا الأفراد القادرين على الحد منها .

في فرنسا والغرب يؤرخ النسيج السميك للديمقراطية بعصر النهضة . وقد حيك عبر قرون من التجربة التأريخية ، بفترات من المد والجزر ، ومنذ ظهور هتلر ، نعرف ان هذا النسيج لا يزال ركيكاً وعرضة للتهديد .

وما يعرف بالديمقراطية البرجوازية « كانت الى حد كبير قد فرضته » الطبقة العاملة بعد ثورات ١٨٤٨ . ومن جهة أخرى ، فان التأريخ تطور بطريقة مختلفة تماماً في روسيا . وكان نسيج الديمقراطية رقيقاً جداً ولم يكد يحاك في أثناء المعارضة للقيصرية ، بينما كان في فرنسا قد تشكل في خلال الثورة البرجوازية لعام ١٧٨٩ ، وفي أثناء الديمقراطية الاشتراكية في القرن التاسع عشر . وكما أشار لينين فان الرأسمالية قد منحت « ثقافة ديمقراطية وتنظيماً لجميع الناس ، مهما كانا متواضعين » .

ان عزلة الاتحاد السوفيتي بعد عام ١٩٢٢ ، والدور المتزايد باطراد للدولة في المسائل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وتنامي الموارد التي تحت تصرفها ، ووجود حزب وحيد وقوي جداً ، جعلت هذه كلها الوضع أكثر سوءاً .

وتقلبات التأريخ السوفيتي التي أفضت الى نمو ظاهرة ستالين معروفة جيداً . انه لمن المستحيل وضع تأكيد كاف على الوزن الساحق للدولة ، لاننا نشعر ان هذا يؤدي بنا الى القلب ذاته لظاهرة ستالين . والمحتوى الطبقي لهذه الدولة وقاعدتها الاقتصادية والاجتماعية تميلان نحو اخفاء الظاهرة عنا ، وقد فعلتا ذلك لعدة عقود . كما ينبغي ان نتذكر ان البلدان الرأسمالية خبرت هذا بالقدر نفسه وأحياناً حتى بقدر أكبر ، وانها لا تزال مهددة بالعودة الى ذلك ، تلك العودة التي لا ضمان لها ضدها . ان الدولة ضرورة وخطر في آن معاً ، والتأريخ السوفيتي يظهر ذلك على نحو قاطع تماماً . ويمكن ان نرى هذا حتى على مستوى حياة الحزب الشيوعي . فعملية بطيئة ، حاذقة ولكن فعالة أفرغته

تدريجياً من محتواه الديمقراطي . دعونا نأخذ مثلاً محدداً . ففي المؤتمر العاشر في ١٩٢٠ كانت قد رافقت قرار تحريم التكتلات اجراءات ترمي الى تطوير المناقشة الديمقراطية داخل الحزب . ونشر مجلة « مناقشة » كان يقصد به جعل المناقشة تتدفق أفقياً (داخل منظمة معينة) وعمودياً (من القاعدة الى القمة ومن القمة الى القاعدة) . ومن دون الديمقراطية تصبح الديمقراطية المركزية تدريجياً دكتاتورية ، وهذا ما حدث في الاتحاد السوفيتي في أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات ، إن كل انتقاد لستالين أصبح جريمة . ففي أوائل العشرينات كان « الخصوم » يمنحون مناصب بعيداً عن موسكو ، ومن عام ١٩٢٦ فصاعداً كانوا يطردون من الحزب . وكان ستالين في المؤتمر الرابع عشر (في كانون الأول / ديسمبر ١٩٢٥) يصرخ على ناقده ريازانوف : « ريازانوف مصاب بمرض الحنين الى تركستان » ، وصرح أحد البلاشفة : « لا يرغب أحد في مهاجمة السكرتير العام ، فيرسل على فعلته الى مورموسك والى تركستان » . ومن عام ١٩٣٢ فصاعداً أوقف هؤلاء الخصوم ، ومن ١٩٣٦ فصاعداً حوكموا وأعدموا ، ومن ١٩٣٨ فصاعداً أعدموا من دون محاكمة .

وامتد هذا الوضع ، خطوة فخطوة ، من قيادة الحزب الى الحزب كله والى المنظمات الأخرى التي كانت لا تزال موجودة : النقابات العمالية ورابطة الشباب الشيوعي وجهاز الدولة نفسه . ان الغياب التام لحرية التعبير جعل من المستحيل ممارسة أية سيطرة على نشاطات السلطات ، ومدت هذه الأخيرة مجال سيطرتها وقمعها تدريجياً لتشمل المجتمع كله . واحتوت الدولة كل طور من أطوار الحياة الشخصية ـ المدرسة ، العمل وأوقات الراحة . واذا أخذنا العناصر التي سببت نشوء ظاهرة ستالين وحددت سماتها ، كلا على حدة فانها ليست خطرة ، اذ أن الخطر نشأ منها مجتمعة . واختلطت القدرة الكلية للدولة بالقدرة الكلية للحزب ، وهذه الأخيرة بالقدرة الكلية لستالين . ان الدور الذي اضطلع فيه ، وشخصيته ، وطرائقه وعقليته أكدت جوانب معينة من

الظاهرة . ومع ذلك فانه لم يخلقها . وكل ما عمله كان بلورة وتضخيم الأشياء التي وجدت قبله ، والتي نشأت من التأريخ الخاص لروسيا أولاً ، ومن ثم الاتحاد السوفيتي والدولة السوفيتية ، تماماً كما بلور هتلر وضخم السمات الخاصة للتأريخ الألماني والدولة الألمانية وان كان تحت ظروف مختلفة ومغايرة من حيث الأساس للرأسمالية الكبيرة .

ان الرأسمالية قد أنتجت دولاً وأشكالاً سياسية اختلفت الى حد كبير حسب الزمان والمكان والأمة المعنية . والشيء ينطبق على الاشتراكية أيضاً . واستقلال السياسة والايديولوجيا بالعلاقة مع الجوانب الاقتصادية والاجتماعية أكثر بكثير مما يُتَخَيَّلُ بسبب نزعة ستالين الجامدة عقائدياً ذاتها . ينبغي لنا ان نرى كل عواقب هذا . ومع ان «الضرورة الاقتصادية تسود دائماً في النهاية» (رسالة من انجلز الى ستاركنبيرغ ٢٥ كانون الثاني / يناير ١٨٩٤) ، فان العلاقة ليست دائماً مباشرة وعاجلة .واعترف انجلز في رسالة الى ميهرنغ في ١٤ تموز (يوليو) ١٨٩٤ أن الماركسية كانت مخطئة باهمالها «الشكل لحساب المادة» ، وأكد الحاجة لمعرفة الفعل المتبادل في التأريخ ، لان الناس يميلون الى أن ينسوا! «الحقيقة الماثلة في انه حالما يخلق عامل تأريخي بموجب حقائق اقتصادية اخرى ، فانه يتفاعل بدوره ويستطيع ان يؤثر في بيئته وحتى في أسبابه» .

ولا تزال ظاهرة ستالين ترتبط بتطور بنى الدولة الاشتراكية السوفيتية وآلياتها بالطريقة التي حددها التأريخ .

ان التخلف الثقافي والمحاصرة الرأسمالية قد أضافا الى وزن التأريخ (أي انبعاث القيصرية الروسية وعواقب الحرب الأهلية) . وعبادة القائد تجعل من الممكن الحصول على فهم أفضل لما حدث . وقد استوعبت تراثاً كاملاً لم يكن روسياً محضاً ، الا انه ليس من شك في أن هذا التراث قد أضيفت عليه سمة محلية . ويبدو واضحاً تماماً ان مثل هذه الظاهرة هي ظاهرة شاملة وتميل الى ان تصبح كذلك في القرن العشرين أكثر من السابق . وهي لا تبدو اشتراكية

بصفة خاصة . فهي قد تأسست جيداً قبل الاشتراكية ، منذ ان برزت الدولة الى الوجود . واذا عدنا الى التأريخ القديم فان وجودها قد تأكد في مصر وبلاد ما بين النهرين . وكلما ازدادت سيطرة الدولة على حيوات الأفراد ، كانت عبادة القائد تعطي قاعدة شعبية لنظام الحكم السياسي الذي كونه المجتمع . ففي الممالك الهيلينية كان الملك هو المنقذ (Sóter) وحامي المدينة (Poliocete) والوصي (phylax) ، وطارد الشر (evergete) .

ويمكن ان يقدم اعتراض هو ان النشيد الأممي (Internationale) أعلن بانه لا يوجد اله ولا قيصر ولا منقذ أعلى . وذلك ضرب من التمنيات يبدو مثيراً للسخرية عندما يقارن بحقائق التأريخ المعاصر . وفي الصين تطورت عبادة ماو الى مدى مماثل لعبادة ستالين (مع انها لم تكن دموية بالقدر نفسه) . ان الأسباب نفسها تنتج النتائج نفسها . وفي الوقت ذاته فان الأشكال التي اتخذتها عبادة ماو ليست الأشكال ذاتها التي ظهرت بها عبادة ستالين ، لانهما وجدتا في وضع وطني مختلف وفي بيئة تأريخية مختلفة ففي حالة ستالين كان المرشد (Guide) قد أحيط بالتكريم مثل اله حي . لقد عاقب الأشرار ، وحمى الضعفاء ، وجسّد الدولة الاشتراكية . كان المنقذ والضامن ولحمة وحدة الشعوب السوفيتية ، وهذا ما يجعلنا نفهم بصورة أفضل أسباب شعبية ستالين ، ونوعية زعامته ، على الرغم من حقيقة انه أخضع الشعوب السوفيتية الى ارهاب متسع لما يقارب عشرين سنة .

وعندما توفي حزن ملايين المواطنين السوفيت على المرشد الميت ، مع انهم عددوا الأصدقاء والأقارب بين ضحايا الارهاب . ان عبادة القائد كانت عنصراً هاماً من ظاهرة ستالين . وقد انقسمت الى عدد كبير من العبادات في المناطق . وفي منطقة سمولنك كانت عبادة رومانتسيف سكرتير الحزب المنطقي حقيقة مثل عبادة ستالين . وكانت صوره توضع الى جانب صور ستالين في الأماكن العامة والمكاتب الحزبية . وسميت المصانع باسمه . وكانت خطاباته حتى اعتقاله في ١٩٣٧ تقتبس في الصحافة بصورة تضفي عليها

مهابة . وقد نمت العبادة في الأحزاب الشيوعية والعمالية التي كانت في السلطة . ففي المجر نجد عبارة ستالين وراكوشي ، وفي تشيكوسلوفاكيا عبادة غوتوالد بالاقتران مع عبادة ستالين الخ . وحتى الأحزاب الشيوعية الغربية مارست هذه العبادة بشكل ملطف ، ولكن جرى الاحتفال بعيد ميلاد ستالين السبعين في كل مكان بمهابة مشهودة .

وحتى مدفن لينين استخدم لنقل مشاعر دينية الى الميدان العلماني والاشتراكي . كان المجتمع السوفيتي مجتمعاً من دون اله ، ولكنه لم يكد يكون معداً لهذا الوضع أو لم يكن معداً مطلقاً ، وهكذا فقد خلق طقوساً ، واحتفالات ، وأبنية وقاموساً لم تكن غير مذكرة بالارثوذكسية المهزومة . انها مختلفة من حيث الأساس ، لان المادية قد سادت والماركسية تستطيع ان تستخدم الدولة لنشرها ، ولكن الأشكال كانت مماثلة .

في قلب الدولة السوفيتية نجد الحزب الشيوعي . والتمييز بين الحزب والدولة لم يعن الكثير في الاتحاد السوفيتي عند نهاية الحرب الأهلية . كان ثمة تنافذ . والدور القائد للحزب قد عنى انه حصل على ما أراد في حالة التعيينات الى مراكز المسؤولية . وبمرور الأعوام اتسعت الـ "Nomenklatura" أي ان المناصب التي شُغِلَتْ بسماح من الهيئات القائدة في الحزب فقط أو خصصت لها فقط تنامت كثيراً ، وموررست رقابة دقيقة بصورة متزايدة . والحصول على أحد هذه المناصب يجعل المرء مشاركاً في السلطة ، ولكن بدءاً بعام ١٩٣٥ فصاعداً ،لم يعن العزل من المنصب فقدان السلطة فقط ، بل عنى أيضاً فقدان الحرية وفي الأغلب الحياة كذلك . وفي النهاية عنى الحصول على مناصب معينة اللعب على الحبلين أو التخلي عن ذلك . وهكذا فانه لم يكن للفئة الحاكمة الصغيرة في الدولة حماية أكبر من المناضلين الاعتياديين . وفي الحقيقة انها كانت خاضعة للاضطهاد أكثر من الأعضاء الاعتياديين في الحزب ، وكان أكثر تأثراً به من غير الحزبيين ، وهذا الشيء الغريب حول نظام يدرس في الأغلب عكسياً .

ولان الدولة الستالينية كلية القدرة ـ وهو الشكل الذي اتخذته الدولة الاشتراكية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، فانها لم تراع القوانين التي شرعتها بنفسها . ففي المضمار الاقتصادي كانت الحوافز الاقتصادية تستطيع ان تسهم بفعالية في النضال ضد البيروقراطية . وكان هذا مستحيلاً تماماً على نحو واضح في الميدان السياسي . ولم تكن قادرة على مواجهة النزعات الاستبدادية للدولة سوى ممارسات ديمقراطية حقيقية . وغياب الديمقراطية السياسية التام في الاتحاد السوفيتي في ١٩٢٢ على وجه التحديد هو الذي يجعلنا نفهم الحقيقة حول ظاهرة ستالين . ونحن نتعامل هنا ، مع قضية حاسمة في التأريخ المعاصر .

ان تجربة البلاشفة ، أي الظروف التي خاضوا في ظلها نضالهم السري ، وأحداث الثورة والحرب الأهلية وافتقارهم الى الخبرة في هذا المضمار أفضت بهم الى عدم فهم العمليات الديمقراطية وآلياتها . ولم يكن ثمة شيء لموازنة دولة مؤدية الى البيروقراطية والنزعة الاستبدادية ، وهكذا فان أي شيء يمكن ان يحدث ويمكن لنا أن نرى حتى في البلدان الأوربية الغربية المتقدمة ثقافياً وديمقراطياً ، كان ثمة تهديد بالنزعة الشمولية ، والتي انتصرت في النهاية في المانيا . في هذه الظروف كيف يمكن ان نندهش من ان النزعة الاستبدادية قد ازدهرت في الاتحاد السوفيتي تحت ستار ظاهرة ستالين ، على الرغم من وجود الاشتراكية التي رأينا كم كانت ضعيفة وغير مؤكدة بسبب هذه الظروف .

ان الحزب الوحيد والافتقار التام لحرية التعبير والتنظيم والاجتماع لم تكن ذات عواقب صغيرة هامشية . ونمت النزعة الاعتباطية في هذه البيئة ، ولم تكن ثمة قوة قادرة على معارضتها .

والغياب الكامل للنقد في داخل الحزب ذاته وقيادته أصبح مأساوياً حقاً من عام ١٩٢٥ فصاعداً . وكان انتقاد عمل من أعمال القيادة الحزبية واللجنة المركزية مغامرة بفقدان المرء لمنصبه . ومن هنا ، فان النقد لم يعد ممكناً . وعلى الضد مما قال لينين ، فان الديمقراطية ليست مجرد مقولة سياسية

الحاجة اليها مشكوك فيها . انها تشكل بنية وتنظيماً وممارسة يمكن في غيابها أن تتحرك المجتمعات المعاصرة نحو النزعة الشمولية ، بسبب الأسس التقنية والعلمية التي تستند عليها ، والتأثير المتزايد للدولة في الحياة اليومية . والاشتراكية ليست حصينة ازاء هذا المرض العصري بحيث لا تتطور على أساس من الاجراءات الديمقراطية بصورة راجحة ولا تسبب نمواً للآليات الديمقراطية ، والاقتصاد الاشتراكي لا يخلق بحكم طبعه (ipso facto) آليات ديمقراطية . وهذا بالضبط ما يظهره تأريخ ظاهرة ستالين . والاشتراكية لا تمنع بالضرورة النزعة الاستبدادية . وهي كذلك لا تخلقها بالضرورة .

ان قصر ظاهرة ستالين على هذه الجوانب سوف يجعلنا ، على أية حال ، نقوم بتفسير خاطئ جدياً من الناحية التأريخية . ومحتواها الاقتصادي والاجتماعي اشتراكي حقاً . هذا الطابع المزدوج للظاهرة يهمل في الأغلب . واذا ما رأى المرء جانباً واحداً فانه يحكم على نفسه بالفشل التام لفهم التأريخ السوفيتي .

ان الوسيلة المستخدمة تتناقض في الأغلب مع الهدف المنشود (ونحن منا لا نتبنى وجهة نظر أخلاقية) ، ولكن هذا الهدف لا يزال موجوداً ويتقدم الى الامام عبر العقبات . والتقدم الثقافي والتعليمي هو واحد من أفضل الأمثلة على هذا التناقض . وفي خلال الفترة كلها كان كبيراً . وسوف نجعل الأرقام تتحدث عن نفسها . وبحلول عام ١٩٣٩ ، كان كل طفل يحضر المدرسة حتى نهاية «سبع سنوات من الدراسة» (الى حوالي عمر الثالثة عشرة) :

السنة	عدد التلاميذ
١٩١٤	٩,٦٥٦,٠٠٠
١٩٣٩	٣١,٥١٧,٠٠٠

وقد اختفت الأمية بين الشباب دون العشرين . وفي عام ١٩٥٣ ، كان التعليم الثانوي يستوعب أكثر من نصف الأطفال في كل فئة عمرية . ان عدد

الطلاب قد ارتفع من (١٢٧,٤٠٠) في عام ١٩١٤ الى ١,٥٦٢,٠٠٠ (كان من بينهم ١,٠٤٢,٧٠٠ طلاب جامعة متفرغون للدراسة) . ومن الهام ليس فقط دراسة الزيادة في عدد الطلاب ، بل ان نلاحظ العواقب الاجتماعية لهذا النمو . وأرسلت جماهير العمال والفلاحين الجماعيين أولادها الى المدرسة الثانوية والجامعة وحضروا هم أنفسهم في الأغلب صفوفاً مسائية أو انتظموا في دورات المراسلة . وأقيمت آلاف الأبنية للطلائع والشباب والمنظمات الثقافية . وحققت الجماهير تقدماً ثقافياً كبيراً ، وهذه الفكرة انتشرت من الاتحاد السوفيتي الى الغرب . وجلب مارلو وأراغون فكرة البيوت الثقافية بعد سفرهما الى الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٣٤ . انه لحقيقة ان عدداً كبيراً من أبناء الموظفين قد مروا بالتعليم العالي ، وهذا ما أدى الى درجة من اعادة الانتاج الاجتماعي . ولم يكن الاتحاد السوفيتي بلداً للمساواتية . وكانت لا تزال ثمة اختلافات طبقية واجتماعية ـ ثقافية ، مع ان ما يزيد على نصف الطلاب كانوا من أبناء الفلاحين الجماعيين والعمال . ان الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٥٣ كان بلداً فيه الحراك الاجتماعي والترقية على أشدهما . ان جمهرة أبناء الفلاحين (الموجيك) ذهبت الى الجامعة وكرمز لهذا التطور الثقافي هيمنت جامعة موسكو التي بنيت في عام ١٩٥٢ على تلول لينين ، على المدينة .

وفي عام ١٩٥٣ أنهى الاتحاد السوفيتي التخلف الثقافي ومهد طريقاً طويلاً نحو الغرب . وقد درب ملايين الفنيين وعشرات آلاف العلماء والباحثين العلميين . وهكذا ، فان قاعدة الديمقراطية قد اتسعت . وخلقت ظاهرة ستالين ، وهي التي أقيمت على قاعدة من اقتصاد اشتراكي الظروف ذاتها لازالتها .

لقد لاحظنا سابقاً موقف الدولة من البحث والعلم والفنون الخلاقة . وكما كتب تفاردوفسكي في المجلة السوفيتية «العالم الجديد» (Novy Mir) في ١٩٦٥ ، كانت فترة من «التزييف والتشويه للحقيقة الواقعة» . ومع هذا فانه لا يمكن ان يختزل الى هذه السياسة التسلطية . فقد خلق في كل ميدان جمهور

جديد واسع ومثقف . وأتم العلماء والمهندسون السوفييت بحثهم النووي الخاص وصناعتهم الجوية ـ الفضائية الخاصة . ونشرت مؤلفات أدبية عالية القيمة وصنعت أفلام جيدة . وتكشف التناقضات ضمن ظاهرة ستالين عن نفسها بصورة ساطعة في المضمار الثقافي . اذ أنتج ايزنشتاين فيلم «الكسندر نيفسكي» و «ايفان الرهيب» ، ولكن كان عليه ان يقدم تنازلات عديدة ليفعل ذلك .

والماركسية التي أصبحت فلسفة الدولة الرسمية ، لُقِّنَتْ لليافعين كعقيدة جامدة ، ونظمت الدروس في المادية الديالكتيكية والمادية التأريخية في كل مستوى من مستويات التعليم ، وهذه النزعة من الجمود العقائدي أفضت الى «انحراف نظري» خطير هو : الستالينية .

ومع الفارق ، نرى هنا الظاهرة ذاتها التي عانتها المسيحية عندما أصبحت دينا للدولة في الامبراطورية الرومانية ، عندما اعتنق الامبراطور اغسطين المسيحية في بداية القرن الرابع للميلاد . والماركسية التي هي فلسفة نقدية ، تحولت الى بنية عقائدية جامدة مصممة لتوفير اطار ايديولوجي لعشرات وحتى مئات الملايين من البشر . وما كان منهجاً للبحث أصبح شيئاً متحجراً وشائخاً جزئياً نتيجة لنظام حَرَّمَ كل بحث علمي حر ونزعة نقدية .

وكان لهذه النزعة الجامدة عقائدياً نتائج مأساوية في الاتحاد السوفيتي والحركة الشيوعية العالمية . وتأثير الستالينية في الأحزاب الشيوعية الأجنبية يفسر بالأسباب التي حللناها . كان الاتحاد السوفيتي ، طيلة خمسة وعشرين عاماً ، الدولة الاشتراكية الوحيدة على الأرض . وقد أجبرت الأحزاب الشيوعية على الدفاع عنه مهما كانت النتائج . والثورة السوفيتية باعتبارها الثورة المنتصرة الوحيدة في التأريخ ، بدت للشيوعيين نموذجاً للاستنساخ ، حتى وإن أخذت الاختلافات القومية في الحسبان . وحتى عام ١٩٣٤ كان شعار «السوفيتات في كل مكان!» واحداً من شعارات الشيوعيين الفرنسيين الرئيسة .

وأصبح بناء الاشتراكية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية نموذجاً بدوره ، وأدت أحداث ما بعد الحرب العالمية الثانية الى ان يستنسخ في دول أوربا الشرقية الاشتراكية . والانتصارات ذاتها والبناء الاشتراكي والحرب العالمية الثانية منحت ظاهرة ستالين تأثيراً هائلاً في جميع البلدان ، ومن بينها تلك التي كان الوضع فيها اقتصادياً وثقافياً وسياسياً يختلف جذرياً عن الوضع في روسيا ١٩١٧ واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية في ١٩٤٥ .

ان الحاجة الى الدفاع عن الاتحاد السوفيتي ومنجزاته عَتَّمَ جزئياً الدراسة النظرية للأحزاب الشيوعية للطرق الى الاشتراكية والأشكال التي ينبغي ان تأخذها في مختلف البلدان ، مع الوضع في الاعتبار الظروف التأريخية والجغرافية على وجه التحديد لكل فترة ولكل بلد . وقادهم تأثير ستالين الى تعميم خبرة خاصة واحدة والتحرك بصورة جامدة عقائدياً من الخاص الى العام . وفي حالة دول أوربا الشرقية الاشتراكية ، لم يحدث هذا دائماً بصورة طوعية . ويمكن ان يفسر الأمر في حالة الأحزاب الشيوعية الأخرى بالحقيقة الماثلة في ان ما كان مطروحاً هو تجربة فذة في التأريخ حدثت في بلد كبير ، بينما فشلت الاشتراكية على نحو شامل في الغرب . والان فان الثورة السوفيتية وبناء الاشتراكية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية يؤلف ملامح عامة ، ولكنها تجد تعبيراً في تأريخ واقعي عبر وساطة ملامح خاصة . وهذا ينطبق على الاستيلاء على السلطة واضفاء الطابع الاجتماعي على وسائل الانتاج والتبادل ، التي كفلتها جميعاً الثورة السوفيتية . ولهذه الأسباب ، لم يدرك ، أو لم يدرك بما فيه الكفاية ، ان الظروف التأريخية ، في الدول الرأسمالية الكبيرة المتطورة اقتصادياً وثقافياً كانت مختلفة جذرياً ، والطريق الى الاشتراكية ، وكذلك الأشكال التي سوف تتخذها ، سوف تختلف بالضرورة تبعاً للظروف والبلد ، حتى وان بقيت الملامح العامة هي نفسها . وعلى الرغم من تحذيرات لينين أصبح البلاشفة تحت تأثير ستالين يعتبرون تجربتهم الخاصة نموذجاً

ينبغي استنساخه في كل مكان ودائماً . وهذا ينطبق ، مثلاً ، على نظام الحزب الواحد .

ان تجربة المانيا المأساوية في عام ١٩٣٣ ساعدت فرنسا في عام ١٩٣٤ . فباقامة التحالف المعادي للفاشية وتأكيد الشيوعيين انهم كانوا يناضلون من أجل الديمقراطية (الديمقراطية أو الفاشية) . اننا نشهد تغييراً جذرياً في الاتجاه ، ومن ثم زادت في تطويره الجبهة الشعبية . وأكد هذا التناول المؤتمر السابع للكومنتيرن في ١٩٣٥ . ومما يؤسف له ان ظاهرة ستالين أخرت تطبيق هذه السياسة الجديدة ومنعتها الى حد بعيد من أن تتخذ البعد النظري المطلوب .

ان الوضع الدولي أحبط أي أمل في اتباع هذا النهج ، الذي لا ينبغي التقليل من أهميته بالنسبة للتأريخ المعاصر . وكان ينبغي الانتظار الى ما بعد الحرب .

لقد صرح موريس توريز السكرتير العام للحزب الشيوعي الفرنسي في مقابلة صحفية في تايمز اللندنية بتأريخ ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٦ انه كان من الممكن «تصور طرق أخرى للاشتراكية غير الطريق الذي اتبعه الشيوعيون الروس . وعلى أية حال ، فان الطريق مختلف بالنسبة لكل بلد .» وهذا التصريح ، الذي انتقده جدانوف ومالينكوف في اجتماع للكومنفورم ، والذي ركن على الرف بالأحرى بسبب الحرب الباردة ، شكل تأريخاً حاسماً في رفض النظرية الستالينية من قبل سكرتير عام لواحد من أكبر الأحزاب الشيوعية نفوذاً في العالم الرأسمالي . والعقيدة الستالينية الجامدة والتي كانت مناقضة لتطور العلم بطرق كثيرة جداً أصبحت تناهض حقائق عصرها وحاجاته ومع انها كانت ملائمة للتعليم ـ وهي صفة يمكن ان تكون مفيدة ـ الا انها كانت مصدراً للتصلب ، ليس في الاتحاد السوفيتي حسب ، بل في جميع الأحزاب الشيوعية .انه من غير الانصاف رؤية هذا الجانب من الأشياء ، وحده . فعلى سبيل المثال ، اضطلع الحزب الشيوعي الفرنسي بدور كبير في

نشر الماركسية وتطوير النظرية الماركسية . وتشكلت بحض منه أولى المجموعات الماركسية للمثقفين ونشرت الترجمة الجدية الأولى لمؤلفات ماركس في اللغة الفرنسية . وكانت ثمة تجارب جديدة ومثيرة للاهتمام في الفلسفة والأدب ، وكانت هذه بشائر بالعمل التجريبي الذي أنجز في فترة ما بعد ستالين . ودخلت الماركسية العوالم الأكاديمية والفنية . وفي هذا الصدد تقول الكثير أسماء مثل ايلوار واراغون وبيكاسو وجوليو كوري ولانجيفان وبولتزر وهنري والون . وحدث هذا ضمن الظاهرة نفسها التي أخذت تناقضاتها تصبح أكثر سوءاً بمرور الأعوام . ان الأسس الاقتصادية والاجتماعية للنظام السوفيتي تعززت ، بينما أصبح النظام التسلطي البيروقراطي للحكومة أكثر قمعاً . وازداد وضوحاً بمرور الزمن ان هذا النظام لم يكن ملائماً لمتطلبات الاقتصاد (نمو الصناعة الخفيفة والزراعة) ، والبحث العلمي أو التقدم التقني . وتبقى عدم الملاءمة هذه مأساوية ، على الرغم من أن زعامة القائد المنتصر والخوف من حرب عالمية ثالثة قد عتّما عليها . ان رفض الصلة مع الخارج وعدم استقرار القيادة المهددة باستمرار بسيف ديموقليس للتطهيرات الدموية أشاعا البطء في التوسع الاقتصادي . وجعلا مستحيلاً الافادة من المنافع لاقتصاد اشتراكي فيما يتعلق بالتخطيط والانتاج على النطاق الوطني ، وجعلا الثقافة السوفيتية ، التي كانت تعد بالكثير بعد الثورة ، عقيمة .

لقد تضررت الاشتراكية من هذا الوضع ، ولكنها لم تدمر ، وعلى العكس استمرت بالتقدم مما يشكل مفارقة .

لقد اعتقل ستالين عشرات آلاف القادة من الجمهوريات السوفيتية غير الروسية ، ورحلهم أو أعدمهم . وفي هذه الجمهوريات واصل حملة قوية ضد «النزعة القومية البرجوازية» ، وفرض سياسته المركزية الروسية ، غير ان دراسة اللغات القومية اتسعت نوعاً وكماً في الوقت نفسه . وولدت في آسيا آداب جديدة وعادت الى الظهور آداب قديمة . وانحسر التخلف في كل مكان . وألقت النساء الحجاب الذي ارتدته أجيال منهن لعدة قرون . وانتشرت

كل مستويات التعليم لتصل الى كل جزء من الاتحاد السوفيتي بحيث وصلت أماكن لم يكن فيها سابقاً حتى مدارس أولية . وهكذا ، بنيت القاعدة التي أضافت هشاشة النظام الستاليني . وبقي الارهاب يسود البلاد ، الا ان مداه تضاءل بالنسبة لما كان عليه قبل الحرب ، وكان الأمن الشخصي لا يزال مهدداً بالقدرة الكلية لوزارة الداخلية ، وبالاتهامات وخروقات الشرعية الاشتراكية ، وأحياناً ، بالقانون نفسه ، كما في حالة اللجنة الخاصة (OSSO) . « خرجت لارا أحد الأيام ولم تعد . » هذه الجملة المأساوية الواردة في ختام رواية « دكتور زيفاغو » لبوريس باسترناك كانت لا تزال جملة نموذجية في عام ١٩٥٣ .

ان المفتاح لفهم ظاهرة ستالين يوجد في دراسة الدولة ، كانت الدكتاتورية ضرورية لتعزيز ثورة ولدت من انتفاضة مسلحة أعقبتها حرب أهلية لا ترحم . ولنعد قراءة ما قالته روزا لوكسمبورغ حولها : « ان العلاج الذي أوجده تروتسكي ولينين ، ازالة الديمقراطية بحد ذاتها ، هو أسوأ من المرض الذي يفترض علاجه ؛ لانه يوقف المصدر الحي ذاته الذي يمكن ان يأتي منه التصحيح لكل النواقص المتأصلة في المؤسسات الاجتماعية . وهذا المصدر هو الحياة السياسية الفعالة وغير المقيدة والحيوية للجماهير الواسعة للشعب » (الثورة الروسية ، ص٦٠) . وهذه حقيقة وزيف في الوقت نفسه . زيف لانه بدون الدكتاتورية كانت الثورة ستهزم . وحقيقة لانه كان ممكناً في الواقع لظاهرة ستالين ان تظهر من هذه الدكتاتورية .

« ان الحرية لأنصار الحكومة فقط ، الحرية لأعضاء حزب واحد فقط ـ مهما كان عددهم كبيراً ـ ليست حرية على الاطلاق . فالحرية دائماً ، وعلى وجه التحديد ، هي حرية للمرء الذي يفكر بطريقة مختلفة . ليس هذا بسبب أي مفهوم متعصب للعدالة ، بل بسبب ان كل ما هو مرشد وكلي ونقي في الحرية السياسية يعتمد على هذه السمة الأساس ؛ وفعاليتها تتلاشى عندما تصبح « الحرية » امتيازاً خاصاً » (المصدر السابق ، ص٧٩) .

في ظل النظام الرأسمالي ، هذه الحرية وهذه الديمقراطية محددتان باستمرار ومهاجمتان بعدم المساواة الاجتماعية وحكم الربح . وعلى أية حال ، فان الاشتراكية بذاتها لا تختلق هذه الحرية وهذه الديمقراطية . كانت الدكتاتورية سيفاً ذا حدين . كانت ضرورية من ١٩١٧ الى ١٩٢٢ . على خلاف رأي روزا لوكسبمورغ ، ولكنها شكلت خطراً بالقدر الذي لم تخلق فيه الديمقراطية ولم تضمن حقاً الحرية لكل فرد . وهذا ما حدث . في غياب الديمقراطية يصبح الارهاب نظاماً للحكومة في دولة ستزداد جبروتاً باضطراد ، وهكذا أصبحت متطفلة أكثر فأكثر ، وأصبحت شمولية بالمعنى الحرفي للكلمة . بما انها طوّقت في كل مجال من مجالات الحياة الشخصية .

ومع ذلك ، فان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية كان الدولة الاشتراكية الأولى في التأريخ وكان معرضاً لعداء جميع الدول الأخرى في العالم ، وكان مهدداً باستمرار بالامبريالية الأجنبية ، مهدداً بصفة متواصلة بالتدمير ، الذي عاناه في الحقيقة الى مدى كبير بعض الشيء . يستطيع المرء أن يأسف وينبغي عليه ان يأسف للأخطاء التي حدثت على الطريق الى الاشتراكية وان يدين بقوة وبلا تردد ظاهرة ستالين ، ولكن عليه في الوقت نفسه ان ينص على انها كانت شكلاً واحداً وجدت فيه الاشتراكية .

ـ ٩ ـ

الاتحاد السوفيتي بعد ستالين

لم يعن موت ستالين ان ظاهرة ستالين هلكت معه ، لانها لا يمكن بالتأكيد اختزالها الى مجرد شخصية «المرشد» . وعلى الرغم من كل شيء ، على الرغم من الشرطة السرية ، ومعسكرات العمل الاجباري ، والاجراءات الاقتصادية والاجتماعية التنينية المتخذة ، فان حشداً هائلاً حزن على القائد الميت ورافق جثته الى مدفن الساحة الحمراء . لقد كان بالنسبة للشعب السوفيتي رمز مصيره المأساوي ومجده ، وشوهدت عوائل ضحايا سياسته وهي تمزج نحيبها مع العدد الأكبر لأقرباء ضحايا الحرب العالمية الثانية .

وبقيت مسألة خَلَفِهِ تنتظر الحل ، لانه من الواضح ان ستالين كان يظن نفسه خالداً ، لذلك لم تكن لديه خطط لحل هذه المسألة . وتحت ستار الفوضى التي سببها موته كانت ثمة محاولة لمالينكوف للاستيلاء على السلطة ، ربما بمساعدة من بيريا .

في ٦ آذار (مارس) أعلن فجأة ـ لم تكن الهيئات القيادية قد انعقدت ـ ان مالينكوف عين سكرتيراً أول للحزب ورئيساً لمجلس الوزراء . وهكذا بدا انه الشخص الذي سيخلف ستالين ، وأعيد تنظيم الرئاسة التي ضمت الآن عشرة أعضاء كاملين (مقابل ٢٤ عضواً) و ٤ مرشحين (مقابل ١١ مرشحاً) . وفي ١٠

آذار (مارس) ١٩٥٣ نشرت برافدا صورة «مزيفة» لستالين وماو ومالينكوف .

ان بيريا الذي كان نائباً لرئيس المجلس ، كان وزيراً للداخلية أيضاً . وشكلت هيئة الرئاسة الجديدة من ثمانية أعضاء من المكتب السياسي القديم كما كان موجوداً قبل المؤتمر التاسع عشر : مالينكوف ، مولوتوف ، خروشوف ، فوروشيلوف ، ميكويان ، كاغانفيتش ، وبولغانين ، وعضوين جديدين (كانا قد انتخبا في ١٩٥٢) : بيرفوخين وسابيروف .

وأزيح عن هيئة الرئاسة سوسلوف وكوسلوف وكوسيجين وبريجنيف . وفي ٢١ آذار (مارس) حدث تطور مفاجئ . لقد أعلن ان خروشوف حل محل مالينكوف كسكرتير أول للحزب . وكان القرار مؤرخاً في ١٤ آذار (مارس) . ومن هذا الوقت فصاعداً ، حدثت تغييرات كبيرة في سياسة الحزب الشيوعي والدولة .

ومنذ ١٦ نيسان (ابريل) أكدت برافدا مبدأ القيادة الجماعية . وفي ٢٨ آذار (مارس) صدر مرسوم بعفو عام نص على اطلاق سراح السجناء المحكومين بالسجن لأقل من خمس سنوات ، وبتخفيض محكوميات السجناء الآخرين بنسبة ٥٠ في المئة . وأطلق سراح الأمهات والشباب دون الثامنة عشرة والشيوخ . وقرر اعادة النظر في قانون العقوبات ، ولم تعد الانتهاكات الاقتصادية تعامل كجرائم جنائية .

وفي ٤ نيسان (ابريل) أعلنت برافدا أن «مؤامرة الأطباء» كانت تلفيقاً من الشرطة السياسية وان الاعترافات قد حصلت باستخدام التعذيب .

وفي ١٠ تموز (يوليو) ١٩٥٣ أعلن عن اعتقال بيريا (قُرِّرَ اعتقاله رسمياً في ٢٦ حزيران/ يونيو ، حسب ما يقول خروشوف ان الاعتقال جرى في اليوم نفسه) .(١)

---

١ ـ أعلن اعدام بيريا في ٢٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٣ بعد محاكمة رئسها المارشال كونييف وعقدت سراً .

كل هذه الاجراءات هاجمت سمات أساسية في النظام الستاليني . لقد اختزل دور المكتب السياسي . واعتقل كثير من موظفي وزارة الداخلية وأعدموا . وبدأ افراغ معسكرات العمل ، وأصبح الوضع الدولي أقل توتراً نوعاً ما عندما عقدت الهدنة الكورية في ٢٧ تموز (يوليو) ١٩٥٣ .

ان الاكتشافات حول «مؤامرة الأطباء» أجبرت الرأي العام على مواجهة مسألة القمع التي حدثت في الفترة السابقة . ألم يحدث في ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ الشيء نفسه الذي حدث في ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ ؟ ان مصداقية المحاكمات السياسية الكبرى للعقود السابقة قد وضعت موضع الشك .

ان الاصرار على القيادة الجماعية كان برهاناً واضحاً انه لم يكن ثمة استعداد للعودة الى دكتاتورية الرجل الواحد . كانت معسكرات العمل الاجباري لم تزل قائمة ، لكن كان ثمة هبوط في ميزان النزعة الاستبدادية لأول مرة منذ عشرين سنة ، وحدث ذلك بصورة علنية .

كانت «ذوبان الجليد» (عنون لرواية بقلم ايليا اهرمبورغ نشرت في ذلك الوقت) البدايةحقاً . ان انحسار ظاهرة ستالين ، التي سرّع بها موت ستالين ، قد فسرت بالبيئة التأريخية التي ساعدت على خلقها ، (أي ساعدت الستالينية على خلقها ـ المترجم) .

لقد ترك الاتحاد السوفيتي التخلف الثقافي وراءه . وكان ثاني أكبر دولة صناعية في العالم ، ذا صناعة ثقيلة جبارة وصناعة أسلحة متقدمة تقنياً . والحقيقة هي ان تعزيز نظام بيروقراطي للادارة والتخطيط قد أشاع البطء في تطوير الاقتصاد الاشتراكي في ميدان الصناعة الخفيفة والزراعة بشكل خاص . كل شيء كان يقرر في القمة . وكان ثمة انضباط دقيق جداً في المصانع والكولخوزات . وكان ثمة لجوء الى القمع أكثر من اللجوء الى الحوافز المادية بالنسبة لكسبة الأجور والمزارعين الجماعيين . وكانت لا تزال تمارس عملها الاجراءات التنينية التي اتخذت قبل الحرب وفي خلالها ، ولم تتغير كثيراً . ولم يكن العمال يستطيعون مغادرة مصانعهم ولا المزارعون الجماعيون حقولهم من

دون سماح ، وهذا لم يكن يعطى الا نادراً . وكان السفر لا يزال محدوداً ومراقباً بدقة .

وعلى الرغم من ان عدداً كبيراً من التقنيين والمهندسين قد جرى تدريبه . الا ان انتاجية العمل كانت لا تزال ضعيفة والناتج واطئاً . وكان النظام كفءاً في الأغلب فيما يتعلق باقامة مصانع الفولاذ الكبيرة ، وبناء القنوات ، والسكك الحديد والسدود الضخمة وحفر آبار النفط الجديدة ومناجم الفحم وجعلها تنتج . أما بالنسبة للأشياء الأخرى فقد كان أقل ملاءمة .

وفي ١٠ حزيران (يونيو) ١٩٥٣ أشارت برافدا لأول مرة الى « عبادة الشخصية » ، وجاء ذلك بعبارات عامة .

وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٥٣ ناقشت اللجنة المركزية قضايا الزراعة على أساس تقرير قدمه خروشوف ، وتضمن تحليلاً واقعياً للوضع الكارثي . وقد خفضت حصص التسليمات الاجبارية ورفعت أسعار المنتجات الزراعية .

وجرى تدريجياً اعادة النظر في السياسات المتبعة في السنوات الأخيرة من حياة ستالين ، فعلى سبيل المثال ، استعاد الاتحاد السوفيتي العلاقات الدبلوماسية مع يوغسلافيا ، وذهب خروشوف الى بلغراد (في حزيران/ يونيو ١٩٥٥) ، حيث اعترف بان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية كان على خطأ ، وقال ان بيريا كان مسؤولاً عن ذلك .

بعد استقالة مالينكوف من منصبه كرئيس للمجلس في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ ، عالج خلفه بولغانين قضايا الصناعة . وبين ١٩٥٣ وبداية ١٩٥٦ اتخذت خطوات عديدة غيّرت الوضع في الاتحاد السوفيتي وأرست الأساس للمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية .

وعلى سبيل المثال ، حرمت وزارة الداخلية من حق استعمال معسكرات العمل الاجباري ، ومنح الى وزارات الصناعة المختصة . وبدئ باخلاء المعسكرات وحدثت أولى عمليات اعادة الاعتبار . وهذه السياسة الجديدة

سببت الكثير من المشكلات في الداخل والخارج . اذ واجهت داخل الاتحاد السوفيتي معارضة عاصفة من الدوائرالقيادية في الحزب الشيوعي . ليس لدينا معرفة مفصلة بالصراعات الداخلية ، غير ان مدى التغييرات في القيادة التي حصلت بعد ١٩٥٦ تعطي فكرة عن الصراعات في داخل قيادة الحزب . كان عدد من الرفاق القياديين يخشون انه اذا ما أصبحت مجموعة من سمات ظاهرة ستالين موضع تساءل ، فإن ذلك سوف يعرض للشبهة الانجازات الايجابية للفترة السابقة والميزان الذي اعتمد عليه الاتحاد السوفيتي . انهم كانوا مرتبطين بظاهرة ستالين بعاداتهم وممارستهم ، ولكن الا يمكن ان يقال الشيء نفسه عن أولئك الذين كانوا في صالح التدمير الشامل الوحشي والأكثر سرعة للجوانب السلبية من الماضي ، أمثال خروشوف ؟ في عام ١٩٥٦ لم يكن الخط الفاصل قد رُسِمَ عن طريق استعادة موقف هذا القائد أو ذاك في الماضي ، بل على أساس آرائه في القضايا المعاصرة مثل استصلاح الأرض البكر لآسيا الوسطى (في كازاخستان بالدرجة الرئيسة) . فمن الممكن ، بل من المؤكد ، ان المواقف السابقة يمكن ان تضطلع بدور في الصراعات المعاصرة ، ولكنها لم تكن الحاسمة . ان خروشوف والعديد من القادة الآخرين يستحقون ، مهما كانت مواقفهم في الماضي ، تقديراً ليس بالقليل بالمعايير التأريخية . لقد أخضعوا الشرطة السياسية ، وأخلوا معسكرات العمل ، وعالجوا القضايا الاقتصادية العظيمة عن طريق محاولة تقليص البيروقراطية ، ومارسوا بحزم سياسة خارجية للسلم والتعايش السلمي واستعادوا العلاقات مع يوغسلافيا . وبالنسبة للمواطنين السوفيت أصبح العمل أكثر حرية والأمن الشخصي أكبر ؛ وهذا هو مغزى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي .

انه لحقيقة ان قسماً كبيراً من الرأي العام كان لا يزال تحت تأثير زعامة ستالين ؛ هذا يختلف من منطقة الى منطقة . فهو أكبر في موطنه جورجيا منه في لينينغراد على سبيل المثال .

لم يكن الوضع في الخارج بسيطاً . لقد نمت ظاهرة ستالين بقوة في الديمقراطيات الشعبية . فالنظام السياسي كان قد جرى استنساخه في الأغلب ، أو حتى فرضه الاتحاد السوفيتي . ومارس ستالين سياسة قائمة على عدم المساواة بين البلدان الاشتراكية المختلفة . ان الهجوم على ظاهرة ستالين في الاتحاد السوفيتي لم يفشل في ان تكون له عواقب جدية في بلدان كانت في أغلب الحالات قد حكمتها الفاشية في الماضي القريب (أقل من ثماني سنوات) . حيث كانت البرجوازية لا تزال قوية ، وفي عالم كانت الامبريالية فيه لا تزال في حالة تربص . وظهر ذلك في عام ١٩٥٣ ، حيث حدثت اضرابات ومظاهرات في جمهورية المانيا الديمقراطية ، في برلين والعديد من المدن الأخرى ، وفي بولندا في فروتسلاف (Wroclaw) . وأثار هذا العديد من المشكلات للأحزاب الشيوعية في البلدان الرأسمالية ، مع انها كانت محدودة بالمجالين السياسي والايديولوجي بما انه كانت لظاهرة ستالين بعض الآثار في هذين الميدانين .

ومما لا شك فيه ان الوضع في حالة الصين كان أكثر تعقيداً . فالثورة الصينية الناجحة كانت قد اتخذت مساراً مختلفاً تماماً عن الاتحاد السوفيتي . ان الثورة السوفيتية اضطلعت بدور هام في ولادة الشيوعية الصينية ، غير ان هذه تطورت فيما بعد وفق طرق أصيلة بالالتصاق بحقائق الوضع الصيني ، وقد أجبرت الظروف الثورة الصينية على اتخاذ طابع وطني فلاحي . ولم تكن العلاقات بين ستالين وماو سهلة ، ولكنهما في ١٩٥٠ توصلا الى نوع من المساومة التي حكمت العلاقات المتبادلة واقامة جبهة معادية للامبريالية موحدة ظهرت في أثناء الحرب الكورية . وبسبب سياسة التعايش السلمي ألم تغامر اعادة تقييم ظاهرة ستالين في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية بتقويض المساومة وبتقسيم الدولتين الشيوعيتين الكبيرتين وحتى بوضعهما الواحدة في مواجهة الأخرى .

من عام ١٩٥٣ الى عام ١٩٥٦ كان نهج خروشوف هو القيام بسلسلة

تعديلات أكثر من القيام بتحويلات عميقة ومشهودة . ففي الممارسة أدت هذه التعديلات الى تغيير كبير وساعدت على ازالة الجوانب الأكثر دموية وتقييداً من ظاهرة ستالين . لم تكن حتى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي سوى مناقشة ضئيلة للقضايا الأساس ، ولم تكن حتى نية هجومات شخصية على ستالين . وكان من الصعب التصرف على نحو آخر ، وفي الوقت نفسه كانت ثمة ضرورة للذهاب أبعد من ذلك .

أعلن خروشوف في المؤتمر العشرين في شباط (فبراير) ١٩٥٦ في خطابه العلني ان «الشرعية الاشتراكية» قد أستعيد تأسيسها ، وان الجهاز الاداري للسوفيات قد قلص (٧٥٠,٠٠٠ موظف مدني كان قد أعيد توزيعهم) ، وان العديد من الناس الأبرياء أعيد لهم الاعتبار . وعزا ، مرة أخرى ، المسؤولية عن أخطاء الماضي الى «عصابة بيريا» ، وأكد الحاجة الى قيادة جماعية .

نعرف ان عدداً كبيراً من أعضاء هيئة الرئاسة كانوا معارضين للنقد المباشر والجذري لظاهرة ستالين . وطرح خروشوف حول نقطتين أفكاراً ، ان لم تكن جديدة ، فانها جريئة الى حد كبير . انه أظهر ، خلافاً للتحليل الماركسي في بداية القرن العشرين ، ان الحرب لم تعد حتمية ، بسبب التغييرات التي حدثت في العالم . فبروز العديد من الدول الاشتراكية قد قلّص مجال عمل الامبريالية ، كما ان تفكك النظام الاستعماري قد عنى أن مؤخرتها مهددة . وهكذا ، فان التعايش السلمي يمكن ان يتسع بعد مؤتمر الدول الكبرى الذي عقد في جنيف ١٩٥٢ ، نهاية الحرب الكورية ، وتوقيع معاهدة سلام مع النمسا .

ومن ثم تبنى خروشوف الأطروحة التي تقدم بها موريس توريز في ١٩٤٦ واعترف : «ان أشكال الانتقال الى الاشتراكية سوف تصبح متنوعة باطراد» ، وان الانتقال يمكن ان يكون سلمياً ، أي من دون حرب أهلية . وانتقد العديد من الخطباء أمثال فورتسيفا وسوسلوف وكيريتشينكو «عبادة

الشخصية » ، والبيروقراطية ونزعة الجمود العقائدي ، ولكن بتعابير عامة جداً .

وكان ميكويان (وهو مرشح لعضوية اللجنة المركزية منذ ١٩٣٢ ، ومرشح للمكتب السياسي في ١٩٢٧ ، وعضو كامل فيه منذ ١٩٣٥) أول شخص هاجم ستالين . واعترف قائلاً : «لم يكن لدينا قيادة جماعية لما يقارب عشرين سنة» ، وانتقد الاطروحة حول حتمية الحرب بين البلدان الرأسمالية ، وحول «انخفاض الانتاج» في صناعة البلدان الرأسمالية ، تلك الأطروحة التي تقدم بها ستالين في ١٩٥٢ في «القضايا الاقتصادية للاشتراكية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية» . وشجب «الاستخدام السيء للاحصاءات» وأكد الحاجة الى العودة الى اللينينية .

وبينت المؤرخة أ . بانكراتوفا الى أي مدى تخلف البحث العلمي التأريخي وكل ميدان «العمل النظري» . واعترفت ، مثلاً : «انه نادراً ما أُبْدِيَ أي اهتمام بأهمية ادانة الاضطهادالقومي والاستعماري الذي قامت به الاوتوقراطية القيصرية» .

في مساء ٢٤ شباط (فبراير) قرأ خروشوف «تقريره السري» شاجباً «عبادة الشخصية» في جلسة مغلقة للمؤتمر ؛ آنذاك نقل الى أعضاء الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ، والى قيادات الأحزاب الشيوعية الشقيقة في البلدان الاشتراكية . والتقرير لم ينشر مطلقاً في الاتحاد السوفيتي ، غير ان «نيويورك تايمز» نشرت في ٥ تموز (يوليو) ١٩٥٦ ترجمة له لم يُعْتَرَضْ عليها بتاتاً . ويشكل التقرير ، مع القرار الذي اتخذته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحادالسوفيتي في ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٥٦ ،واحداً من وثيقتين رئيستين سميتا في الصحافة الغربية بـ «التخلي عن الستالينية» . وفي الساعات المبكرة من ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٥٦ خرج مندوبو المؤتمر مغمومين ومصعوقين من الجلسة التأريخية للمؤتمر .

أما فيما يتعلق بقادة الأحزاب الشيوعية الغربية فقد اكتشفواما كان قد قيل سابقاً .

كان الرأي العام السوفيتي بالكاد مستعداً للتقرير ، على الرغم من الاجراءات المتخذة منذ عام ١٩٥٣ . ومن المحتمل ان تكون الصراعات الداخلية سبباً لهذا الأثر الصادم ، غير انه ببساطة جعل محتويات التقرير أكثر ايلاماً . وانطوى التقرير على وثائق كانت معروفة سابقاً (ولكن ليس في الاتحاد السوفيتي) ، وبهذا حصلت على طمغة التوثيق ، وكذلك وثائق جديدة مثل برقية ستالين الى أعضاء المكتب السياسي حول القمع ، وقرار اللجنة المركزية حول استخدام التعذيب ورسائل القادة المقتولين ايخه وردزوتاك .

واحتوى التقرير أرقاماً ، على سبيل المثال ، عدد أعضاء اللجنة المركزية الذين انتخبوا في ١٩٣٤ وأعدموا فيما بعد ، ورواية نقدية لموقف ستالين بصدد العديد من القضايا ، مثلاً ، القضية اليوغسلافية . ان معظم الوقائع المقتبسة صحيحة ، حتى وان كانت النبرة في بعض الأحيان مقحمة ، كما هي الحال في وصف ستالين وهو يوجه العمليات العسكرية للحرب العالمية الثانية باستخدام نموذج للكرة الأرضية .

ومن جهة أخرى ، فقد ضم التقرير القليل من التفسير حول سبب نشوء الظاهرة . وتعبير «عبادة الشخصية» ذاته اختزل ظاهرة ستالين الى جانب ثانوي نسبياً : عبادة القائد . ان التحليل من الزاوية التأريخية والنظرية للمسألة الأساس كان لا يزال سطحياً . ولم يجر ذكر للظروف التي تمَّ في ظلها التجميع الزراعي . والقضايا المتعلقة بحرية الخلق والبحث العلمي ونقد سياسة ستالين القومية الروسية . وما شخص كان فقط هو الطابع الشخصي والاستبدادي والبيروقراطي والدموي على الأغلب في حكم ستالين .ويلاحظ المرء محاولة القاء تبعات القضايا كلها في الماضي على عاتق ستالين ، وتفسير أحداث الماضي بالعلاقة مع سماته الشخصية فقط .

ان قرار ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٥٦ ، الذي كان محتواه سياسياً ونظرياً كثيراً ، حدد نوعين من الأسباب : «الظروف التأريخية الموضوعية والملموسة التي بنيت في ظلها الاشتراكية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية» ، و «العوامل الذاتية المرتبطة بالسمات الشخصية لستالين» . انه من الضروري ، بالطبع دراسة الظروف التأريخية . والتقرير يقدم صورة جيدة للقضايا الداخلية والخارجية التي واجهتها الثورة الاشتراكية وبناء الاشتراكية . اذ تطلبت الظروف الداخلية والخارجية انضباطاً حديدياً ، ويقظة متنامية أبداً ، وقيادة ممركزة بشدة كان من المحتم ان يكون لها أثر سلبي في نمو أشكال معينة من الديمقراطية . وهذه «التقييدات للديمقراطية كانت تعتبر مؤقتة» .

وهذه الاعتبارات جوهرية ، ولكن لم تحمل الى أبعد من ذلك ، وقد حد من مداها باشارات تأريخية غامضة .وهكذا ، بينما كان المؤتمر العشرين والقرارات التي اتخذت فيما بعد قد أثارت عدداً معيناً من المسائل بصورة مباشرة جداً .» الا انها لم تتناول بما فيه الكفاية المسائل الأساس ، أي الأسباب العميقة لظاهرة ستالين .

ان الأجزاء الأكثر وضوحاً والأكثر ضرراً من ظاهرة ستالين كانت قد أزيلت ، ولكن من دون مناقشة عميقة للظاهرة كلها . وكانت للسياسة الجديدة المتبناة في المؤتمر العشرين نتائج متناقضة . لقد تحسنت حيوات المواطنين السوفيت ، وأصبحت ظروف العمل أفضل ، وبدأ العمال يكونون قادرين على الانتقال من المصانع دونما عائق ، وأزيلت الاجراءات القمعية في داخل المصنع . واضطلعت النقابات بدور أكثر فاعلية في الدفاع عن مصالح كسبة الأجور . وزيدت الأجور الواطئة وحوربت البيروقراطية . وهكذا ، فان ما يزيد على مليوني موظف مدني نُحُّوا من الأجهزة المركزية حيث كانوا يعملون . وصين الأمن الشخصي بصورة أفضل . وأصبحت الحرية في البحث العلمي والخلق أوسع بما لا يقاس مما كانت عليه في فترة ستالين . وان لم يعترف بذلك رسمياً . وألغيت «اللجنة الخاصة» في وزارة الداخلية .

مع ذلك ، فان الاصلاحات الاقتصادية كانت لا تزال غير كاملة . واتخذ العديد من الخطوات التنظيمية لمكافحة المركزة البيروقراطية ، مثلاً ، عدم التنظيم في الأغلب لاقامة المجالس الاقتصادية المنطقية (Sovnarkhozes) ، ولكن مناهج الادارة لم تتعرض للمساءلة واستمرت في الافادة قليلاً من الحوافز الاقتصادية والتقليل من قيمة دور قانون القيمة في تكوين الأسعار . ان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية سجل نجاحات اقتصادية حقيقية ، غير ان قطاع البضائع الاستهلاكية ، وقبل كل شيء ، الزراعة كانت لا تزال تعاني المعضلات .

ان المقاومة الغاضبة للسياسة التي تبناها المؤتمر العشرون برزت في مستوى القيادة الحزبية نفسها . ففي حزيران (يونيو) ١٩٥٧ صوتت ضد خروشوف الأغلبية في هيئة الرئاسة التي انتخبت في المؤتمر العشرون .(٢) وكان عليه ان يدعو لعقد اللجنة المركزية بسرعة لكي يصحح الوضع وينحي خصومه .

وضمت هيئة الرئاسة الجديدة أعضاء كاملين جدداً من بينهم بريجنيف والمارشال روجوكوف ، وكان كوسيجين ومازوروف من بين المرشيحن . ومع هذا لم تتخذ «اجراءات ادارية» ضد الخصوم . وعلى أية حال ، يمكن ان نفترض انه كان لا يزال ثمة خلاف كبير في داخل الحزب بعد عام ١٩٥٧ ، وهذا ما يفسر لماذا بقيت «ازالة الستالينية» محدودة من حيث المدى وتقدمت بصورة متقطعة . فعلى سبيل المثال ، لم يعد الاعتبار الى ضحايا محاكمات موسكو الكبيرة ، مع انه بدا واضحاً تماماً أنهم كانوا أبرياء من وجهة النظر القانونية . وعلى الرغم من ان السوفيتات كان قد أعيد تنشيطها

٢- بولغانين ، فورشيلوف ، كاغانوفيتش ، مالينكوف ، مولوتوف ، بيرفوخين ، سابيروف ، وهذا يعني ان سبعة من أحد عشر عضواً كاملاً قد عارضوه . وأيده سوسلوف ، ميكويان ، كيريتشينكو وكذلك بريجنيف وجوخوف ومرشحان آخران .

الى حد ما ، الا ان البنى السياسية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية لم تكد تتغير . فمثلاً ، ان حرية التعبير ، شأنها شأن حرية الخلق ، كانت لا تزال غامضة وخاضعة للارادة الطيبة للسلطات . ومما لا نزاع فيه ان مسألة الديمقراطية لا يمكن ان تطرح في الاتحاد السوفيتي لعام ١٩٥٦ بالطريقة نفسها كما هي مطروحة في البلدان الرأسمالية ـ الديمقراطية الغربية . فمنذ عام ١٩٢٢ أرسى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية أسس ديمقراطية اقتصادية واجتماعية . وقد مكّن التطور الثقافي كل انسان من الحصول على المعرفة ، وهكذا فان القاعدة للديمقراطية السياسية قد تعززت ، ولكن الديمقراطية السياسية كانت لا تزال غير موجودة .

ان نظام الحزب الواحد في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية كان حقيقة لا يمكن نقضها ، وهي نتاج قد درسناه ، حيث وجدت فرصة قليلة للتغيير . ولم يكن أمام الديمقراطية السياسية من خيار سوى ان تنمو من الواقع الفعلي الذي تميز بحزب قائد واحد . وليس ثمة شك في انه في هذا الميدان كانت الصعوبة الأعظم . ولم يكن مفاجئاً ان واجهت في ميدان الأدب التيارات المتناقضة التي ظهرت في الاتحاد السوفيتي بعد ١٩٥٣ ، الواحد الآخر بأكثر ما يكون من ضراوة . ففي هذا المضمار كانت لا تزال آثار ظاهرة ستالين محسوسة . وقد تميزت بسيادة الاجراءات الادارية وحتى القمعية أكثر من تميزها بالمناظرة السياسية والايديولوجية . ولا يضطلع بدور ضئيل الرجال والبنى في « مظاهر الستالينية الجديدة » التي وجدت تعبيرها العملي في تحريم نشر الكثير من المؤلفات الأدبية والتاريخية والفلسفية ، وبعض الأحيان حتى في توقيف كتابها الذين صدرت بحقهم أحكام ثقيلة بالسجن أو الترحيل ، وفي بعض الحالات الاحتجاز في المستشفيات العقلية .(٣)

٣ـ وهذا ما حدث لكتاب ، على سبيل المثال ، سينيافسكي ودانييل في ١٩٦٥ . والبيولوجي ميدفيديف الذي احتجز تعسفياً في مستشفى للأمراض العقلية .

لقد افتتح المؤتمر الثاني والعشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي المناظرة مجدداً حول ظاهرة ستالين . وفيه كشفت أشياء جديدة ، وبخاصة حول اغتيال كيروف . واتخذ المؤتمر قراراً بازالة جسد ستالين من المدفن (Mausoleum)(٤) ، وتغيير اسم ستالينغراد الى فولغوغراد . وتحدث خروشوف عن اعلان ما تتوصل اليه لجنة التحقيق في موت كيروف ، ولكن هذا الأمر لم يحدث بتاتاً . وأخيراً ، اقترح بناء نصب في موسكو لضحايا الارهاب الستاليني ، ولكن المسألة لم تثر مرة أخرى بعد المؤتمرالثاني والعشرين .

وهكذا ، فان السياسي السوفيتي لم يكد يعاني أية تغييرات بعد ١٩٥٦ . وكان الدستور السوفيتي لعام ١٩٣٦ لا يزال في الكثير من الحالات الاطار الشكلي الذي انعكس بصورة غير كافية في الممارسة السياسية .

انه لمن المغاير للوقائع ان يوصف اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية المعاصر بكونه ستالينياً . ومظاهر «الستالينية الجديدة» التي يمكن رؤيتها هي بقايا من الماضي ، مظاهر تحدث بفعل عادات الماضي ، فالبنى الادارية الراسخة والمواقف الفكرية صعب تغييرها ، كما هو معروف . وأنا لا أدعي انه ينبغي التقليل من جدية هذه المظاهر . وهي لا تزال الى حد ما تشوه صورة الاتحاد السوفيتي في العالم ، وبالتالي ، صورة الاشتراكية التي تمثلها أمام التأريخ ، ومما لا شك فيه انها تشكل كابحاً للنمو الاقتصادي والثقافي للبلاد . ولا تزال آثار متبقية لظاهرة ستالين .

٤ـ رماده وضع في الجدار الأمامي للكرملين على مقربة من قبور القادة السوفيت الآخرين . ويحدد البقعة للعابرين تمثال نصفي صغير .

ومع انه لا يمكن ان تتخذ أو يجب ألاّ تتخذ الاشتراكية نموذجاً ، الا انها تشكل التجربة الاشتراكية الأولى الأكثر أهمية في التأريخ . فمهما كانت ظاهرة ستالين مأساوية فانها تبقى محدودة بمعايير الزمان والمكان . والحقيقة في انها وجدت وان نتائجها قد تخطت حدود الاتحاد السوفيتي ، وتخطت الفترة التي سادت فيها ، ينبغي ان لا تخفي غنى الاشتراكية مع انها لم تنجز كل الآمال التي ابتعثتها . ويبقى لنا الآن ان نبني الاشتراكية على أساس اقتصاد رأسمالي غربي متطور .

المحتويات